

بوسلف السبع

أضف انفاق



تليجرام : هنا سور الأزيكية
أكبر مكتبة رقمية

يوسف السباعي

أرض النفاق

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية (شراء)

رقم التسجيل ٦٢٨٩٩

تليجرام مكتبة غوامر في بحر الكتب

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاء
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧ ٠٠٠٠٠)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١٩٤٨)	خبايا الصدور
(١٩٤٨)	يا أمة ضحككت
(١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩ ٠٠٠٠٠)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١٩٤٩)	من العالم المجهول
(١٩٥٠)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠ ٠٠٠٠٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(١٩٥٠)	بين أبو الريش وجنيثة ناميش
(١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١ ٠٠٠٠٠)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	بين الأطلال
(١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليل
(١٩٥٢)	الشيخ زعرب
(١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك يا ليلى
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(١٩٥٣)	مسة عابرة
(رواية فى جزأين ١٩٥٤)	رد قلبى
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(١٩٥٨)	من حياتى
(١٩٥٩)	لطمات ولثامات
(رواية فى جزأين ١٩٦٠)	نادية
(١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(١٩٦١)	أيام وذكريات
(١٩٦٢)	أيام من عمرى
(رواية فى جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية فى جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

الإهداء

إلى خير من استحق الإهداء
إلى أحب الناس إلى نفسي
وأقربهم إلى قلبي
إلى يوسف السباعي
ولو قلت غير هذا
لكنت شيخ المنافقين
من أرض النفاق
يوسف السباعي



مقدمة

أهو الغرور الذى يعثنى إلى أن أهدى كتابى إلى نفسى ؟
أم هى الأنانية ؟

لا أكذبكم القول .. أنى — ككل إنسان — أنا فى مغرور ..
ولكنى أؤكد لكم أن ذلك لم يكن هو الدافع إلى هذا الإهداء
الجرئ .. وأسميه جريئاً لأنها لا شك جرأة منى — وأنا المنافق الذى
طلما بدوت للناس متواضعاً .. منكراً لذاته — أن أفصح نفسى
فأخصها .. دون بقية خلق الله .. بإهداء الكتاب .. وأتبعها
علناً .. بأنها أحب الناس إلى !

ما الذى دفعنى إلى هذه المغامرة ؟. لم لم أهد كتابى إلى عزيز
لدى ؟ والأعزاء كثيرون فى أرض النفاق .. فأوفر على نفسى ما قد
يوجه إلى من لوم وسخرية ؟.

دفعنى إليها أمران .. أولهما .. أنى لا أود أن أكون — كما قلت
فى الإهداء — أول للمنافقين فى أرض النفاق .. وأنى لا أرغب فى أن
أتهم بأنى أنهى عن خلق وآتى مثله .. أو أنى آمر الناس بالبر وأنسى
نفسى .. بل أريد أن أكون أول من يخلع رداء النفاق .. فى أرض
النفاق .. فأبدو على حقيقتى .. أناً مغروراً .

وثانيهما .. أنى أود أن أكرم نفسى وهى على قيد الحياة .. فلشد
ما أخشى ألا يكرمنى الناس .. إلا بعد الوفاة .. ونحن شعب يحب
الموتى .. ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا فى باطن الأرض .
إنى أريد كل شيء .. أريد ما بالدنيا وأنا فى الدنيا .. أما الخلود ..

والذكرى .. والتاريخ .. فما حاجتى إليها .. وأنا عظام نخرة ..
تنوى فى قبر يقفرة .

ما حاجتى إلى تقدير الأحياء .. وأنا بين الأموات ؟ .. ما
حاجتى إلى أن يذكرونى فى الدنيا وأنا فى الآخرة !! ويمجدونى فى
الأرض وأنا فى السماء !

أنى أبغى المدح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس ..
فما أمتعنى شئ كسماع المدح والتقدير .. قولوا عني مخلصين ..
وأنا بينكم .. إني كاتب كبير قدير شهير .. وإني عبقرى ..
ألمنى .. لوذعى .

فإذا مات ، فشيءونى بألف لعنة ، واحملوا كتيبي فأحرقوها
فوق قبرى ، واكتبوا عليه : « هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره
فى لغو وهذر » .

إني لاشك رابح كاسب .. لقد سمعت مدحك وأنا حى محتاج
إليك .. وصممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت ، أغنانى الله عنكم
وعن دنياكم .

هل علمتم لم أهديت الكتاب إلى نفسى ؟ . لأنى أحب نفسى
وأقدرها ، ولدى الجرأة على أن أقول ذلك .

إليك الكتاب بعد هذا .. لقد حاولت جهدى أن أكون فى
كتابه .. كما كنت فى إهدائه .. غير منافق ، وأن أكتب فيه بما
استطعت من الصراحة .

ولست أزعم أنى نجحت تمامًا .. فهناك موضوعات ، لم أستطع
طرقها . وهناك سطور شطبها بعد أن كتبتها .. ولكن لم يكن من
ذلك بد ، على الأقل لكى يمكن للكتاب أن يرى النور ، ولكى
يمكن لكم أن تقرأوا الكتاب .. هل فهمتم ؟

يوسف السباعى

(١)

تاجر أخلاق

النزاهة والعفة والمروءة
والتضحية !!

أوتظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى
مرتبة الزعماء في هذا الزمن ؟ .. هل
تظن أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوافر
فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟

تاجر أخلاق بالجملة والقطاعي ...

« المحل له فروع في جميع أنحاء للعالم »

أدهشتني اللافتة .. كما لا شك أنها تبعث الدهشة في نفس كل من يراها
غبرى .. فما رأيت من قبل تاجر أخلاق ، وما سمعت قط أن الأخلاق تباع
لا بالجملة ولا بالقطاعي .

وهزئت رأسي في حيرة .. وخيل إلي أني قد أخطأت القراءة فعدت مرة ثانية
أحقق فيها النظر وأمعن في قراءتها مرة بعد مرة .. فوجدت أني لم أخطئ في حرف
واحد ، وأن الرجل حقاً تاجر أخلاق .. أو على الأقل هذا هو ما يدعيه .

كان الوقت بعيد الظهر .. وقد انتهت من تناول وجبة دسمة شهية ..
عمادها : الأرناب والملوخية .. وأركانها ورق العنب المحشو ، وطبق مسن
الدمعة .. وحواشيها كمية لا بأس بها من سلطة الطحينة والخيار المخلل ..

وخاتمها شقة مثلجة من بطيخة « شليان بلاك » أصلى .

انتهيت من الغداء .. وما كان بودى أن أنتهى .. فشتان عندى بين مباشرة الغداء والانهاء منه .. وشتان بين حالتى فى أثناء الغداء وحالتى بعده .. ولا سيما إذا كان غداء صيف وملوخية بالذات .

فأنا فى الغداء صائل جائل .. مكر بلا فر .. مقبل بلا إدبار ، كأنى الحجاج فى قوله : « لا يقعق لى بالشنان » ولا يغمز جانبى كتغماز التين « لا أترك ميدان المائدة حتى آخر طبق وآخر لقمة .

أما بعده — أعنى بعد الغداء — فأنى خائر القوى ، مسترخى الأطراف ، طريح مكدود ، خامل الحس ، متبلد الذهن .. فلقد صرعتنى الطبايق بعد أن أفنيتها .. وهزمتنى بعد أن كدستها فى الوعاء الذى ما ملأ ابن آدم شراً منه ، وأحسست بثقل فى معدتى كأنى قد ملأتها بالحجارة .

وهكذا جلست كعادتى بعد الغداء .. وقد أحسست بوطأته .. وشعرت بالنوم بها جنى بلا رفق ولا هوادة وكرهت أن أستسلم له .. فما كان يتعبنى شيء قدر النوم بعد أكلة ثقيلة دسمة .

وخرجت إلى الشرفة ، وتمددت فى مقعد مريح .. وأمسكت بإحدى الصحف أستعين بها على طرد النوم .. ولكنى كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار .. فلقد ازداد ذهنى بالقراءة تبلداً ووجدت النوم يتسلل إلى أجفانى تسلل الحب إلى القلوب الخالية .. وأخذت أنظر إلى الصحيفة فأجد حروفها تتراقص ، وتترنخ ، وتتداخل ، وتتشابك ، وإذا لى أقرأ منها كلاماً هو أبعد ما يكون عن حقيقتها ، كلاماً من وحى الذهن التائه الحالم .. وأحس برأسى يسقط فجأة على صدرى ، أو على كتفى ، فأهب من غفوقى ، وأعود إلى اليقظة والانتباه .

ولست أدرى كم من الزمن دامت تلك الغفلات المتقطعة ، التى كنت أستغرق فيها .. عندما تنبث فجأة وعزمت على أن أخرج للسیر خارج الدار .. بعد أن أيقنت أنه لا سبيل لمقاومة النوم مع استمرار الاستلقاء على الأريكة فى هذا الوضع

المريح ، وبعد أن أيقنت أن القراءة هي خير منوم يتناوله إنسان في مثل حالتي . وهكذا طردت النوم من عيني ، وتحاملت على نفسي ، ونهضت حاملا الوعاء المقدس الممتلئ .. فارتديت قميصا وبنطلونا ، وحذاء من الكاوتش ؛ وتناولت عصا خفيفة ، كنت دائما أستعملها كرفيق سير ، ووضعت على رأسي قبة من الفل ، وعلى عيني منظارا أسود ، وغادرت الدار .

كنت أقطن في أحد أطراف المدينة .. وكانت دارى تقع في أول طريق قد تناثرت في بدايته بضعة منازل صغيرة ، وامتدت على جانبه أشجار البانسيانس التي تتكاثر أوراقها صيفا ، تكسو هاماتها أكداش من الزهور الحمر المشتعلة المتأججة .

سرت في الطريق ، وجاوزت الدور إلى الخلاء ، وهبت على نسمات ، ملأنتني نشاطا .. فأحسست بخمول الجسد قد تطاير ، وركود الذهن قد تبدد ، وخضت معدنى شيئا فشيئا ، فلم أعد أحس بذلك الثقل الذى كنت أحسن به ، فأمنعت في السير .

وطال بي السير .. حتى وجدتنى أتوقف أمام حانوت قد قام على أحد جوانب الطريق .

وتملكنتى الدهش .. فما كنت قد رأيت الحانوت من قبل .. رغم تعودى السير في الطريق ، وزاد من دهشتى أن البقعة التى أقيم فيها الحانوت كانت مقفرة خالية ، لا يكاد يمر بها إنسان ، وكان من الغياوة والحق أن يحاول تاجر أيا كان أن يتخذ من البقعة المقفرة سوقا لتجارته .. إلا إذا كان قد نوى أن يبيع بضاعته لنفسه أو للجن والشياطين .

واقتربت من الحانوت لأتبين أى نوع من الحوانيت يكون ، ولم يد على مظهره الخارجى ، ما يستدل منه على أنه مقهى من تلك المقاهى الخلوية ، التى تقام في أطراف المدينة ، والتى يلجأ إليها الناس لينعموا بالهدوء والسكينة .. إذ لم أجد أثرا المناضد أو مقاعد صفت خارجها ، ووقفت أمام الحانوت ، ورفعت

بصرى إلى أعلى ، فقرأت اللافتة العجيبة : « تاجر أخلاق .. بالجملة والقطاعى » .

وعلت وجهى ابتسامة عريضة ، وانطلقت من فمى ضحكة خافتة :
« تاجر أخلاق » !!

هذا رجل مجنون ولا شك ، فما خطر بيالى قط قبل أن أرى اللافتة أن الأخلاق بضاعة يمكن الاتجار فيها .

أمر ترى الرجل نصابًا محتالا ، وأن الاتجار بالأخلاق قد أضحي نوعًا جديدًا من الدجل وطريقة مبتكرة للضحك على السذج والبسطاء ؟
ولم لا .. وهل يصعب على الرجل أن يجد من أصحاب الجهالة زبائن يتعاون بضاعته ؟

ولكن الرجل محتال غيبى ، ودجال أحق ، فما أظنه فى تلك البقعة النائية الخالية يجد أى نوع من أنواع الزبائن ، لا جاهلا ولا غير جاهل ، لقد كان خيرا له أن يشيد حانوته فى وسط المدينة ، أو فى حى من أحيائها العامرة بالمخازيب والمخابيل .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى التقدم داخل الحانوت فقد كانت المسألة تستحق الاستطلاع ، ولم أشك قط فى أننى أمام مورد تسلية ومنبع فكاهة ، وأن بصاحب الحانوت لوثة أو خبيلا أو مسًا من فلسفة .

ووقع بصرى على صاحب الحانوت .. وقد قيع بين كوم من (الشالات) المتنفخة ، وأطرق برأسه .. واستغرق فى صمت عميق .. ووقت أتأمله برهة ، فوجدته كهلا قد وهن منه العظم ، ورق الجسد ، وغطى شيب رأسه (بطاقيّة) بيضاء ، وتدلّت لحيته الطويلة على صدره .. وبدت عروقه الخضراء بارزة تحت جلده الأبيض الرقيق ، وغطى جسمه بعباءة سوداء ، ودس قدميه فى (مركوب) أحمر .

ولم أجد فى منظر الرجل ما يبعث على الخشية .. وماذا أخشى منه وهو على

حاله تلك من الوهن والعجز . وتقدمت خطوة أخرى فأحس إلى الرجل وانتفض في مقعده ، فلقد باغته رؤيتي ، وهو الذي لم يتعود أن يرى أحداً يطرق حانوته ، ففزع من البيع والشراء بأن يقبع في صمت ويأس بين أكداس بضائعه المنتفخة المكتظة ، لا يأمل في شار أو زائر ..

وأقر أنه السلام في أدب واحترام خشية أن يكون جنونه من نوع شرير خطر ، ولكن الرجل رد على تحيتي في سكون وتؤدة ، جعلاني أبذل برييتي في عقله ريبة في عقلي ، وجعلني أراجع نفسي مرة ثانية .. وعاودني الشك في صحة قراءتي اللافنة — رغم قراءتي لها ما يربو على المائة مرة — وقلت لنفسي : إن البصر خداع ، وإنه لا شك قد خدعني في قراءة اللافنة .. فأبداها على غير حقيقتها . وأصابني حيرة شديدة .. ودفعني الشك إلى التردد ، فلقد تصورت ما يمكن أن يقول عني الرجل ، وهو على مثل ما يبدو من عقل وحكمة ، ولا يعدو أن يكون تاجرًا عاديًا .. لأي نوع من أنواع البضائع .. تاجر غلال .. تاجر عطارة .. أي شيء من هذا القبيل ، تصورت ما يمكن أن يقول عني ، إذا ما سألته أن يبيعه « أخلاقًا » ..

لنصوّر أي إنسان ماذا يمكن أن يقول عنه أي تاجر في الطريق إذا ما ذهب إليه وسأله أن يبيعه أخلاقًا .

مجنون ولا شك !!

وهكذا لم أر خيرًا من التحفظ في حديثي مع الرجل ، وأن أحاول أن أثبت من خلال الحديث حقيقة بضاعته ، وهل هي بضاعة عادية ، كثيرها من البضائع التي يتجر بها الناس .. أم هي حقًا كما تقول اللافنة : « أخلاق بالجملة والقطاعى » .

وبدأته الحديث قائلاً :

— سلامات يا حاج .. كيف الحال ؟

وهز الرجل رأسه ببطء :

— رضا .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

— كيف حال السوق عندكم ؟

— والله « موش ولا بد » .. الحال راكدة ، والسوق نائمة ، والبضائع مكدسة كما تراها .

— ولكن ما سبب فى هذا الكساد ؟

— من يدري !

— لم لا تعلن عنها ؟ إن الإعلان قد أضحى شرطاً أساسياً للنجاح ، إننا قد أضحينا فى زمن الإعلان . الإعلان عن كل شيء .. عن البضائع والأعمال ، وعن الأجساد والرجال ، فما بالك لا تعلن عن بضاعتك ؟

ورأيت الرجل يتسم فى سخرية :

— أنا أعلن عن بضاعتى ؟ أعلن عن شيء لا يفهمه مخلوق .. أعلن عن شيء لا يستغنى عنه إنسان .. هذا والله هو الجنون .

ولم أجد فى قول الرجل ما يدلنى على نوع بضاعته ، فقد كان قوله عاماً ، ينطبق على كثير من أنواع البضائع .

ولم أجد بداً من أن أتجه إلى بغيتى من أقصر طريق ، فقلت للرجل ببساطة :

— هل أستطيع أن أجد لديك بعضاً من ..

ولم أتم حديثى ، أو أفسر مطلبى ، بل أشرت إلى الأكياس إشارة عامة لا تحدد شيئاً بالذات لعل الرجل نفسه يسمى شيئاً مما يبيع .. ولكنه لم يزد على أن أشار برأسه بالموافقة علامة على أنه يوجد لديه « بعض من .. »

وعدت أستدرج الرجل بقولى :

— من أى نوع ؟

— من جميع الأنواع .

— أيمكننى أن أرى بعضها على سبيل العينة ؟

— البضاعة أمامك . قلب كما تشاء .

ووجدت أن المسألة قد حلت ، فليس عليّ إلا أن « أدب » يدي في كل شوال فأفحص ما به .. ولا شك بعد ذلك أني سأعرف ماذا يبيع الرجل . ومددت يدي في أقرب الأكياس التي فوجدت به حبات صغيرة كمحبات الكسبرة الجافة... وأخذت أفحصها فحصى خير عليم ، كأني أعلم مقدار جودتها أورداءتها ثم أعدت العينة إلى الكيس .. ومددت يدي في كيس آخر ، فوجدت به مسحوقاً أصفر اللون ككبريت العمود ؛ ورفعت منه حفنة إلى أنفي ، فلم أجد به رائحة الكبريت ، وانتقلت إلى كيس آخر .. فوجدت به مسحوقاً أبيض ، أشبه بالملح .. وهكذا أخذت أنقل يدي من كيس إلى كيس ، والرجل يلحظني من طرف خفي .

وفحصت معظم ما في الأكياس التي كانت في متناول يدي ، فلم يزدني الفحص إلا حيرة ودهشة ، إذا كانت الأكياس لا تحوى إلا مساحيق ومواد شديدة الشبه بتلك التي يصرها المرء في حانوت العطار ، ولا يعرف لها اسماً . وانتهى بي الأمر إلى أن أقنع نفسي أن الرجل لا بد وأن يكون عطاراً يعقله لونه بسيطة ، أو كما يقولون « هفة » تجعله يصر على أن يسمى عطارته « أخلاقاً » ولا أظنه الأول من نوعه ، فقد سبق لي أن صادفت بائع « فول مدمس » لا يبيع بضاعته إلا إذا طلب منه الشاري « لوز » و« بائع » طعمية » لا يطبق أن يطلق أحد على بضاعته سوى « كباب » ، ولست أشك في أنها طريقة لتجويد البضاعة والترويج لها ، أو هو نوع من التشبيه الذي يحذف فيه المشبه ويبقى المشبه به ، كقولي : إذا ما رأيت حسناء : « رأيت قمراً » .. أو إذا رأيت بعض صحبي « رأيت حميراً » .

وحاولت أن أجد لنفسى صلة بين العطارة والأخلاق ، حتى أبرر تسمية الرجل لنفسه تاجر أخلاق .. فلم أستطع .. فاكفيت بأن قلت لنفسى « لله في خلقه شعون » .

كل هذا طاف برأسي في ثوان معدودات وأنا أدس يدي في الأكياس

وأخرجها بيضاء من غير سوء .

وجلس الرجل يرقبني وأنا أنقل يدي من كيس إلى كيس .. وأخيرًا سألتني في هدوء بعد أن أبصر حيرتي :

— ماذا تريد ؟

وأسقط في يدي .. وزادت حيرتي .. ولكنني سألته بسرعة ، مشيرًا إلى أحد الأكياس :

— أى نوع هذا ؟

وأجاب الرجل ببساطة متناهية :

— شجاعة .

ولم أستطع أن أمنع ضحكة أفلتت من شفتي ، وسألته دهشًا :

— شجاعة ؟

من يتصور هذا ؟ .. إن المجنون حقًا تاجر أخلاق .. إن بصرى لم يخدعنى في قراءة اللافتة .. وما عاد هناك بعد قوله أى شك في نوع بضاعته .

ولم يرتح الرجل كثيرًا لما بدر مني من ضحك ، ونظر إليّ نظراته إلى طفل يريد أن يلهو ، وقال مؤنّبًا :

— يا بني .. ليس لدى وقت للمزاح .. ابحث لك عن مكان للعبث غير

هذا .. إذا كنت لا تريد الشراء فخير لك أن تنصرف .

ولم تكن لي بالطبع أية رغبة في الانصراف ، فقد بدا لي أن المسألة مسلية جدًا .. وأن الرجل يستحق أن يقضى معه المرء بعض الوقت .. فتصنعت الجذع وكسوت وجهي مظهر الغضب .. وقلت بلهجة تشوبها الحدة كأنه قد جرح كرامتي :

— أى عبث هذا وأى مزاح ؟ إلى أريد الشراء .. إن وقتي لا يتسع للتسكع في الحوانيت حتى ولو كانت حوانيت أخلاق .. هل تظن أني أقطع كل هذه المسافة من أجل العبث والمزاح ؟

وخدع قولى الرجل .. فبدا عليه الأسف وأطرق متمتما ببعض كلمات الاعتذار .. ولم أر خيراً من الاستمرار فى هذا الجدد ، ومن كتمان زوبعة الضحك التى تصطخب فى صدرى ، ووضعت إحدى يدي فى جيبي .. وأشرت بالأخرى فى شىء من الثقة والكبرياء إلى « شوال الشجاعة » وقلت فى منتهى الجدد .

— زن لى رطلا .

وأجاب الرجل بنفس الجدد .. ولحت فى عينيه شيئاً من التبرّم بجهل المطبق :

— ليس بالرطل .

— إذاً .. أقة .

— ولا بالأقة .

— كيلو !!؟

وهز الرجل رأسه فى استنكار .. فعدت أقول فى شبه اعتذار :

— إذاً .. اكنل لى قدحاً .

— ولا بالقدح .

وبدت على الحيرة .. وساءلت نفسى : إذا كان الخبول ينوى أن يبيعنى ذلك المسحوق بالواحدة فيعد على الذرات ، ولكن الرجل أنقذنى من حيرتى ليقعنى فى حيرة أدهى وأمر ، فقال بلهجته الجادة :

— نحن هنا لا نزن بالرطل ، أو نكيل بالقدح .. إن مقياس البيع هنا بالزمن ..

فيمكنك أن تأخذ مقدار شجاعة يوم .. أو عشرة .. أو إن شئت ما يكفيك شجاعة مدى العمر .

ولم أحاول مناقشته خشية الزلل ، وخشية أن أغضبه فيطرده من الحانوت ، وسألته عن سعر شجاعة عشرة أيام ، فأجابنى :

— الحساب ليس الآن .

— أتبيعون الشجاعة .. « شكك » ؟

— سمه ما شعت ، ولكننا لا نقبض هنا ثمنًا .. فالحساب يوم الحساب .
وهنا كان من أشق الأمور على نفسي أن أحاول كتمان الضحك ، ولكننى
استطعته فى النهاية .. فتغلبت على رغبة الضحك .. وزدت من مظهر الجد .
ولم أشك فى أن الرجل لا يمكن أن يكون « نصابًا » ما دام لا ينتظر الثمن إلا
يوم الحساب .. وأحسست أنه لا مانع عندى بتأثًا — ما دام الرجل يعطى ولا
يأخذ — أن أجرب كل بضاعته ، وأى ضرر هناك فى أن آخذ من كل شوال حفنة
فألقمها فى الطريق .. ثم أدفع الثمن للمخبول يوم الحساب .. لو قابلنى يوم
الحساب .

وطلبت من الرجل أن يعطينى عشرة أيام شجاعة . وقام الرجل من مكانه
فاتجه إلى صندوق أخرج منه معيارًا صغيرًا ، أخذ يعبئ بواسطته من مسحوق
الشجاعة فى قرطاس من الورق . فلما انتهى من التعبئة ، مده يده إلى بالقرطاس
قائلًا :

— هذه شجاعة عشرة أيام .. إن استعماله سهل يسير ، فليس عليك إلا أن
تذيب الكمية فى كوب من الماء القراح ، وتقلبها جيدًا ، ثم تجرعها مرة واحدة ..
لا نخش شيئًا .. إن طعمها مستساغ .. وليس بها أى أثر من مرارة .. إن مفعوله
أكيد وسريع .. ربع ساعة فقط .. ثم تظهر آثاره .
وهزت رأسى متسائلًا :

— وما هى آثاره ؟

— الشجاعة .. الشجاعة بجميع أنواعها .. ستصبح رجلاً شجاعًا لمدة
عشرة أيام .. فإذا أعجبك الحال وسرّك أن تكون رجلاً شجاعًا فاحضر إلى قبل
انتهاء الأيام العشرة .. حتى أعطيك جرعة أخرى .
وكان الرجل يتكلم بلهجة ملؤها الجد والإخلاص .. حتى أدخل فى روعى
أن المسألة قد تكون على شئ من الحقيقة .. وأنتى قد أضحى فعلاً — إذا ما
تناولت مسحوق الشجاعة — رجلاً شجاعًا .

وسألت نفسي لِمَ لا أجرب .. فقد يصح قول الرجل ، وهو فيما يبدو لي رجل طيب شديد الإخلاص .. ليس به — فيما عدا تجارته للأخلاق — أى أثر لجنّة أو خبل ، فهو هادئ وقور ، رزين مهذب . وعزمت فى نفسى أن أجرب المسحوق فعلا .. ولكن خطرت لي فجأة خاطر أصابنى برجفة .

من يدرينى .. أن المسحوق ليست به مادة سامة .. وأن الرجل مجرم شرير .. من غواة القتل ، وأنه يقضى على ضحاياه بتلك الطريقة العجيبة فيعطيم المسحوق على أنه « أخلاق » .. ويخدعهم بطيبته وإخلاصه .. فيقتنعون بصدق قوله ، ويذهبون إلى دورهم حاملين المسحوق ويتناولونه دون أن يخبروا أحداً ، خشية أن يسخر منهم .. فيقضى عليهم .. فى الترو والحين ، ويذهبون ضحية المجرم الشرير ، دون أن يحس أحد بما اقترف من جرم .

ونظرت إلى القرطاس ، ثم إلى الرجل .. وبدا من مظاهر طيبته وإخلاصه ما بدد كل وسائسى ، ولكنى قلت لنفسى : إن « الحذر لا يمنع القدر » وقلت للرجل على سبيل التهديد المستتر :

— أليس بهذا المسحوق أية مواد غريبة غير الشجاعة ، مواد مخدرة مثلا .. أو مواد سامة ؟

ونظر إلّى الرجل فى كثير من الدهش والاستنكار ، وقال فى سخرية :
— مواد مخدرة ؟ .. ومواد سامة ؟ .. أهذا كلام تقوله لتاجر أخلاق .. ساحك الله يا سيدى .. دغ القرطاس وانصرف من فضلك .

— لا تغضب يا حاج .. إننى أسأل على سبيل المزاح ليس إلا .. يجب عليك أن تكون رحب الصدر مع زبائنك .. يجب أن تكون صبوراً .. أليس عندك شوال صبر . !

— عندى بالطبع .

— خذ منه جرعة تحتمل سخافات الزبائن .

— أخذت يا سيدى .. أظن أنى كنت أحتمل الجلوس كل تلك الأعوام الطوال ، وسط هذه البضائع الكاسدة البائرة التى لا يريد لها إنسان دون أن أتناول من الصبر ما يعيننى على الانتظار .. لقد طال لى الجلوس يا سيدى بين أكياس الأخلاق ، طال لى الجلوس بين شلالات الشجاعة والصدق والإخلاص والصراحة والنزاهة والعفة والصبر والكرم .. طال لى الجلوس بين هذه الأصناف البائرة ، دون أن يسألنى إنسان أين أنت ، وأخذت أشرب من شوال الصبر الجرعة تلو الجرعة حتى كاد الصبر ينفد ... والبضائع مكدسة كما هى .
وأحسست مرارة فى قول الرجل وتصورت جلسته هكذا وحيدًا فى هذه البقعة النائية المغفرة .. دون أن يطرق يابه أحد أو يؤنس وحشته إنسان .
وأخذت أنقل البصر بين الأكياس سائلًا الرجل عن محتوياتها :

— ما هذا ؟

— تضحية .

— وهذا ؟

— مروعة .

— وهذا الكيس الذى على الرف ؟

— إخلاص .

— وهذا الذى فى الركن ؟

— شهامة .

وهكذا أخذت أسأل والرجل يجيب .. حتى عَدَد لى كل ما يخطر على البال من الأخلاق الفاضلة !!

ونظرت إلى الرجل المسكين .. وخطر لى خاطر مفاجئ ..

هذا الرجل لا شك أحق من رأيت .. ماذا يجبره على الجلوس هكذا بين الشلالات الفاضلة .. فى ملل ويأس ، وضيق وتبرم .. يستعين على الحياة بجرعات الصبر .. الجرعة تلو الجرعة .

أى أحقق مأفون هذا الرجل .. ما ضرّه لو أستبدل بجرعات الصبر جرعات من الشواللات الأخرى .. ما حاجته إلى هذه التجارة الراكدة الكاسدة ، وهو لو تناول من كل شوال جرعة واحدة ، ثم انطلق إلى الحياة لكان له شأن فيها ، وأى شأن .

تصوّروا رجلا جمع كل هذا الخلق والمزايا والفضائل ، كيف يكون مصيره في الحياة وماذا يصبح ؟

يا للجاهل الغبى ! كيف يضيع على نفسه كل تلك السنين الغابرة ، والعمر البائد ، لقد كان في استطاعته أن يصبح زعيما من الزعماء ، ولكنه أضاع عمره في الانتظار بين الشواللات . وفي تجرع الصبر .

ونظرت إلى الرجل نظرة رثاء وقلت له في إشفاق :

— يا حاج .. لقد ضيعت عمرك سدى ، إذا كان الأمر كما تقول ، وليس على الإنسان لكى يصبح على كل هذا الخلق إلا أن يتناول جرعة من كل شوال فلماذا لا تأخذ لنفسك جرعة تدفع بك بين عظماء القوم وتكفيك مشقة الجلوس بين الأكياس في هذه الوحدة المضنية ؟

ونظر الرجل إلى نظرة ملؤها الاستخفاف ، نظرة لو ترجمت إلى العربية لكانت « أى أحقق أبله مجنون مأفون !! أى شيء وضعه الله لك في رأسك بدل العقل » !

واحتملت نظريته .. ولم آبه لها .. وانتظرت أن أسمع ما يليها من كلام يفسر ما فيها من هزء وسخرية ، قال الرجل :

— أوتظن أننى حتى الآن لم آخذ منها .. أو تظن أننى ما زلت في انتظار نصيحتك .. « طباخ السم بيدوقه » .. أفلا تريد منى أن أتذوق بضاعتى .

وصمت الرجل برهة ، ثم أمسك بذراعى وأجلسنى بجواره على أحد الشواللات وأردف قائلا :

— اسمع يا سيدى .. إني أتوسم فيك الخير .. وأشعر أنه حق على أن أخلص

أعوام

تناول

كياس

لاص

نواف

لصبر

هذه

البال

بين

ياة

لك النصيح ... وأصدقك القول .. سأحدثك كصديق .. لا كتاجر ..
سأحدثك حديث صديق مخلص مجرب .

لقد تناولت من كل هذه البضاعة التى حولك .
الشجاعة والعفة والمروءة والتضحية .. الخ .
تناولت من كل هذا الذى تراه .

ياخية الأمل .. لقد كنت مثلك حسن الظن ، سليم النية . فأقبلت عليها بنهم
وشره .. كنت أظن — كما تظن — أنها تدفع بالإنسان إلى مصاف عظماء
الرجال ، ولكن نهمى قد طاش وفألى قد خاب .
النزاهة والعفة والمروءة والتضحية !!

أَوَ تظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى مرتبة الزعماء فى هذا الزمن ؟ .. هل تظن
أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوفر فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟
أنت أبله يا سيدى — ولا تؤاخذنى فى الكلمة — أترى لو كان فى ذلك شيء
من الصحة .. أكنت ترى هذه البضاعة مكدسة على الرفوف فى أكياسها
لا يقربها إنسان ؟

هذه بضاعة لا يحتاج إليها المرء فى هذه الأيام .. لقد أصبحت عتيقة بالية ..
لقد أضحت « مودة قديمة » .. لا تلام نفوس هذه الأجيال .. ولا تصلح
لزعمائهم .. ولا يقبل عليها إلا كل مجنون فقد عقله .
لقد تناولت جرعة من كل ما ترى ، وحاولت أن أخوض معركة الحياة
مسلحًا بتلك الأخلاق فانتهى إلى الأمر إلى أن أتهم بالجنون .. وهزمت فى دنيا
القام شر هزيمة .. وعدت إلى حانوتى ملومًا محسورًا .

وليس عليك يا سيدى .. لكى تعلم حالتى وقتذاك إلا أن تتصور رجلاً يعيش
بين الناس ، ولا يكذب .. ولا ينافق ولا يداهن .. رجلاً يصارع كل إنسان
برأيه فيه .. رجلاً شجاعاً لا يهاب أحدًا .. رجلاً كريماً يعطى البائسين ماله حتى
يصير منهم .. رجلاً ذا مروءة وتضحية يخلع ملابسه فى الطريق ليقى بها طفلاً

عارياً أضرب به البرد .. هو مجنون بلا شك .. وهكذا كنت أنا .. لقد فررت من الناس بعد أن برموا إلى وضجوا من أفعالي .. لقد هربت من الدنيا بعد أن دفعتني مروعاً إلى أن أظعم المتضورين جوعاً .. حتى تضرّرت أنا من الجوع .. وكسوت العرايا حتى عريت .. دون أن يحس إلى إنسان ، أو يرد جميل أحد . وأخيراً يا سيدي عدت إلى حانوتي لأقبع بين أكياس البضاعة الخاسرة التي لا تسمن في هذا الزمن ولا تغني من جوع .

وأطرق الرجل ، واستغرق في صمت عميق .. وشعرت بالرتاء له ، وسنحت لي فكرة جديدة لم أتردد في عرضها عليه .

لقد قلت لنفسى : إن الرجل رغم كل ما قال .. أحق مأفون ، أو هو على الأقل ضيق العقل ، قصير النظر ، لا يعرف كيف يتصرف .. لقد قال : إن بضاعته أضحت عتيقة بالية ، وإنها أضحت « مودة قديمة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، ولا تصلح لزعمائهم .

ترى ما الذى يمنعه من أن يجدد بضاعته ، ويستبدل « بمودتها القديمة » أخرى « جديدة » ! لم لا يحاول أن يتجر في الصنف الآخر من الأخلاق .. الصنف الذى يقبل عليه الناس ، والذى يلائم نفوسهم ، ويصلح لزعمائهم .

لم لا يتجر في النفاق والجبن والمكر والرياء والخسة و .. الخ . هذه لا شك ستكون بضاعة رائجة ، وستخرجه من حالة الركود التى سقمها .

ونظرت إلى الرجل ، قلت له ناصحاً :

— إذا كان الأمر كذلك فلم لا تغير نوع البضاعة ؟ ما دمت تعرف أنها قد أضحت في هذا الزمن كاسدة خاسرة !؟ لم لا تحاول أن تتجر في نوع آخر كالنفاق مثلاً ، أو الغش أو الكذب ؟

ورفع الرجل رأسه ونظر إلى كما ينظر إلى طفل غريب وقال في أسف :

— وأنى لي أن أحصل عليها يا سيدي ، وقد استفدها الناس جميعها ؟ لقد

سألت عنها صاحب الخانوت الأول فقال : إنه لم يبق منها ذرة واحدة وأنبأني أن لذلك قصة قديمة ، فقد كان الخانوت عندما أنشئ أول مرة في سالف الزمن يكتظ بكل أنواع البضاعة ، وأقبل الناس يتزاحمون وكلهم يطلب النوع الآخر ، الجبن والنفاق والمكر والرياء والخسة .. واشتد تزاحمهم وتكاثفوا على الخانوت يتدافعون بالمناكب والأيدى .. وكان أكثر البضائع رواجاً هو النفاق .

كانوا كلهم يطلبون النفاق .. النفاق .. النفاق ..

واشتد الزحام حتى قتل من الناس خلق كثير .

وأخيراً أصدر الحاكم أمره بإغلاق الخانوت ، وبالإستيلاء على كل ما به من نفاق ، وأضحى النفاق بذلك بضاعة حكومية ، ووضعت الحكومة نظاماً لتوزيعه بالبطاقات . ولكن المحسوبة تدخلت في الأمر ففاز الأنصار والمحاسيب بنصيب الأسد ، وحرم سائر أفراد الشعب الذي ليسوا بالأنصار والمحاسيب . وأخيراً ضج الشعب المحروم من النفاق ، وطلب أن يأخذ نصيبه منه ، ولكن البضاعة الباقية كانت من الضالة بحيث يستحيل توزيعها على الشعب ، ففكر الحاكم في خير طريقة يوزعون بها الكمية الباقية بحيث يعطى كل إنسان نصيبه من النفاق .

وانتهى بهم الأمر إلى حل معقول ، وهو أن يقذفوا بكمية النفاق الباقية في النهر .. فیلوثوا بها المياه ، وبذلك يحصل كل إنسان على شيء من النفاق ، مهما قلّ فهو خير من لا شيء .

وهكذا جرت مياههم بالنفاق ، وسرى منها إلى كل شيء .. سرى في النفوس التي لا غنى لأجسامها عن شرب مياه النفاق ، وسرى إلى أراضيهم التي لا بد لها من السقيا بمياه النفاق .

وهكذا سرى النفاق في كل ما يشربون وما يأكلون ، بعد أن سقيت نباتاتهم وحيواناتهم بمياه النفاق .

أجل يا سيدى لقد أضحوا قوم النفاق ، وأضحت أراضيهم أرض النفاق .

وصممت الرجل بعد ذلك .. وأخذت أفكر فيما قال .
وكنت ما زلت أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .
وهممت بأن أعيد إليه القرطاس ، لكنني تراجعته وقلت لنفسى : لِمَ
لا أجرب ؟ .. إن المسألة لا تزيد على عشرة أيام فقط . « أكون فيها رجلاً شجاعاً .
عشرة أيام على سبيل التجربة ليس غير . فإن أفلحت كان بها ، وإن لم أفلح
فإني لم أخسر شيئاً .
أجل .. يجب عليّ أن أجرب جرعة الشجاعة .
وقلت للرجل :
— سأخذ القرطاس ، وسأتناول منه جرعة على سبيل التجربة ، وسأعود
إليك بعد عشرة أيام ، لأخبرك ماذا فعلت .
وهز الرجل رأسه وقال :
— أمرك .. لقد حذرتك كصديق .. وأنت وشأنك .
وودعت الرجل وسرت إلى الدار ، وأنا أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .

(٢)

رجل شجاع

ما الشجاعة ؟ هل هي ذلك الشيء
الذى يمكن تركيزه في النهاية في إحساس
الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب
بلقاءه ؟

إذا كانت تلك هي الشجاعة ، فأنا
بلا شك رجل شجاع .

سرت في طريقى عائداً إلى الدار ، حاملاً قرطاس الشجاعة بإحدى يدي ،
وبالأخرى أخذت أهر عصاى وأطرحها للأمام وللخلف ، وقد داخلنى من
قرطاس الشجاعة وهم عجيب

إن مجرد حملى للقرطاس ، واعتقادى بأننى بعد لحظات سأصبح رجلاً شجاعاً
قد جعلنى بالفعل رجلاً شجاعاً .

ما معنى أنى سأصبح رجلاً شجاعاً ؟ وما معنى فرحتى بالجرعة التى ستملؤنى
بالشجاعة ؟

أليس فى ذلك إهانة لنفسى ؟ وإتهام صريح بأننى رجل غير شجاع ، وأنه لو
لم تتح لى فرصة لقاء « تاجر الأخلاق » ولو لم يتفضل ويهب لى بعض مسحوق
الشجاعة .. لظللت طول عمرى رجلاً جبناً .. لا تداخله الشجاعة قط !!

ووجدتنى أسائل نفسى :

— هل أنا رجل جبان حقاً ؟ هل أنا فى حاجة إلى هذه الجرعة لتجعل منى
رجلاً شجاعاً ، أم أننى بالفعل رجل شجاع ، وأن الجرعة لن تفعل بنفسى أى

تغيير أو تبديل ؟

ما الشجاعة ؟ هل هي ذلك الشيء الذى يمكن تركيزه فى النهاية فى إحساس الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب بلاقائه ؟
إذا كانت تلك هي الشجاعة ، فأنا بلا شك رجل شجاع وما بى حاجة إلى جرعة الشجاعة لأنها لن تجعل منى أكثر مما أنا عليه .

أنا رجل لا أخشى الموت ، وليس فى قولى شيء من الغرور أو الفخر لأنه فى الواقع ليس به ما يستدعى التفاخر ، لأن عدم خشيتى للموت ليس مبعثها إحدى المزايا والفضائل التى يفخر بها الإنسان ؛ بل مبعثه حبى للنوم .

فأنا لا أبتغى شيء قدر أن آوى إلى فراشى فى التاسعة أو العاشرة فأمدد جسدى على الفراش وأترك أعضائى تنعم بالفتور والاسترخاء بعد طول كد وكدح ، وأترك ذهنى يهدأ ويستقر بعد طول تفكير وإجهاد ، ولا تمضى على بضع دقائق حتى أكون قد خلقت هموم اليوم ومتاعبه ، وطرحت عن كاهلى كل ما أثقله ، وعن رأسى كل ما أنهكه ، وخلصت نفسى من الإحساس بأى عبء أو مسئولية ، ولم يعد للمتاعب والمشاكل أى سلطان على ؛ لأنى قد انطلقت من أغلالها ، وفككت من أسارها ، إذا أنقذنى منها النوم .

والموت أخو النوم ، أو قل أبو النوم .. فهو النومة الكبرى ، أو هو الانطلاق النهاى من أغلال الحياة ، والفرار الأبدى من كل ما يثقل علينا فيها من متاعب ومشاكل ، وهو راحة دائمة من عناء العمل والتفكير .
ترى ماذا يمكن أن أخشاه من الموت ؟ وهو النوم الدائم وأحب شيء فى حياتى هو النوم .

إذا فأنا رجل شجاع !! ولا حاجة لى البتة إلى جرعة الشجاعة !!
ولكن إذا كنت شجاعاً حقاً ، وليس لى من الموت خشية ، فلم لم أمت حتى الآن ؟

هل أنا متعلق بالحياة ؟ أبداً والله .. هل الموت متعذر ؟ أبداً أبداً .. لماذا لم

أمت حتى الآن ؟!

لأنى — وإن كنت لا أخشى الموت فى جملة ونتاجه — إلا أننى أخشى منه تفاصيله ومقدماته .

أجل .. إن تفاصيله هى التى تخيفنى ، ومقدماته ووسائله هى التى تثير الذعر فى نفسى ، فلو أن الإنسان استطاع أن يقدم على الموت كما يقدم على النوم ، فيقول لأهله ببساطة :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح اموت !!

تماما كما يقول لهم :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح انام .

ثم يذهب إلى فراشه ويتمطى ويتأهب ، ويفرك فى عينيه ويهرش فى رأسه ، ويقرأ فى مجلة حتى يهاجمه النعاس ، ثم يطفىء النور ، ويغمض عينيه ويموت . ولو كان الإنسان يستطيع أن يموت بهذه السهولة .. إذا لأقدمت على الموت منذ زمن طويل .. ولأثبت حقاً أنى رجل شجاع .

ولكن الموت — للأسف الشديد — لا يمكن الحصول عليه بهذه السهولة .. بل لا بد له من مقدمات « دراماتيكية » محزنة .. ولا بد له من مظاهر بها كثير من التهويل والتهويل .

حقيقة إن النتائج واحدة .. وإن الأسباب مهما تعددت فالموت واحد . وأن الإنسان خارج من الدنيا على أية حال .. ولكن ما من شك هناك فى أن تلك المظاهر هى أشد وقعاً على الإنسان من الموت نفسه

أجل .. إنى على استعداد للخروج من الحياة فى أى وقت .. ولكنى لست على استعداد قط لأن أتصور نفسى — مجرد تصور — وأنا معلق فى « سلم الترام » وقد طوتنى عجلاته الحديدية التى تنهب الأرض ، ووقع جسدى بين العجل والشريط ، وأخذت العجلات تدور على جسدى كأنها القرامة .. جسدى يتمزق وعظامى تنهشم كأننى « قطعة بفتيك » ، ودماى قد سالت على الأرض ،

ورأسى قد تناثرت منه فتات المخ — إن كان به مخ ١١ — وشعرى الذى لمعته
« بالبريل كريم » قد اختلط بالطين والدماء .

لا .. لا .. هذا كثير .. كثيرًا جدًا .. والله إني لأكاد أبكى على نفسى من مجرد
الوصف .

إذا فأنا إنسان جبان ! .. وهل يمكن أن يكون جبن الإنسان فى تلك التفاصيل
التافهة ؟! ماذا يخيفنى من كل ما حدث لجسدى .. ما دمت أعرف أن الجسد
فان ، وأنه سيختلط بأديم الأرض ، فى جميع الحالات .

إنى إنسان جبان .. جبان فى التفاصيل .. جبان فى خوض المسالك .. ماذا
تجدينى شجاعتى فى احتمال النهاية ؟ إذا كنت أجبن عن الخوض فى المسالك التى
توصلنى إلى تلك النهاية .. إن شجاعتى لا تعدو أن تكون شجاعة نظرية .

ولقد كانت تلك هى أيضًا شجاعتى فى الحياة . كما كانت شجاعتى بالنسبة
للموت .. شجاعة نظرية ليس إلا .

كنت أزعم لنفسى دائمًا أننى شجاع .. ولكنى ما صنعت قط ما يثبت تلك
الشجاعة ، فلقد كان بعد النظر وتقدير العواقب ، والحلم ، والتساهل ،
والتسامح ، وإدارة الخد الأيسر ، لمن صفعنى على الخد الأيمن ، وأكل العيش
وإرضاء الرؤساء ، والعقل والاتزان ، واتقاء الشر ، والمحافظة على الكرامة والهيبة
والوقار ، وعدم التدخل فيما لا يعينى .. الخ .. كل ذلك كان يقف عقبة فى
سبيل إظهار الشجاعة ، وكان يمنعنى من أن أفعل ما يجب أن يفعله كل رجل
شجاع .

إنى رجل جبان . فلقد طوت شجاعتى غيرها من الصفات التى بدت للناس
فضائل ، فوصفونى بالرزانة ، والعقل والاتزان .

كم مرت لى ظروف ، هممت بأن أنشر فيها شجاعتى بعد طول انطواء ،
وهممت بأن أندفع فأفعل ما تمليه على الشجاعة . ولكنى أثريت ، وأفكر ،
وأستيق الحوادث وأستعرض النتائج ، فيغلبنى الجبن ، وتتوارى شجاعتى ، أمام

التورى والتفكير ، وخشية العواقب ، وحب السلام وتجنب الشر ، وإذا لى قد انقلبت إلى امرئ جبان .

وهكذا قادنى التفكير إلى الاقتناع بأننى مخلوق جبان ، قد خلت نفسه من الشجاعة أو انكشمت فى نفسه الشجاعة وتوارت بحيث أصبحت كعدمها فكأنها سلاح فى غمده لم يسئل قط ، فعلاه الصدا وتلم حده .

ولم أشك عندئذ فى أن الجرعة التى أحملها ستحدث فى نفسى أثراً مذكوراً ، فهى ستدفع فى نفسى الشجاعة إن كنت خلواً منها ، وستشرها إن كانت مستترة متوارية ، وتزيل ما علاها من صدا ، وتجعل منها سلاحاً ماضياً بتأراً .

إن الجرعة ستغذنى من بعد نظرى وطول أناتى ، وتزرع من نفسى ذلك الخضوع والاستسلام وتجعل منى سهماً ينفذ إلى كبد الحقيقة بلا التواء ولا دوران ولا تراخ ولا تمهل .

إنها ستجعل منى رجلاً شجاعاً ، شجاعاً فى كل ناحية فى الرأى وفى التفكير وفى الأقدام وفى التصرف .

وكنت قد وصلت إلى الدار ودلفت إلى داخلها متسللاً إلى حجرى دون أن يحس لى أحد ، وأخفيت القرطاس فى أحد الأدراج وذهبت إلى المطبخ فأحضرت كوباً من الماء

وأغلقت باب الحجرة وجلست أمام المنضدة وأخرجت القرطاس فوضعت ما به فى الكوب وأخذت أقلب المسحوق بملعقة صغيرة حتى ذاب فى الماء .

وأمسكت بالكوب ، ووقع بصرى على صورقى فى المرأة فترددت برهة . لقد بدأ الخوف يداخلنى ، وتذكرت وقتذاك .. الدكتور جيكل . والمستر

هايد .

ماذا يحدث لو أنه حدث لى مثل ما حدث للرجل التعس ؟!

ماذا يحدث لو أن الشجاعة أزممت لى ، وأضحت شخصيتى الشجاعة تغلب

على شخصيتى الأخرى من تلقاء نفسها دون حاجة إلى مساعدة الجرعة ؟

ماذا يحدث لو أن الشجاعة التى ستثيرها الجرعة ، أبت أن تنطوى ، وأن سيفها الذى سل قد أبى أن يعود إلى غمده ؟
ماذا يحدث لو أن شجاعة الأيام العشرة التى أنوى تجربتها قد استمرت حتى نهاية العمر ؟

أنا لا أكره الشجاعة بالطبع ، وحاشاى أن أسخط من قيمتها كصفة فاضلة يجب أن يتصف بها كل إنسان .

ولكنى مع ذلك أحشاشا .. لأبى لم أجربها بعد ، وقد تكون كما قال الرجل تاجر الأخلاق « مودة قديمة » فى هذا الزمن .. « مودة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، فماذا يحدث إذا استبدت بى .. وأبت أن تفارقنى ؟

ماذا يحدث إذا أزم من داء الشجاعة ، فى زمن الجبن ؟
ونظرت إلى المرأة مرة أخرى ، فوجدت وجهى قد علاه الاصفرار وبدأ عليه اضطراب ظاهر .

يا لله ، لشد ما أنا جبان رعديد ، أن أخاف الشجاعة !!
وحجلت من نفسى ، وكرهت أن أكون بهذه الدرجة من الجبن .
ورفعت الكوب إلى فمى ، وتجرعته مرة واحدة ، كما يتجرع الإنسان شربة زيت الخروع .

ووضعت الكوب على المائدة ، وأحسست أبى ألثت كأننى خارج من سباق .. وبدأت أخلق فى المرأة ، وأرقب وجهى جيّدا خشية أن تحدث الجرعة به من التقلبات ما أحدثته جرعة « الدكتور جيكل » فى وجهه عندما انقلب إلى « مستر هايد » .

ولكن وجهى لم يطرأ عليه تغيير يذكر ، اللهم إلا ذلك البريق الذى بدا فى عيني .. أو قد يكون ذلك مجرد وهم تخيلته .

أما التغيير الحقيقى الذى حدث فقد حدث فى جسدى ، فقد أحسست بقوة تسرى فيه ، وبعضلاق تشد وتبرز ، حتى بدا لى أبى أستطيع أن أتحكم فيها

وأجعلها — تلعب — كذلك الرجل الذى أبصرته ذات مرة فى أحد الموالد وقد وقف أمام الجماهير المحتشدة « يلعب عضلاته » ويصيح فيهم أنا سؤال يطل أمباه فى وزن الريشة ..

لقد بدا لى أنى أصبحت شديد الشبه بصاحبنا سؤال ، وما أسرع ما خلعت القميص والفانلة ووقفت أمام المرأة ، أتأمل جسدى بإعجاب مفرط « وألعب » عضلاتى بسرور زائد .

وأخيراً ارتديت ملابسى ، وأنا أشعر بالرضاء عن نفسى كل الرضاء ، وفتحت باب الحجرة وخرجت إلى القاعة ، فكان أول ما صدم أذنى ، صوت صراخ الخادمة .

ولم يكن صوت الصراخ بالشئ الغريب الوقع فى أذنى ، فقد ألفت من طول ما سمعته ، فقد كنت أسمعه بمعدل مرة فى كل نصف ساعة .

وتفسير الأمر ، أن ضمن الأعمال الجليلة ، التى تؤديها حماقى ، بشغف وإخلاص وإتقان فى حياتها الملائى بجلال لأعمال هو ضرب هذه الخادمة الصغيرة .

ويخيل لى أن ضربها للخادمة قد أضحى عندها — غية — كما يهوى البعض تربية العصفير أو جمع طوايع البريد ، أو أنها تجد فى ضربها مخرجاً لدوافع الغضب المتجمعة فى نفسها ، فهى تتخذ المسكينة متنفساً لها ، وإلا طال بها الكبت فانفجرت وأصابتها هى ومن حولها .

ولم يكن هناك ما يؤذى مشاعرى كصوت صراخ الخادمة أو بكائها ، وكان عامل الشفقة يتحرك فى نفسى ، فيجعلنى أفور وأثور ، وأهم بالتدخل فى الأمر وتخليص الخادمة ومنع السيدة من ضربها ، ولكنى كنت أهدىء نفسى ، وأتروى وأفكر فى العواقب وأقدر النتائج .

إن السيدة عصبية متوترة النفس ، سريعة الغضب والانفعال ، أو قل إنها تحب الغضب والانفعال ، فهى تبحث عن كل ما يثيرها ويحنقها ، ويغضبها ، وتجنب

كل ما يبعث في نفسها الهدوء والسكينة ، وتأتى أن ترجع نفسها ، ولم أكن أشك في أن تدخلى في الأمر .. ومحاولتى منعها من ضرب الخادمة ، سيتيح لها فرصة للفوران والغليان .. ويهيج لها عمل « خنافة لرب السماء » والدخول في معركة أكبر .. تعتبر معركة الخادمة بالنسبة لها ليست أكثر من « أبرتيف » ، وكنت أعرف أنها في النهاية ستحملنى مسؤولية كل ما حدث وستجعل منى مخطئاً أثيماً .. ثم تعرض بعد ذلك عقب الخنافة وأكون أنا مسئولاً عن مرضها .

وعلى ذلك فقد كان الأمر ينتهى لى في كل مرة إلى السكوت و « الصهينة » وإلى أن أكبت غضبى فأحتمل بكاء الخادمة ، وأن أتخذ موقف « الحياء » وأكفى خيرى شرى .. وأنطوى في حجرى حتى تنتهى عملية الضرب .

ولست أشك أن عملى .. كان ينطوى على الجبن ، ولكنى لست أشك أيضاً في أنه كان عملاً ينطوى على الحكمة فقد كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتى وقت تتعود فيه الخادمة الضرب .. وأنعود منها سماع البكاء ، ويصبح الأمر مسألة طبيعية .. ليس فيها ما يثير .

أما في هذه المرة — وبعد أن تناولت جرعة الشجاعة — فاختلف الأمر كل الاختلاف .. إلى لم « أصهين » ولم أنطو . ولم أكف خيرى شرى ، ولم أتخذ موقف الحياء ، ولم أفكر في عواقب أو أقدر نتائج .. لقد تملكتنى الشفقة على الخادمة ، وأحسست مبلغ ما فى ضربها من ظلم واعتداء .. فاندفعت إلى السيدة ونزعت الخادمة من بين برائتها ... وقلت لها فى لهجة صارمة .. إنى أحذرهما من أن تمدا يدها إلى الخادمة ، بعد الآن وإلا حدث ما لا تحمد عقباه .

ونظرت إلى السيدة فى دهش ، فقد أذهلها — وأنا الهادئ الرزين المنطوى على نفسه — أن أتدخل فيما تراه صميم عملها واختصاصها ، وأن أحاول بالتهديد منعها من مباشرة أول حقوقها .. والتمتع بخير متعتها .
لا .. لا .. لقد كان هذا شيقاً كثيراً .. كثيراً جداً .

وتركت الخادمة .. تركتها كلية ، بل ونسيتها تماماً ، والتفتت إلى .. فقد (أرض النفاق)

وجدت في صيدًا ثمينًا .. صيدًا يهين لما يخواننا حافلا .. بأشهى الممارك
والثورات والانفعالات .. صيدًا لم تستطع قط أن تنحرس به وتوقعه في
حبالها .. من فرط بروده وهذوئه وانطوائه على نفسه .

وبدأت المعركة .. حامية دامية .. ثارت فثرت .. هاجت فهجت ..
شتمتني فشتمتها .. لعنت أُنَى .. فلعنت سنسفيل أجداد أبيها .. همت برفع
العصا فترعتها من يدها وألقيت بها من النافذة .. ارتمت باكية فلم آبه لما ..
سخرست فتركت الدار ، حيا الله جرعة الشجاعة . فقد نفست كربتي ،
وفرّجت همى .. لقد جعلت مني حقًا رجلاً شجاعًا .

وخرجت من الدار .. وأنا أحس بالقوة والنشاط والحماسة .. لقد شعرت
أني فككت من إसार الجبن وانطلقت من أغلال التروى وخشية العواقب . وأُنَى
أستطيع أن أقدم على أي شيء .. غير هياب ولا وجل .

وكان أول ما فعلته قبل أن أخرج هو أن قذفت بالطربوش الذي كنت أضعه
على رأسي ، والذي كنت أخشى الخروج من غيره .. حتى لا يقول الناس عني
إنني رجل غير محترم !! .. وأي صلة يمكن أن تكون هناك بين « الطربوش »
والاحترام إلا إذا كانت هناك صلة بين « البليلة والترام » ، أو « الجوزية والأسد
الضرغام » .

أي صلة هناك بين الطربوش والاحترام ؟ .. وكيف يمكن أن يصل بنسا
السخف إلى أن نقول .. إن فلانا رجل محترم ، لأنه يرتدى طربوشًا .. وإن فلانا
غير محترم لأنه لا يرتدى طربوشًا ؟ كيف نخطر لنا أن ننشئ أية صلة بين
الطربوش والاحترام .. والله لو كانت هناك صلة بين أحدهما والآخر ..
لا رتديت مائة طربوش .. ولكنه قول هراء .

والواقع أننا لو حكمتنا العقل وحاولنا أن نجد هناك صلة ، لو جدناها بين
الطربوش ، وعدم الاحترام ، أو بينه وبين المسخرة . أجل .. إن هذا الوعاء
الأسطواني الأحمر ذا العنق الذي شدت به خيوط سود مبرمة .. هو المسخرة

بعينها .. نحمل رأسنا عيشه بلا أى مبرر ولا فائدة ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس يصنعون بقرصه ثقباً يجلبون بها الهواء إلى رعوسهم ويخرجون منها الصهد .. ما ضرهم لو ألقيوا بالطرايش نفسها وتركوا رعوسهم حرة طليقة ؟! هذا الوعاء الأحمر لا يقى من برد ولا حر .. ولا يؤمن من مطر ولا شمس .. ولا يوحى باحترام ، ولا هو زينة .

ترى ماذا يجبرنا على ارتدائه ؟

الجبن !!

جبن التقاليد .. وجبن التقليد ، والخوف من أن نتهم بالشنوذ .
لا تقولوا إنه شعار لقوميتنا ، فهذا جهل وسخف .
منذ متى كان الوعاء الأحمر شعاراً لقوميتنا ؟ إنه لو تعملون .. شعار لاستبدادنا .

من قال : إن قوميتنا فى حاجة للطربوش ذى الزر ؟
حرروا رعوسكم من الطرايش ، فأغلب ظنى أنها سبب محتكم ، إنها تساعدكم على خفض الرعوس .. إنها تخفى شعاع أذهانكم ، وتحيط رعوسكم بظلمة معتمة .. وهكذا ألقيت بالطربوش .. وخرجت إلى الطريق رافع الرأس عاربه .

ووقفت فى إحدى محطات الأتوبيس ، فقد كنت على موعد لإنهاء صفقة هامة .. وكان الموعد قد أزف فقد عطلتنى المعركة الأولى التى خضت غمارها من أجل الخادمة ما يزيد على ربع الساعة .
ولمحت أول عربية من عربات الأتوبيس فاقتربت من المحطة بسرعة ، وأشارت للسائق ييدى .. فلم يتوقف .. رغم أنه كان بالعربة محلات خالية .

ولم تكن المرة الأولى أن أشير إلى سائق أوتوبيس فلا يقف رغم خلو العربة .. وكان كل ما أفعله هو أن أنتظر وأنتظر .. وأن أقنع نفسى أن القاعدة هى ألا يقف السائق إذا ما أشار له إنسان فى محطة .. وأنه إذا وقف فيكون فضلاً من الله ..

وليس عليّ إلا انتظار فضل الله .

وماذا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. إلى لا أستطيع أن أوقف العربية ، ولا أستطيع كذلك أن أعدو فأقفز فيها وهي سائرة .. فأنا أجبن من أن أفعل ذلك .. أولا . لأنني أخشى على هيبتى وقيافتى أن تضيع .. وثانياً .. وهو الأهم .. لأنني أخشى أن تنزلق قدمي فأهوى تحت العجلات ، وأنا — كما سبق القول — لا أخشى الموت في ذاته .. ولكنني أخشى وسائله المسرحية الحسقاء .. وأكره أن أموت بهذه الطريقة المزعجة ، وحتى إذا كان لا بد من أن أموت بإحدى هذه الطرق المسرحية .. فلا أقل من أن تكون طريقة مشرفة .. استشهاد .. مثلاً .. أما أن أموت تحت عجلات — ثورنيكروفت — فذاك والله ما لا أتمناه قط .

وتوالت أمامي العربية بعد الأخرى ، وهي تمر بمر الكرام .. دون أن تفكر إحداها في الوقوف .. فهي إما ملآى بالركاب ، وإما أن سائقها يضايقه الوقوف .. فهو يسوق العربية لمجرد التزهة .

وتملكني الحق ، وقلت لنفسي إن ذلك أحد مظاهر الفوضى في أمة الفوضى .. فالحكومة تترك الشركة تعبت بمصالح الناس .. فلا تضع في خطوطها إلا عددًا ضئيلاً من العربات لا يفي بحاجة الجمهور الذي يحشر فيها كالسردين ، والشركة تترك السائقين يتحكمون في عباد الله .. فلا يقفون إلا عندما يشاءون .

وأخذت أعزى نفسي بأنه لو كان بيدي الأمر ، وكنت وزيراً للأشغال لعرفت كيف أضع حدًا لهذا العبث .. ولعرفت كيف أوفر للجمهور راحته .. ولكنني عدت فتذكرت أنني عندما أصبح وزيراً للأشغال .. لن أحس قط بهذا العبث أو المضايقات .. لأنني سأكون وقتذاك صاحب عربة فخمة ضخمة .. ولن يخطر لي على بال قط أن هناك أناسًا يركبون الأتوبيس وأنهم يقفون الساعات الطوال في انتظاره ، وأن عربات الأتوبيس لا تكفي الجمهور ، وأن السائقين لا يقفون في المحطات .. إلى لن أذكر قط شيئاً من هذا لأنني سأكون « مجموعاً »

في عربة تسابق في الريح وتنهب الأرض نهباً .

وتلك هي العلة في هذا البلد .. إن الذي يحس بالمصائب لا يملك منعه ..
والذي يملك منعه .. لا يكاد يحس وجوده .

إن الذين يقطنون الحظائر ويبيتون على الطوى .. ويشربون مع البهايم من ماء
الترع .. إن الهياكل التي هزلت من الفقر والجوع والحرب .. والأجساد التي
حطمها المرض وأنهكتها العلل .. لا تملك من أمر نفسها شيئاً .. إنها بلا حول ولا
قوة .. إنها قطيع يسير إلى مصيره التعس في رضا واستسلام .

أما الرعاة .. الذين يملكون زمام القطيع والذين يحركونه ويسوسونه .. فهم
في عيشة راضية .. أجل .. إن الذين بيدهم أمره لا يحسون بأمره ، ولا يدركون
من أمره شيئاً .

كيف يحسون جوعه ويطونهم ملأى مكتظة ؟! كيف يذكرون أنه يشرب
من ماء الترع .. إذا كانوا يشربون ماء « فيشى » ؟! وكيف يدركون أنه في
حاجة لأنابيب مياه إذا كانوا يأخذون مياههم من « الفريبيدير » ..!

كيف يبصرون عريه ، وهم يرفلون في « النايلون » و « الشارك سكين » ؟!
وكيف يبصرون هزاله وأجسادهم السمينة « المربرية » تنضج منها قطرات
النعم ؟ كيف يحسون حاجته ، وهم لا يزيدون في تفكيرهم عن « مسارى
أنطوانيت » حين قيل لها : « إن الشعب لا يجد الخبز ، فقالت : لياكل جاتوه !!
أنى لراكب « البويك » أن يحس حاجة راكب قدميه ؟ قدميه العاربتين اللتين
يلسعهما لهب الأرض .. وأنى لماسك المروحة يروح بها على وجهه أن يحس حاجة
ماسك الفأس يضرب بها أرضه .. تلفح الشمس وجهه ويفرق العرق جسمه !
إن شر ما في المصائب .. أن الذي لا يحس .. يستطيع أن يفعل ، ولكنه لا
يفعل لأنه قدير هائن .. أما الذي يحس ، فهو لا يفعل شيئاً لأنه أعجز من أن
يفعل .

إن خير وسيلة لإصلاح هذا البلد .. هو الصيام .

ولست أعنى بالصيام .. هذا الصيام الذى نصومه فى رمضان ، فعلم الله أننا قد أصبحنا نباشره — لو باشرناه — بطريقة أخرجه عن كل معانى الصيام ، فنحن لا نحرّم أنفسنا خلاله أى شيء .. على العكس إننا نعطيها كل ما تشتهيه من المأكولات الشهية التى أضحت من خصائص رمضان ، كالكنافسة ، والقطايف ، والمشمشية ، وقمر الدين ، والمكسرات .. وكل ما تفعله فى صيامنا أننا نؤجل موعد أكلة إلى موعد الأكلة التالية .. فنأكل غدائنا مع عشاءنا ونسميه إفطاراً .. ونبكر فى إفطارنا فنسميه سحوراً .. ويزيد على ذلك أننا نظل طوال اليوم مستلقين بلا عمل ولا فائدة كأننا جثث هامدة .. يضيق خلقنا ونغضب لأقل سبب .. بحجة أننا صائمون .. ويسب أحدنا الآخر ! لأنه صائم وكفران ..

لا .. لا .. لست أقصد هذه الطريقة فى الصيام ، التى ليس فيها من الصيام قليل ولا كثير ، والتى ليست لها من نتائج الصيام أى أثر ، فلا هى أشعرتنا بحرمان الفقير ولا رقت قلوبنا نحوه .

إلى لا أقصد الصيام عن الأكل .. بل أقصد الصيام عن الغنى .. والصيام عن التعميم .. أجل يجب أن يفرض على كل إنسان أن يصوم عن الغنى شهراً فى السنة يعيش فيه بدخل لا يزيد عن أربعة جنيهاً .. يقضى بها كل حاجته وحاجة أسرته من مأكل وملبس ومسكن .

يجب أن يجرب رئيس الوزراء والوزراء وغيرهم من العظماء والأثرياء كيف يمكن لإنسان أن يعيش هو وأسرته بأربعة جنيهاً فى الشهر .. يجب أن يقطنوا فى عشة من عشب الترحمان وزينهم .. إيجارها خمسون قرشاً .. يجب أن يجربوا كيف يمكن أن يأكل الإنسان لحمه مرة واحدة فى الشهر . لحمه لا تزيد على « الفشش والأزوار والكروش » التى تباع فى المذبح . يجب أن يعرفوا كيف يمكن لأربعة جنيهاً أن تكفى حالة عائلة .

يجب أن يصوموا عن الغنى والتعميم .. لا إلى الأبد ولكن يصومون لمدة شهر

واحد .. حتى يحسوا ذلك البؤس الذى لا يخطر لهم على بال . فإذا طلب من الوزراء بعد ذلك أن ينصفوا طائفة تشكو لم يسهلوا ولم يترثوا ، وإذا طلب من الأثرياء أن يدفعوا الضرائب لم يتألموا كما لو كانت تمتقطع من جلودهم .
أجل .. لن تنصلح الأمة .. إلا إذا سن فيها قانون الصيام .. الصيام عن الغنى والترف والنعيم .

جال كل ذلك بخاطرى وأنا أنتظر على محطة الأوتوبيس ، ولحت عربية مقبلة .. وبدأ لى أنها خالية فعزمت أن أركبها بأية حال .. وأخذت ألوح للسائق .. وهو مقبل فى سرعة .. ومر بى دون أن يتوقف أو يأبه لى .. فدفعتنى الشجاعة التى استجدت فى نفسى إلى أن أفعل شيئاً لم أكن أجسر على فعله قبل أن أتناول الجرعة ، لقد أخذت أعدو وراء الأوتوبيس محاولا اللحاق به و « الشعبطة » على سلمه .

اندفعت كالريح .. وقدمائى منطلقتان لى كأتى جواد فى سباق ، حتى لحقت العربية وأمسكت بمقبض الباب ، ووضعت إحدى قدمى على السلم .
ولست أدرى ما حدث بعد ذلك بالضبط ؟

ولكن نتيجة ما حدث .. النتيجة النهائية التى بقيت فى نفسى .. هى احترام وتقدير وإعجاب شديد بأولئك « المتشعبطين » على سلا لم جميع أنواع المركبات من ترامات وأتوبيسات ، فلقد أدركت أنها مسألة تحتاج لمهارة فائقة .
لقد وضعت إحدى قدمى على السلم ، ولم أضع الأخرى وظللت معلقة فى العربية المسرعة تجرئى خلفها ، ثم حاولت أن أترك العربية وأعود إلى الأرض ، متمشلا قول القائل :

أنل قدمى ظهر الأرض لى

رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وأفلت يدى ورفعت قدمى التى على السلم وحاولت أن أثبت جسدى على

الأرض ، ولكنى .. للأسف ، وجدت الأرض تعدو بسرعة تحت قدمى .
أجل .. لقد كانت الأرض تجرى بسرعة إلى الخلف أو هكذا بدا لى ،
ووجدت من المستحيل أن أحتفظ بنفسى واقفاً ، أو أثبت قدمى على الأرض ،
ولم أشعر إلا وقد لففت بضع لفات حول نفسى كأنى بهلوان ، ثم انطرحت أخيراً
ممدوداً الجسد على الأرض .

وصرخ الركاب ، ووقفت العربية ، وهبط بعضهم إلى ليرى ما حل لى ،
وتحسست أنا نفسى .. فوجدت أننى لم أصب بشيء .. اللهم إلا البهلة وقلة
القيمة ، وسرعان ما نهضت واقفاً على قدمى .. أزيل الأتربة التى علقّت ببدلتى .
وما من شك هناك فى أنه لو حدث لى ما حدث ، وأنا فى حالتى العادية دون
أن أحتسى ما احتسيت من جرعة الشجاعة .. لكان أقصى ما أفعله مع السائق
هو أن أعرف ثمرته ، وأن أقدم فيه شكوى للشركة إذا لم يشغلنى عن تقديمها
شاغل ، ذلك إذا لم أفر بنفسى من فرط الخجل الذى يصيبنى من « الهدر » الذى
حدث لى .

أما أن أشتبك فى معركة مع السائق فذلك كان آخر ما أجسر على فعله ، فقد
كنت أكره التشابك والتضارب ، وكانت خشيتى من العواقب ، وبعد نظرى
تجعلنى دائماً أتذرع بالصبر والحلم ، وأجبن عن الدخول فى معركة أيسر ما
يصيبنى منها هو « البهلة » والإهانة .

ولكن فى هذه المرة .. لم أكن كما تعودت أن أكون . لقد أضحيت رجلاً
شجاعاً ، ولم يعد هناك ما يقف فى طريق شجاعتى .. لا بعد نظر ولا ترو ولا
تفكير .. لقد كان يجب على أن أثار لنفسى من السائق المستهتر ، وأن أجعل منه
عبرة للعامل النذل القلدر الذى يطالب بحقه دون أن يعرف واجبه ، والذى يضيق
ذرعاً بإهمال الحكام لمصالحه ، وهو لمصالح الجمهور أشد إهمالاً وأكثر تراخياً
واستهتاراً .

وكان السائق ما زال جالساً أمام عجلة القيادة دون أن يكلف نفسه مشقة

النزول لرؤية ما حدث .. فاقتربت منه ، ورأيت ينظر إليّ في سخرية ويقول هازئاً :

« لما انت خايب كده بتشعبط ليه » .

وهنا لم يعد في قوس الصبر منزع .. فمددت يدي إليه في سكون وأمسكت به من قفاه وجذبت به بعنف فأخرجته خارج العربة .
وكما يقول المثل « وعينكم لا ترى إلا النور » .. إلى ما عهدت في نفسى هذه القوة ولا المهارة في العراك .

أول ما فعلته أُننى « لفته مقص » .. فنزل « يرف » على الأرض ، ولم يكذب نهض حتى ناولته « روسية » ثم انهلت عليه باللكمات حتى « ضحضحته » ! ولحمت في وجوه الركاب علامات الفرحة والشماتة .. كأني بضربي الرجل أَرْضِيت في نفوسهم رغبة مكبوتة في الاقتصاص منه .

وأخيراً تدخل الركاب بيتنا ، وأخذ السائق يصيح بأعلى صوته ويسبني بأقبح الصفات ، وأقسم ألا يتركني إلا في القسم وأنه لا بد أن يجعلني أبيت على الأسفلت .

ونظرت إلى الساعة فإذا بالموعد قد أُرِف ، وتملكني الحق ، فقد كنت حريصاً على ألا يضيع الموعد ، حريصاً على إنهاء الصفقة ، ومع ذلك فلم يكن هناك بد من أن أذهب مع الرجل إلى القسم .. ولم يكن هناك بد من ضياع الموعد .. وربما ضياع الصفقة أيضاً .. فقد لا تنجح الفرصة لإنائها بعد ذلك .
وذهبت مع الرجل إلى القسم وبكى كثير من الندم ، وبودى لو أنهى المسألة بالحسنى ، ولكنى كنت رجلاً شجاعاً ، وكان على أن أحتمل عواقب شجاعتي حتى النهاية !!

(٣)

الخيانة العامة

إن اليهود الذين فرقهم الله في الأرض شيعة .. قد فرقوكم شيعة .
إن اليهود الضالين قد أضلوكم ، إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم
جبناء . يا أمة العرب . يا أمة الخطب .

سرت مع سائق الأتوبيس متجهين إلى أقرب مركز للبوليس .. ولم يكف
سيل الشتائم المندفع من فيه عن التوقف .. بل أخذ يغمرنى بمالذ وطاب من ألفاظ
التهديد والسباب حتى وصلنا النقطة ودلفنا إلى الداخل .
ووقفنا برهة أمام الحاجز الخشبي وقد جلس وراءه باشجاويش منتفخ
الأوداج .. بادى الشر ، يتناقص مع امرأة ملتفة في ملاءة سوداء وقد سقطت
الملاءة على كتفها وتهدل شعرها وسال دمعها وأخذت تقول له بصوت باك :
— سبع ليال على هذا الحال .. يأتى إلى الدار .. وقد ترنخ من فرط السكر ..
بعد أن يكون قد تركنى والأولاد طيلة النهار دون نقود ، فلا يكاد يرانى حتى
ينهال علىّ ضرباً .

ونظرت إلى جوارها فوجدت رجلاً ضخماً الجثة أحمر العينين قد تلفح
« بلاسة » وكسا جسده بجلباب طويل ودس قدميه في مركوب أصفر ..
ووجدته ينظر إلى المرأة شراً ثم وجه القول إلى الباشجاويش قائلاً :
— يا سعادة البية .. (كان لهذا التعظيم أثر منعش على الباشجاويش وبدأ لي
أنه سيوافق الرجل على ما يقول) يا سعادة البية .. هذه المرأة .. كذابة وغرفة ..
وتستحق الشنق لا الضرب ..

وهز سعادة الباشجاويش رأسه بالموافقة .. وأمر أحد الجنود أن يجر المرأة إلى الخارج فمد الجندي يده ، وسحب المرأة من قفاها ، ولم أحتمل أنا هذا المنظر فبدأت التدخل طالباً من الجندي أن يترك المرأة ، ومن الباشجاويش أن يحقق جيداً في الموضوع ، ولم يكن مظهرى بعد سقوطى من الأتوبيس وتدحرجى على الأرض وعراكى مع السائق .. ليشجع الرجل على احترامى وخشيتى .. فوجدته يوجه إلى نظرة ملؤها الازدراء .. ويأمرنى بالسكوت .. بالتى هى أحسن !!

خرجت المرأة وزوجها .. وبدأ الباشجاويش فى استجوابنا . ولكن لم تمض لحظة حتى سمعت صراخ المرأة . وبدأ لى أن زوجها لم يستطع أن ينتظر حتى يذهب إلى الدار فبدأ فى تنفيذ انتقامه على سلم القسم . واندفعت أنا من باب القسم فوجدت الرجل قد طرح المرأة أرضاً وانهاهال عليها رفساً ولكما ، وتحكمت فى النخوة والشجاعة .. ولم أقل لنفسى كما تعودت أن أقول فى مثل هذه الظروف — وأنت مالك — بل هجمت على الرجل أنقذ المرأة من برائه .

وحدث الأمر الطبيعى . الذى تعرفونه كلكم ، والذى يحدث دائماً فى مثل هذه الظروف .. فلقد كف الرجل عن ضرب امرأته ، وكفت المرأة عن الاستغاثة ، وانهاهال الاثنان على بالضرب .. فلم ينقذنى سوى الجندي الذى أرسله الباشجاويش لإحضارى حتى أدلى أمامه ببقية أقوالى . ووجدت أن السائق قد أنبأ الباشجاويش أنى كنت واقفاً فى المحطة وأشرت له بالوقوف .. فوقف .. فلم يشعر إلا وأنا أقفز إلى العربة وأهجم عليه فأشبعه ضرباً ولكماً ، وأدليت بصحة ما حدث ، ولكنى وجدت الباشجاويش ينظر إلى شزراً ويقول :

— الظاهر أنك « غلباوى » ، ولسانك طويل ومتعافى .
ولم تعجبني من الرجل نظرته ولا لهجته .. فقلت له منذراً :

— خير لك أن تكون أكثر أدبًا .

وهنا احمر وجه الرجل واندفع صائحًا :

— سأريك كيف أكون أكثر أدبًا .

ثم أشار إلى أحد الجنود أن يدخلني إلى الرنزاة .

ولم تجدني المقاومة نفعا ، وبعد لحظات وجدت نفسي كما يقولون « على الأسفلت » .

من يصدق هذا ؟ من كان يصدق أنى أنا الرجل الهادئ الرزين .. العاقل المحترم .. تدفعني الظروف الحزقة بمثل هذه السهولة والبساطة إلى أن أبيت ليلتي على الأسفلت !

ولماذا ؟ بلا سبب ، وبلا أى مبرر ولا داع .

إنى حقا قد أضحييت رجلا شجاعًا .. ولكن أين الذى فعلته من مظاهر الشجاعة حتى يرر ارتماي هكذا فى إحدى نقط البوليس كالجرمين والمتشردين ؟ أى شىء فعلته يتكافأ مع هذا الجزاء ، وأى فائدة أفدتها أنا .. أو أفادها غيرى من جراء كل ما فعلت ؟ وتذكرت « حماق » وما يمكن أن يكون قد حدث لها من مضاعفات عقب معركتى معها من أجل الخادم فأصابنى غم شديد ؟

أهذا هو ما فعلته فى جرعة الشجاعة ؟

ولكن ما ذنب جرعة الشجاعة ؟ إن الذنب فى الواقع ذنبى أنا .. فلقد كنت محدث شجاعة .. أو كنت كما يقولون « هيلة ومسكوها طار » ..

لقد اندفعت استعمل شجاعتي .. ببلة وجنون ، لقد كنت أشبه « بشجاع حرب » على وزن « ثرى حرب » .. و « أرتسب حرب » .. وأخذت أبعثر الشجاعة التى أصابتنى بعد طول جبن .. ذات اليمين وذات اليسار .. لقد كنت أريد أن أعوض حرمانى من الشجاعة ، وأن أظهر شجاعتي بأى وسيلة وعلى أى وجه تمامًا كما يفعل ثرى الحرب الذى أصابه الغنى فجأة .. بعد طول فقر .

لشد ما كنت مجنونًا أحمق ، وما هكذا والله تستعمل الشجاعة

ويكون الشجعان.

ماذا فعلت من مظاهر الشجاعة ؟

تعاركت مع « حماق » من أجل الخادمة ، وقذفت بطربوشى وخرجت عارى الرأس كأى غر حدث من الفتية المفتونين .. ثم لم أستطع الصبر حتى يقف الأوتوبيس فأركب فيه ، بل حاولت أن أركبه وهو سائر كأى متشرد من أبناء السبيل .. ولم تساعدنى خييتى على « الشعبة » . فسقطت على الأرض كأى مدب .. وذهبت قيافتى وضاع قدرى .. ولم أكتف بهذا ، بل هجمت على السائق واشتبكت معه فى معركة بالركلات واللكمات والروسيات .. كالرعاع والغوغاء ، ووجدت نفسى منساقاً مع شجاعتى الخرقاء إلى قسم البوليس .. وأضعت بذلك الموعد الذى كنت سأعجز فيه الصفقة الهامة .. ولم أكتف بكل هذا .. بل اندفعت كأى حمار .. لأتدخل بين زوج وزوجته .. فتلفت من الضرب الشتائم ما كنت فى غنى عنه ، وأخيراً .. احتددت على الباشجاويز كأى غبى .. فكان مصيرى الأسلفت .. يالى من محدث شجاعة ؟

أهذا هو ما استطعت أن أفعله بشجاعتى ؟

أهذا هو مصيرى بعد أن أضحيت رجلاً شجاعاً ؟ .. أرمنى على الأسفلت بلا ميرر ولا سبب ؟ .. كأى نشال أو محال !

لا .. لا !! لقد أسأت التصرف بشجاعتى ، وتمجلت باستعمالها فوضعتها فى غير موضعها .. لقد كان يجب علتى أن أكون أكثر اتزاناً مما فعلت .. وأن أتريث فلا أستعمل شجاعتى إلا فيما يستحق .. وألا أكون شجاعاً إلا فى جلائل الأعمال التى تفيد المجتمع والناس .. فأقوم ما اعوج من الأمور وأصلح ما فسد .. بدل هذا الذى فعلته من الشعبة فى الأتوبيسات والعراك مع طوب الأرض .

وهكذا أقنعت نفسى بأن أكون أكثر حكمة ، وأن أكبح من جهاج شجاعتى .. فلا أتركها تنطلق بى كالخمار الجامح يشبع الناس رفساً وتلطيشاً ،

ولم يكن هناك بد والأمر كذلك — من مسايسة الباشجاويش ومداراته ،
فرجوت الجندى الذى وضعنى فى الزنزانة أن يبلغ « سعادته » أنى أود أن
أقول — لسعادته — بضع كلمات .

وروقت مرة أخرى أمام الباشجاويش وبدأت أحدثه مستعينًا بجينى القديم ،
محاولا جهدى أن أكبح جماح شجاعتي خشية أن يفلت منى زمام نفسه فأبصق
عليه وأصفعه على قفاه العريض .

وأخذت أعتذر لسعادة الباشجاويش .. حاشراً كلمة — سعادتك — بين
كل كلمة وأخرى ، وأنباته أن ضيق خلقي هو الذى دفعنى إلى ما فعلت . وأنى
جد آسف وجد نادم .. ثم أفهمته بطريقة مستترة أننى رجل محترم ذو مكانة
وحثيثة .. وأنى أخشى على سعادته .. لو أصر على حبسى أن يصيبه ضرر .. وأنه
لم يدفعنى إلى أن أطلب منه الإفراج عنى إلا خوفاً عليه .. وعلمى أنه صاحب
أولاد .

وهكذا أمكنتنى أن أقنع الرجل بإطلاق سبيل .. متبعاً فى إقناعه كل الطرق إلا
الشجاعة .

وخرجت من مركز البوليس وسرت فى الطريق وأنا أحاول جهدى أن أسيطر
على نفسى وأكبت شجاعتي .. وألا أكون محدث شجاعة .. فأثور لأقل
سبب ، وأضيع وقتى فى الاشتباك مع الناس لأجل توافه الأمور ، وأشغل نفسى
بذلك عن جلائل الأعمال .. التى يمكن أن أوجه إليها شجاعتي وأفعل بها ما لم
تستطعه الأوائل .

وشرد بى الذهن فأخذت أفكر فى جلائل الأعمال التى يجب أن أستغل
شجاعتي فى مباشرتها والإفادة منها .

وبدأت أستعيد الحوادث فى ذهنى وأستعرض المشكلات والمعضلات
والأزمات والمصائب التى يمكن أن أستعين بشجاعتي على حلها .

وقفز إلى ذهنى .. من بين تلك المشكلات والمصائب .. مصيبة واحدة

يا أمة الخطب .

يا أمة التعاسة .. يا أمة الهزل .. يا أمة الجهل . يا أمة ضحكت من جهلها الأمم .

شرد لي الذهن إلى فلسطين ، ومن غير فلسطين تستحق أن أوجه إليها شجاعتى ؟

وأحسست بفرحة شديدة .. إلى إذا استغللت شجاعتى من أجل فلسطين فلا شك أنى أكون قد وضعت الشيء فى موضعه .

إلى أكون بذلك قد أُرِضت نفسى .. وأكون بذلك قد صرفت شجاعتى فيما يجب أن تصرف فيه .. لا فى تلك التفاهات والسخافات التى صرفتها فيها من قبل .

وأخذت أفكر فى خير السبل التى أوجه فيها شجاعتى فى خدمة فلسطين ، يجب أن أتطوع للقتال .. وأذهب فأحمل السلاح ، وأخوض غمار المعركة . هذا سبيل معقول ، أستطيع أن أظهر فيه شجاعتى .. وأبرز فيه جرائى وإقدامى .. التطوع للقتال واجب .. وطريقة مثلى لإظهار الشجاعة . ولكن حمل السلاح ، وخوض غمار المعركة هو الذى يستدعى شيئاً من التفكير ويتطلب شيئاً من الروية .

أى سلاح هذا الذى سأحمله ؟ وأية معركة تلك التى سأخوض غمارها ؟ لقد سمعت من صاحب لى عائد من فلسطين .. أنه ليس مع أهلها سلاح يحمل ، وأن معظم المقاتلين هناك عزل بلا سلاح ولا ذخائر .. وأن المعارك التى بدأت فى أول الأمر ليس بها شيء مما نعرفه عن المعارك الحربية ، بل هى أشبه بمعركة بين شاة وقصاب .. قصاب يهودى قد شحذ سكينه ، وشاة عربية ... لا حول لها ولا قوة .

القصاب يصول بسكينه ويجول .. ويذبح ويقتل .. والشاة تستغيث ، وما من مغيث ، وتستنجد وما من منجد .. إلا الأقوال والخطب .

استطاعت أن تبرز في ذلك الحين من كل ما حوّلها .. جليلة واضحة .. فتصيح
في لو كان لديك شجاعة ، فهلهم بها إلى !!

مشكلة واحدة هي التي كانت تلح وقتذاك في طلب شجاعتى .. وهى :
فلسطين !! فلسطين الجريحة .. التي يضمّدون بالكلمات جراحها .

فلسطين الباكية .. التي يحفّفون بالخطب مدامعها .
يا أمة العرب .. يا أمة الخطب . يا أمة الحفلات والمآدب ، والله ما كانت
خطبكم إلا خطوبا .. وما كانت مآدبكم إلا مآرب ، والله ما كذب زياد بن أبيه
حين قال فيكم :

« إن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه
سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى
عنها الكبير .

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار
القانية على الباقية ، ولا تذكر أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا
إليه من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوقة في النهار لا تنصر ، والعدد
غير قليل والجمع غير مفترق »

العدد غير القليل . يا أمة العرب .. فأنتم كالخصى .. والجمع غير مفترق ..
يا أمة العرب .. وهذه الجامعة قد وحدث كلمتكم .. وجعلت منكم عصبية
يخشى خطرها .. ومع ذلك فما دفعتم خطراً .. ولا أظهرتم بأساً ولا قوة .

إن العدو ينهش جسدكم .. فلا تفعلون شيئاً سوى الأنين والبكاء . إن الخطر
يدهم أبوابكم فلا تفعلون شيئاً سوى العويل والصراخ .. إن الأعداء يسبون
نساءكم ويذبحون أطفالكم ، وأنتم تجتمعون وتنفضون . وتحلون وترحلون ، ثم
تتشبهون بعد ذلك بشجاعة العرب يا أشباه الرجال .. ولا رجال .

إن اليهود الذين فرقهم الله في الأرض شيعاً .. قد فرقوكم شيعاً . إن اليهود
الضالين قد أضلوكم .. إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم جناء . يا أمة العرب .

قال لى صاحبى أشياء لا يصدقها عقل .. أشياء لا يجسر القوم على الاعتراف بها . قال لى : إنه ليس لعرب فلسطين تشكيلات عسكرية .. بل هناك مسخرة عسكرية ، وتهرج حرى . وصف لى هجوم الأعراب .. بأن القوم قبل أن يهجموا يطلقون نصف ذخيرتهم فى الهواء على سبيل التفاريح .. كما يفعل أهل البلد فى الريف . وإن اليهود يلقونهم بمدافعهم الآلية فيحصلون صفوفهم المتراسة حصداً .. ويبدونهم عن بكرة أبيهم .. قال لى : إن المواطنين العرب فى فلسطين يقاتلون — بالذراع — فلا تكتيك حرى ، ولا خطط موضوعة ، ولا قيادات منظمة .

سألت عن الطائرات والمدافع الثقيلة والمدركات ؟ فقال لى : إنها عند اليهود . قلت : والعرب ؟ فقال : لديهم العصى .. قلت : وأين طائراتهم ؟ قال : وعود فى الهواء . قلت : ومدركاتهم ؟ قال : كلام فى الأرض ، قلت : مدافعهم وقنابلهم ؟ قال : هباء فى هباء .

أجل .. إن عرب فلسطين لم ينظموا ، ولم يسلحوا ، ولم يحشد منهم جيش قوى يستطيع أن يذود عن ديارهم ويقاوم خصمهم الغاصب ، بدل أن يولوا منه فرازاً ويتركوا له الديار غنيمة سهلة باردة .. إن الجامعة لم تفعل هذا ، وهو أول ما كان يجب عليها فعله .

ماذا يفيد إذا ذهبت إلى فلسطين فزدت جيوش العزل أعزل آخر ! ماذا تستفيد فلسطين من شجاعتى إذا زدت الشهداء شهيداً ؟ لا .. لا .. إن شجاعتى لن تغنى القوم شيئاً ، إذا ما ذهبت إليهم بنفسى .. مجرد فرد أعزل .

يجب على أن أستعمل شجاعتى بطريقة عملية .. أستطيع أن أنقذ بها فلسطين فعلاً .. يجب أن أحرك جيوشاً مسلحة قوية .. يجب أن توضع خطة منسقة ، وهجوم منظم لتعاون فيه القوات المقاتلة ، وتنقض على اليهود ، فلا تبقى منهم ولا تذر .
(أرض النفاق)

إن حيفا قد سقطت .. ومدافع اليهود الثقيلة قد بدأت تصلى العرب نيراناً حامية ، ففروا من دورهم ، وهجروا أراضيهم .. وأضحى عرب فلسطين كلها مهاجرين لاجئين ، عالة على غيرهم لا يكادون يحصلون على الكفاف .
صح نومكم .. أيها النيام ، وأخطأ والله من سماكم عرباً .. لقد كان يجب عليكم أن تدعوا « نيام . نيام » .

ماذا كنتم تنتظرون ؟ .. هل تخيلتم أن اليهود سيأخذون عرب فلسطين — بالخصن — أم تخيلتم أن القوم العزل يستطيعون بخطبتكم وتصفيقكم أن يتغلبوا على المدافع والطائرات ؟!

لقد سمعت زعيماً عربياً يقول عندما أعلن نبأ التقسيم : « إن القلم سيصمت وستكلم السيف » ، وأصابتنى إذا ذاك هزة .. وانتشيت من فرط الحماسة .. وتذكرت خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وتذكرت انتصارات العرب وغزواتهم ، ورثيت لليهود المساكين .. وانتظرت أن أسمع حديث السيف .
انتظرت .. وانتظرت ، وطال منى الانتظار ، لأسمع شيئاً ، حتى اتضح لي في النهاية أن السيف لا بد أن يكون به خرس .

لقد تحرك النيام أخيراً .. وبدعوا يتمطون ويتشاءبون ، وبدأنا نسمع أن الجيوش المسلحة ستتحرك وتطبق على اليهود .

ولكن هل يعنى ذلك أنها إذا تحركت .. فهل ستفعل شيئاً حاسماً مجدياً ؟ .. إن القوم بطيئو التنفيذ .. شديديو البلادة ، وليس هناك من ينخسهم أو يستحثهم على السرعة .. بل الكل يطلبون لهم ويزمرون .. ويهللون لاجتماعاتهم ويكبرون .

ماذا على إذا لو أكون أنا ذلك الناحس المستحث .. الدافع على العمل ، المنسق للخطط ، الخاضع على التسليح والتعاون .. إن خير ما أفعله .. هو أن أدفع العرب للعمل الحاسم الفعال المتناسق الموحد .

إن المسألة لا تخرج عن شيئين .. إما أن يكون اليهود قومًا غير ذوى خطر ..

فتركهم يفعلون ما يشاءون في فلسطين .. ولا نتعب أنفسنا بالاجتماعات والمشاورات والخطب والمقالات والهجوم الفردي غير الفعال ، وإما أنهم خطر داهم .. يهدد كيان كل أمة عربية .. وأن اشتراك أية أمة عربية في درء خطرهم عن فلسطين ، لا يعتبر مجرد مساعدة لفلسطين .. بل هو دفاع ، عن النفس .. وفي هذه الحالة يجب أن تشد القوى وتوحد الجهود ، وتوجه إلى اليهود ضربة قاضية لا تقوم بعدها قائمة .

وهكذا استقرى الأمر على أن أستعين بشجاعتي ، لكي تجعل منى قوة موقظة دافعة للزعماء النيام .. وبدأت أفكر في الكيفية التي أستطيع أن أصل بواسطتها إلى ما أريد .

وكنت أعلم أن القوم سيجتمعون في دار الأمانة العامة للجامعة العربية .. فقلت لنفسي : إن أول ما يجب علي فعله هو أن أتوجه إلى هناك .. ولا شك أن الله سيوفقني إلى ما أفعله ، وسيهيئ لي من أمرى رشدًا .. ويهديني إلى خير التدابير وأفضل الحلول .

واتخذت طريقى متجهًا إلى مقر الجامعة .. فوصلتها بعد فترة من الوقت . ووقفت أتأمل البناء .. فلفتت نظري لافتة كتب عليها « الأمانة العامة » فتقدمت إلى اللافتة .. وأخذت في نزعها .. وتقدمت إلى أحد الحراس فسألني عما أفعله ، فقلت : إني سأغير اللافتة .. ولم يناقشني الرجل فقد اعتقد أنني مكلف رسميًا بتغيير اللافتة .. وتجديدها .. ولم يمنعي من عملي . وكنت قد قررت أن أضع مكان اللافتة لافتة أخرى كتبت عليها بالخط العريض « الحيانة العامة » ..

ولم أكد أنتهى من نزع اللافتة .. حتى سمعت ضجيجًا ورأى .. ورأيت موتوسيكلًا مندفعًا في ضجة وضوضاء حتى توقف أمام البواب ، وكانت تتبع الموتوسيكل عربية بها بضعة حراس مسلحين .. ثم عربية أخرى أنيقة فخمة ، وعربة ثالثة بها حشد آخر من الحراس .

وسمعت رجلاً بجانبى يهمس فى أذنى « الأمين العام » ، وتملكتنى الرهبة ..
وأحسست بخشية من الموكب ومظهره الفخم .. رغم تلك الشجاعة التى كانت
تملاً نفسى .. وسألت الرجل بجوارى :

— وما هذا الموكب الذى يتقدمه ويتبعه ١٩ ؟

— حراس .

— حراس ! ولم ؟

— يحرسونه .

ورفعت حاجبى فى دهشة وعدت أتساءل :

حرسه الله وصانه ، وأبقى حياته .. ممن يحرسونه ؟ ومن يخشون عليه ؟

— من الصهيونيين .

— من الصهيونيين ١١ و .. وما للصهيونيين وماله ؟

— أيها الغبى .. قلت لك إنه الأمين العام .. ثم تسألنى بعد ذلك ما

للصهيونيين وماله ؟

وانظر الرجل أن أقول « آه .. لقد تذكرت .. يالى من غبى » ولكنى لم أقل

له ذلك .. وعدت أسأل :

— وماذا يخشى على الأمين العام من الصهيونيين ؟

ونظر إلى الرجل نظرتة إلى فلاح غبى لا يفهم من أمور السياسة وتذرع بالصبر

وعاد يجيبنى :

— يخشى أن يقتالوه .

وتصنعت الفرع وتراجعت للخلف ، وقلت للرجل :

— يقتالونه ؟ .. أبعد الله عنه الشر .. ولم يقتالونه ؟

وماذا فعل بهم ١٩ .. أى مكروه أصابهم منه ؟ وأى أذى ألحقه بهم ١٩ ؟

رارتبك الرجل ، وأخذ يفكر فى قولى برهة .

ماذا فعل بهم ؟

وأى مكروه أصابهم منه ؟

وأى أذى ألحقه بهم ؟

هذا والله شيء محير .. فالصهيونيون كانوا حتى ذلك الوقت بخير وعافية ..
ما أصابهم مكروه ، وما مسهم ضرر ... أما الذين أصابهم مكروه ، ومسهم الضرر
والأذى .. وأشبعوا ذبحًا وتقنيلًا .. وضربًا وتدميرًا ، فهم العرب .
أخذ الرجل يفكر .. وأعياء التفكير دون أن يجد ما يجيبني به .
وأخيرًا هز رأسه وقال في ثقة واعتداد :

— إن الرجل بيده مفتاح الموقف .. إنه هو الذى يحرك الجامعة .. إنه رجل

الأسرار .. إنه رجل خطير .

ووقع قول الرجل لأول وهلة في مسمعى موقفًا حسنًا .. فهو قول رنان فيه
تفخيم وتبجيل .. ولم أجد فيه كثير غرابة .. فهو لا يعدو أن يكون من جملة
الصفات التى طالما ألبستها أو هامنا للأمانة العامة .. فظهرتها لنا مفخمة مبجلة .
ولكننى أخذت في فحص القول وتمحيصه ، ومحاولة فهمه . قطعة قطعة . إن

الرجل بيده مفتاح الموقف !

أى مفتاح !! وأى موقف ؟!

إن الموقف كما نعلمه جميعًا .. « بهدلة .. فى بهدلة » . وهزل .. وسخرية فى

سخرية .

إنه هو الذى يحرك الجامعة !

ونحن أدرى بحركات الجامعة ، وما تتمخض عنه .. فكم من مرة تمخض
الجليل .. فولد فأرا .. بل فيرانا من التصريحات والأعمال المرتجلة .. سرعان ما
ابتلعتها الجحور فكأنها ما كانت .

إنه رجل الأسرار !

لا تذكرونا بالأسرار ، بالله عليكم .. فكم اجتمعت الجامعة فى بلودان ، وفى
الزعفران .. وقيل لنا وقتذاك .. هس .. إياكم أن تتكلموا .. لقد وضعت

الجامعة قرارات سرية خطيرة جدًا .. ستذاع في حينها .. إذا ما دقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وأخذنا نضرب أحساسًا في أسداس .. ونقول : ماذا يا ترى قد قررت الجامعة ، وتوقعنا لليهود بمس المصير .

كم تحرك الأمين من القاهرة إلى واشنطن ، وكم طار من واشنطن إلى لندن ، وكم نط من هنا إلى هناك كأنه « فرقع لوز » ، وكم صرّح بتصريحاته الغامضة « العائمة » التي تكتنفها الأسرار ، ويحيطها الإبهام ، وحاولنا أن نعرف إذاك سبب الحل والترحال والنط في مشارق الأرض ومغاربها ، وحاولنا أن نفهم تصريحاته ، فحرنا ، وهزنا زنا ربوعنا ، واتهمنا نفوسنا بالجهل . وقلنا : خير لنا أن ننتظر ، فسيظهر تأثير كل هذا بعد ذاك .

كنا نظن وقتذاك « تحت القبة شيخ » ، وأن الشيخ من نوع جواب رحال .. نوع يرى « أن العز في النقل » نوع قفاز نطاط لا يستقر تحت القبة قط .. تراه اليوم في نيويورك .. وتراه الغد في لندن .. قلنا أعانه الله وقواه .

ودقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وانتظرنا أن يظهر الشيخ وتحل بركاته ، وأن تفتق الأسرار فتبهط منها حممًا تحرق اليهود وتركهم هشيماً تذروه الرياح .. انتظرنا سر الشيخ البائع .. انتظرنا أن تتحرك من فلسطين الجيوش المنظمة ، والقيادات العليا والتكتيكات العنيفة .. انتظرنا أن نرى الفن الحرى فلقد قالوا لنا : إن الشيخ كان فيما مضى محاربًا قديمًا شجاعًا .

وطال بنا الانتظار ، ونحن لا نرى إلا دخان البخور في الجمار ، بدل دخان المدافع في المعارك .. ولا نرى إلا خططًا لمزيد من الاجتماعات ، بدل خطط للهجوم . وإذا بأهل الدار العزل قد غادروها هاربين لاجئين .

رحم الله الشيخ .. لقد « استحل » المشيخة .. والجلوس في القبة .

ترى ماذا يمكن أن يخشى اليهود منه .. وقد كان عليهم بردًا وسلامًا ؟! ماذا يخشون من الجواب الرحالة النطاط .. صاحب الاجتماعات والخطب والبيانات والتصريحات ؟!

ماذا يخشون من جبل .. أقسم ألا يلد إلا فيرانا ؟!

ونظرت إلى حشد الحراس ، وقلت : هذه والله سخرية .. فما أظن الصهيونيين قد بلغوا من الغباء بحيث يفكرون في اغتيال الرجل أو الاعتداء عليه .. ولو كنت منهم لتطوّعت لحراسته ، ولدعوت له ليل نهار بدوام البقاء وطول العمر . وأن يحفظه الله للأمانة العامة .. وللصهيونيين عامة .

ونظرت إلى الرجل بجوارى ، ولم أحاول أن أناقشه بل أمنت على قوله ، إذ لم يكن المجال مجال نقاش . وما جئت إلى هنا للدخول في جدل عقيم ، بل جئت لأحرك قادة العرب ، وأوقظ رعيوسهم وأوحد خططهم ، وأنخسهم وأستحشهم حتى ينسقوا جيوشهم المسلحة المنظمة لسحق اليهود .. وأنبهم أنى على استعداد لأن أضع جسدى في الطليعة .

وبدأت أنا أصلح من هندامى ، ووضعت اللافتة بجوار الحائط ، ثم سرت في خطا متتلة تجاه الباب ، وهممت بالدخول .. واستوقفتني الحارس وسألنى عما أريد .

وابتسمت في ثقة وهمست في أذنه :

— سأخبرك عندما أنتهى من مهمتى .. ادع الله أن يمكننى من إتمامها .

وبدت الدهشة على الحارس وأمسكنى من ذراعى .. قائلاً :

— وأية مهمة هذه التى ستنهيا .. ألم تقل إنك ستصلح اللافتة ؟!

واستمررت في الهمس في أذن الرجل :

— لافطة !! لا تكن أبله .. أنا أحضر إلى هنا لمجرد تغيير اللافتة ؟! إن مهمتى

أكثر من ذلك كثيراً . إن لى مهمة عظمية سيهتر لها الشرق .

ثم ربت على كتفيه برفق وأردفت قائلاً :

— عن إذنك .

ولكن الرجل لم يترك ساعدى ، بل ازدادت قبضته ضغطاً على كائما يخشى

أن أفلت منه ، وعاد يقول :

— مهنتك سيهتر لها الشرق .. 11 —

وفجأة رأيت الرجل يهجم على فيطرحني أرضاً ويصيح بأعلى صوته :

— أيها المجرم الأثيم !

وتكأ كأ علينا بقية الحراس وهم يتصايحون من حولي ، وأنا غريق بينهم ، وسرعان ما أخبرهم الرجل بأنني صهيوني أثيم .. وأنني أخذت أحوم حول دار الأمانة ، وأفهمته أنني قد أتيت لإصلاح اللافتة .. ثم حاولت التسلل من الباب واعترفت أنني سأفعل فعلة يهتر لها الشرق .

وازداد الضجيج ، وعلا الصراخ ، وهبط كل من في البناء بعد أن نقل إليهم الخبر بأن صهيونيًا مجرمًا يحاول نسف البناء والفتك بقيادة العرب .. كل هذا وأنا راقد على الأرض ، وقد تكأ كأ على الحراس .. أحاول أن أشرح لهم حسن نيتي وسلامة قصدي .. ولكنني لم أكن أستطيع حتى مجرد التنفس .

وبعد لحظات أوقفوني ووضعوا الأغلال في يدي وساقوني إلى عربة مقفلة .. وأنا أسمع الأقوال حولي مختلطة متداخلة ، فمن قائل : إنه رأى منذ أسبوع أرسم مدخل الدار .. ومن قائل : إنه يعرف أنني على رأس عصابة صهيونية خطيرة . ولم أكن أصدق قط أن هذا قد حدث لي .. أنا الذي منذ لحظة كنت أنوي تحريك الجيوش وتحميس القواد .. أصبح في غمضة عين صهيونيًا أثيمًا .. ورئيس عصابة خطيرة لاغتيال قادة العرب !

وألقي بي في السجن .. ومضت فترة ثم قادوني إلى النيابة لسماع أقوالى .. وفي طريقى إلى النيابة ، وصل إلي أصوات باعة الجرائد .. « ملحق يا جدد . أكبر خيانة عرفها التاريخ . محاولة نسف الجامعة العربية وقتل زعماء العرب » . وقفت أمام وكيل النيابة ، ونظرت إليه فإذا به صديق لي عزيز وزميل قديم ، ونظر هو إليّ في دهش ، وقال متسائلاً :

— أنت ؟

وهزرت رأسي ببساطة وقلت له :

— نعم أنا .

ولم يستطيع أن يكتف ضحكك وقال :

— أنت صهيوني !! مالك وللصهيونية ؟

— ليست الصهيونية هي السبب .

— ما السبب إذا ؟

— الشجاعة .. الشجاعة هي السبب .. أنا لست صهيونيًا .. ولكنني

شجاع .

وقصصت عليه ما كنت أنوى فعله .. دون أن أذكر له شيئاً عن جرعة

الشجاعة خشية أن يتهمني بالجنون .

وانتهى الأمر بالإفراج عني .. وعدت إلى داري ..

وقد أحسست أن قدمي لا تكادان تحملاني من فرط ما عانيت من جراء جرعة

الشجاعة .

(٤)

في الطريق

إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش
مخادع .. كذاب منافق .. في كل أمة .. في
كل جيل .
لا تقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا ..
لأنهم كانوا خيرًا منا ، وأفضل خلقًا ..
لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا ..
زداءة وسفالة .

وصلت إلى البيت فوجدت القوم قد رقدوا والصمت مخيمًا فتسللت إلى
حجرتي ، وخلعت ملابسى في سكون ، ووقدت في الفراش منهك القوى ،
محطم الأعصاب .

واستيقظت في الصباح وتبينت من الضوء الذى انتشر في الغرفة أنى قد
تأخرت عن موعدى الذى تعودت الذهاب فيه إلى عملى .. والذى لم أجرؤ مرة
واحده على التأخر عنه .

أنا رجل شديد المواظبة .. وقد يكون في مواظبتى هذه نوع من الجبن وخشية
العواقب ، فأنا أخاف أن يؤخذ علتى في عملى أى مأخذ ، أو خطأ .. لالحبى
للعمل .. بل لخوفى من الظهور بمظهر المتراخى المكسال .

ولو كنت في يوم عادى — لم تفعل فيه جرعة الشجاعة بنفسى ما فعلت —
وأريت الضوء قد ملأ الغرفة كما رأيته عندئذ .. لقفزت من السرير كالملسوع

وارتديت ملابسى فى نوان معدودات ثم خرجت أعدو فى الطريق ووصلت إلى
عملى فى ملح البصر ، وأنا ألثت من فرط التعب .

ولكنى .. ولى من الشجاعة ما لى .. وجدتنى أنهض من الفراش ببطء
وأذهب إلى الحمام فى تودة .. ومضت لى نصف ساعة ، وأنا أخلق ذقنى وأرتدى
ملابسى بمنتهى التأنى كأنما أنا ذاهب إلى موعد غرام .. وجلست على مائدة
الإفطار أتناوله فى شهية دون أن يدخلنى أى إحساس بقلق أو خشية .

ماذا يضرنى أو يضير العمل إذا تأخرت عن موعدى نصف ساعة أو حتى ساعة
من ناحيتى أنا .. لا أظنه سيصيبنى أكثر من كلمة تأنيب من الرئيس .. سأعرف
ولا شك كيف أردّها له .. أما ناحية العمل .. فلا أعتقد أن تأخيرى يضيره
كثيراً .. لأننى لو جمعت كمية العمل التى أعملها فعلاً خلال ساعات العمل
الست لما كانت أكثر من نصف ساعة .

وهكذا خرجت من الدار ، ناعم البال مطمئن النفس .. ليس لى من خوف
ولا عجلة .. أو كما يقولون — فى بطنى بطيخة صيفى — ١١

ووقفت فى محطة الترام المزدهمة المكتظة بخليط عجيب من الناس ، وأقبل على
« حسين » بائع الجرائد ، وقد مد لى يده بكومة منها ، وقال بلهجة مليحة بالثقة
والاهتمام :

— الحالة صعب .. اليهود كانوا حايئسفوا الجامعة . لولا ربنا ستر .

وتناولت منه بضعة جرائد ومجلات ، وطويتها تحت إبطى .. فقد كنت أعلم
تماماً كل ما بها .

وأخذت أقلب الطرف فىمن حولى ، ولفت نظرى رجل منتفخ الأوداج ،
بادى التأنى ، قد مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وعلق سبابته وإبهامه بطرف
شاربه يشبعه برماً ولفا ، وأمسك بيده الأخرى عصاً اتكأ بها على الأرض ومال
بجسده عليها ، وبدت عيناه حائرتين زائغتين .. بين نوافذ الدور المحيطة ، وبين
الحريم الشارد فى الطريق ، والواقف على الأرصفة .

وأقبل الترام فاندفعنا إليه واستطعت أن أحشر جسدى بين الجمع الوقوف متعلقاً بإحدى الحلقات الجلدية المدلاة من سقف الترام .

وبعد هنيهة رأيت « الكمسارى » مقبلاً يشق طريقه بين الأجساد المتراسة وهو ينقر بقلمه على خشبة التذاكر ، ويصيح بين آونة وأخرى — ورق — فأخرجت من جيبي ثمن التذكرة وتناولت منه تذكرتى .

وتابع الرجل طريقه يبيع الورق لغيرى من الركاب .

والفتت حولى فوقع بصرى على ذلك الرجل المتفخخ الأوداج ، المبروم الشارب ، الأرستقراطى المظهر ، ورأيت « الكمسارى » يشق طريقه إليه .. ولا شك أن الرجل قد أحس هو الآخر به فقد بدا عليه مظهر المطارد .

وهنا بدأت أرقب نوعاً عجيباً من المطاردة الصامتة .. بين « الكمسارى » وبين الراكب المتأنق الأرستقراطى الذى يحاول أن يفلت من ثمن التذكرة ، دون أن تنهوى أرستقراطيته أو تحد من كبريائه .

كان أول ما فعله الرجل حين أبصر « الكمسارى » مقبلاً عليه هو أنه استدبر بشيء من العظمة وأعطى ظهره لبائع — الورق — ممسكاً شاربه يمينه .. مولياً وجهه إلى خارج الترام . كأنه يستنشق النسيم .. أو كأن المناظر التى يمر بها الترام .. لم تقع عليها عيناه من قبل فهى تستلفت كل اهتمامه ، أو كأنه — سرحان — لا يحس بشيء من هذه الدنيا الصاخبة حوله .

ولقد بدا الرجل كذلك فعلاً .. حتى كدت أخدع فيه ، فأظن حركته تلك التى أعطى بها « الكمسارى » ظهره .. حركة غير مقصودة .. وأنه فعلاً شارد الذهن ، لا يحس بالكمسارى ولا يقصد التهرب منه .. لولا شيء واحد هو الذى جعلنى أكشف الرجل .. وهو استراقه البصر — من تحت — ونظرته إلى « الكمسارى » بنصف عينه .. ومراقبته له خفية.... وتتبعه له فى حركاته وسكناته كأن الاثنين فى مبارزة .

وقام « الكمسارى » .. بحركة تطويق واسعة النطاق .. قادته مباشرة أمام

مواجهة
قدائفه ..
ولكن
سرعان ما
ولقد
فى الزوغان
خصمه ،
إن الر-
سقف الترا-
منديله ..
كل عطسة
عطسات إلى
ولم يشك
الرجل قد بدا
عن كل ما
أعرف تمامًا
الالتفاف الب-
ولست
التذكرة ..
يسلم فى النه-
لقد سقا
طريقة الكم-
لقد أخذ
الطرف الآ-

مواجهة خصمه .. وبدأ هجومه بلا رفق ولا هودة .. وانطلقت منه أول قذائفه .. « ورق يا بيه ».

ولكن — البيه — تنحى بسرعة .. فأصاب القذيفة رجلاً بجواره .. سرعان ما مَدَّ يده بالنقود إلى « الكمسارى ».

ولقد كانت حركته في الدفاع حركة ماهرة .. دلتنى على أن الرجل متمرن في الزوغان . وأثبتت لى أنه كان فى تمام اليقظة ، وأنه كان يتبع جيداً حركات خصمه ، فلم يستطع أن يأخذه بطريقة المفاجأة .

إن الرجل لم يكذب بحس « بالكمسارى » حوله ويقرب منه حتى نظر إلى سقف الترام .. ثم بدا كأنه على وشك أن يعطس ورأيت يمد يده فى جيبه باحثاً عن منديله .. ووضعه على أنفه وأخذ يعطس عطسات ، مكتومة ، وكان يلف عقب كل عطسة ربع لفة .. بطريقة غير مقصودة .. حتى انتهى الأمر به بعد بضغ عطسات إلى أن يعطى « للكمسارى » ظهره مرة أخرى .

ولم يئس « الكمسارى » . بل أصر على أن يعاود الهجوم مرة أخرى .. وكان الرجل قد بدأ ينشر بين يديه جريدة تظاهر بأنه انهمك فى قراءتها وأنها قد شغلته عن كل ما حوله ، فلم يعد يحس لا بكمسارى ولا بغيره .. ومع ذلك كنت أعرف تماماً أن « الكمسارى » لم يفلت من مراقبته لحظة واحدة بدليل هذا الالتفاف البطئ حول نفسه .. والذى يجعل ظهره دائماً « للكمسارى » .

ولست أشك فى أن الرجل كان سينتصر فى النهاية .. وأنه كان سيفلت من ثمن التذكرة .. لولا أن حدث أمر جعل المعركة تنقلب فى غير صالحه .. وجعله يسلم فى النهاية .

لقد سقط الرجل بعد أن تكأكأ عليه خصومه .. وبعد أن استعملوا معه طريقة الكماشة التى لم يستطع أن يفلت منها .

لقد أخذ « الكمسارى » يطبق عليه كطرف من أطراف الكماشة .. أما الطرف الآخر .. فقد كان فى هيئة مفتش .. يقول للرجل فى أدب : « تذكرة

يا بيه « ، وهنا رأيت الرجل يترنح ويمد يده في جيبه فيخرج « شلن » .. ويمد يده به إلى المفتش قائلا : « هات الباقي » .

وتناول المفتش « الشلن » وناوله الكمسارى وأخذ منه تذكرة فمزق طرفها وسلمها للرجل .

وفجأة انقلب الحال .. وتطورت المطاردة .. بعد أن أخذ الكمسارى « الشلن » .. وزاغ به بين الركاب دون أن يعطى الرجل بقية النقود .

لقد تبدل الأمر .. فإذا .. بالكمسارى هو المهرب الزائع .. وإذا به يحوم من بعيد حول الرجل .. دون أن يقترب منه قط .

لقد أخذ يكيّل بنفس الكيّل الذى كال له به .. ويبادل استهبالا باستهبال ، واستعباطاً باستعباط .. والرجل قد انقلب حاله .. انقلاباً تاماً .. فتبدل شروده بيقظة .. وصهيبته تحفزاً .. ونظرته للكمسارى من تحت لتحت .. أضحت بحلقة وذعراً .. وخشيته منه ، وتجنبه له .. قد أصبحت لهفة عليه ، ورغبة فى الوصول إليه .

وهكذا أخذ الترام يقطع المحطة تلو المحطة ، والرجل يزداد قلقاً وتحفزاً وعيناه تزدadan تعلقاً بالكمسارى .. حتى شغلنى عنه صوت امرأة أجنبية قد جلست على كرسي قريب .

وأخذت تنادى « الكمسارى » فى إلحاح .

وسمعت رجلاً بجوارى — يتصعب — بشفتيه ، ويهز رأسه فى أسف .. ويوجه الحديث إلى قائلاً .

— يا سلام .. على الأمانة .. يا خسارة على المصريين .. لو كانت مصرية !!

كانت انتهزتها فرصة .. وصهبت عن التذكرة .

يا خسارة على ولاد العرب !

واستنتجت من حديثه .. أن المرأة الأجنبية تنادى « الكمسارى » بذلك الإلحاح لأنه قد نسى أن يأخذ منها ثمن التذكرة ، ولم أستطع سوى أن أوّمن على

قوله ، ولا سيما بعد ما رأيته من صاحبنا الأرستقراطي وتفنته في الزوغان من « الكمسارى » .

وبدأ الركاب يشتركون في إبداء آرائهم .. ويشيدون بأمانة السيدة خاصة والأجانب عامة .. ويرددون الأمثلة المختلفة .

ولم يعلم الأمر .. أن يكون بينهم من زار — بلاد بره — أو من يعرف بعض من زارها .. فأخذ يضرب الأمثلة بأمانة القوم هناك ، وأن بائع الجرائد يترك الجرائد على الطريق .. والناس يأخذون الجريدة التي يريدونها .. ويضعون القرش في صندوق بجوار الجرائد .

واخذ البعض يعلقون على هذا المثل بقولهم : إنه لو حدث عندنا مثل هذا .. لما وجد البائع .. لا الجرائد ، ولا النقود .

وهكذا انهمك الركاب جميعًا في الحديث .

وسمعت فصلا كاملا عن أمانة الأجانب ، وأن حرماننا من هذه الفضيلة .. هو سر تأخرنا .

ولست أنكر .. أنني قد ألقيت بدلوى في الدلاء .. وأنى اشتركت كغيرى في ضرب الأمثلة التى سمعتها عن الأمانة فى — بلاد بره — ا

وأخيرًا .. وصل « الكمسارى » إلى المرأة .. فإذا بها تهتف به .

— أين النكلة الباقية من القرش الذى أعطيته لك ؟

وأحسنا جميعًا بخيبة أمل .. وكان دشا باردًا هبط علينا .. بعد ما اتضح لنا .. أن صياح المرأة لا يمت للأمانة بصلة .. وأن هذا الإلحاح منها فى طلب « الكمسارى » لم يكن إلا من أجل « النكلة » الباقية من القرش الذى دفعته ثمنًا للتذكرة .

وشرد لى الذهن .. فتذكرت أنه ليس أسهل علينا من أن ندفع دائمًا .. فنشيد بأخلاق الأجانب .. ومقدرة الأجانب .. وفضل الأجانب .. ونسلب أنفسنا من كل خلق .. ونحرمها من كل مقدرة وفضل . فننسب النقائص لأنفسنا .. والفضائل لسوانا .. يدفعنا إلى ذلك مركب النقص الذى نحسه فى

أنفسنا ، ولو بحثنا عن الواقع لوجدناهم شرًا منا .

إن الإنسان هو الإنسان .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

إنى لأذكر ذات مرة .. كنت أدرس فيها أنا ومصرى آخر فى إحدى مدارس الجيش البريطانى ، وكان الطلبة معنا خليطًا من جميع الأجناس : إنجليز ، وبولنديين ، وأستراليين ، وبضعة رجال من جنوب إفريقيا .

وعندما حل موعد الامتحان .. كنت أنا وصاحبى قد استوعبنا كل ما درسناه جيدًا .. فقد كنا نحس من الامتحان خشية ورهبة ، وكنا واثقين أن الغش فى مثل هذه الامتحانات التى يراقبها الإنجليز أمر مستحيل .

فهم قوم أخلاقهم مثلى ، ويجب أن نعتد نحن على أنفسنا ... فنضرب لهم مثلا .. إنهم ليسوا خيرًا منا .

وبدأ الامتحان ، وانهمكت فى الكتابة .. معتمدًا على نفسى ، ولكن لم تمض برهة حتى وجدت صاحبى يمد يده إلى بورقة .. فتناولتها منه ، وبى ارتباك شديد ، وقرأتها ، فإذا بها إجابة لبعض الأسئلة .. فتملكنى الحق على صاحبى ، لأنه سيفضحننا وسط الأجانب ، وأصابنى خوف شديد ، وأخفيت الورقة تحت النشافة .. وأخذت أستمع بما فيها خفية .

ورأيت جارى الآخر ، وهو إنجليزى الجنس .. ينظر إلى بين آونة وأخرى .. فازدت حرصًا على إخفاء الورقة ، خشية أن يبين أنى أغش .

ومضى الوقت ، وأنا أرى جارى يزداد تلفتًا إلى ، ويدو عليه القلق . وبعد فترة أخرى .. رأيت أن الأمر لم يعد يقتصر على جارى فقط بل سرى بين بقية الطلبة ، وأنهم كلهم قد أخذوا يرمقوننى بغيظ ، ويدو عليهم قلق شديد .

وأخيرًا .. طفح بهم الكيل ، ولم يعودوا يطيقون صبرًا على أن يروا جريمة الغش ترتكب أمام أعينهم . فرأيت جارى قد نهض حائقًا وهجم على .. فانزع الورقة من تحت النشافة ، وعاد إلى مقعده بهدوء ، وجلس ينقل منها بمتهمة

البساطة .

إي والله ، هذا ما حدث .. لقد كنت أتوقع عندما نزرع منى الورقة أن يذهب بها إلى مراقب الامتحان .. ويخبره بجنابة الغش التى ارتكبها أحد المصريين .. ولكننى وجدت أن كل ما فعل هو .. أن أخذ الورقة ليغش منها .. ناظرًا إلى قائلها : « إني بليد جدًا » ..

اتضح لى فى النهاية أن الورقة كانت مكتوبة بمعرفة المراقب .. وأنها كانت تمر على كل طالب ليغش منها ما يريد ثم يسلمها إلى جاره .. وهكذا ثار الطلبة عندما حجزت الورقة عندى .. ولم ير جارى بدءًا من أن يهجم على لىتزعهها منى .
واتضح لى كذلك أن مهمة المراقب الكبرى لم تكن فى مراقبتنا نحن بل فى مراقبة الباب حتى لا يطب علينا أحد من الخارج .

هؤلاء هم الإنجليز .. وغيرهم من الأجناس .. نحسن الظن بأخلاقهم ، ونربأ بهم عن الغش .
إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش مخادع كذاب منافق .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

لا تقولوا : رحم الله آبائنا وأجدادنا .. لأنهم كانوا خيرًا منا ، وأفضل خلقًا .. لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا .. رداة ..
لقد كانوا أثنائين مثلنا .. كذابين مثلنا .. أكمن مثلنا . إن هذه العصا من تلك العصية ، أو هذا النعل من ذاك الوطا .

لا تقولوا : إنكم رأيتم فى — بلاد بره — الأمانة والصدق والإخلاص .. فقد رأينا نحن — بلاد بره — عندما أتت إلى — بلاد جوه — وخبرنا جيدًا أهل « بلاد بره » .

أو قد نسيت جيوش الخلفاء .. وكيف كانوا يبيعون مهماتهم ، وأسلحتهم ، وعرباتهم المسروقة بأبخس الأثمان ؟

هل نسيت .. أن اللصوص .. كانوا هم أنفسهم جنود الخليفة ، وضباط
(أرض النفاق)

الحليفة ؟!

سلوا كبار المتعهدين ؟ كيف كانوا يرشون — الصاجن — أو —
الكابتن — حتى يسمح بقبول البضائع ، رغم أنها غير مطابقة للمينات .. فكانوا
بذلك يسيبون خسائر لأمتهم التى هم أمناء على أموالها .. لقد كانوا الصوصا ..
ومرتشين ، وغشاشين .. وخونة .. سرقوا من أمتهم ، وغشوا أمتهم ، وخانوا
أمتهم .

هؤلاء : هم أهل — بلاد بره — الذين نرى فيهم مثلاً عالياً .. نتشدد
دائماً .. بحسن خلقهم .. هل هناك أشد منهم انحطاطاً ، وأردأ خلقاً ؟
لا تخزنوا على أنفسكم .. فكلنا .. فى الهوى سوا .

لا تخطوا من قيمة أنفسكم .. فما كنا شراً منهم . ولا كانوا خيراً منا .
وكان الترام قد وصل إلى المحطة التى أبغى النزول فيها .. فشقت طريقي بين
الأجساد ، حتى استطعت أن أهبط من الترام .. ووصل إلى صوت الرجل
الأرستقراطى يصيح بالكمسارى بعد أن فاض به :
— انت يا جدد انت .. فين الباقي ؟

ولم تكن المسافة بين مقر عملى ومحطة الترام طويلة .. وكنت دائماً .. أقطعها
مسرّعاً فى بضع لحظات .

ولكنى اليوم أحسست برغبة فى — التبختر — رغم علمى أنى قد تأخرت
عن موعدى ، ما يقرب من الساعة .

وأخيراً ، وصلت إلى المكتب ، وجلست على مقعدى فى هدوء بعد أن ألقيت
التحية على الزملاء الذين كانوا يحملقون فى وقد تملكهم الدهش .

كنت أعلم أن دهشهم لم يكن قد سببه تأخرى قدر ما سببه طريقي فى
الدخول .. فى الساعة التاسعة .

لقد كنت أتبع طريقة فى الدخول — فى المرات القلائل التى تأخرت فيها عن
موعدى من قبل — لا تتناسب قط مع طريقي التى دخلت بها اليوم .

كانت لى طرق ثلاث ، أتبعها دائماً عند التأخر .
أولها : هى أن أقبل عليهم بطريقة توهمهم أنى حضرت ميكراً جداً ،
وانهمكت فى العمل .. وأنى قد ذهبت لأقضى بعض المهام ، وأنى عائد منها فى
التو .

وكيفية تنفيذ هذه الطريقة : هى أن أمر على أى مكتب آخر قبل الذهاب إلى
مكتبى .. وليكن الأرشيف مثلاً .. فأحمل منه بضعة دوسيات ، وأسير وأنا
أقلبها وأفحصها .. وقد بدا على أبلغ آيات الانهماك .. وأدخل إلى المكتب ..
دافعاً الباب بقدى .. وأنا مستمر على النظر فى الدوسيات دون أن أكلّم
أحدًا .. أو ألثفت إلى أحد .. ثم أقذف بالدوسيات إلى المكتب فى ضيق وتبرم ..
وأتمم ببعض كلمات يفهم منها من حولى .. أننى — قرفان — وأننى الوحيد
الذى أشتغل .. فإذا ما أنبأنى أحد أن — البيه — أى الرئيس — طلبنى حملت
الدوسيات مرة أخرى .. ودخلت عليه .. وبدأت أنا بالحديث قبل أن يبدأنى
هو .. شاكيًا من أنه ليس هناك من يتعاون معى .. وأنه — ما من أحد أقبل على
الشغل — وأنى لن أستطيع أن أتحمل مسئولية ما قد حدث .. فلقد فعلت كل ما
فى وسعى .. وأخلت نفسى من المسئولية .

وتضرب لحمة مع — البيه — الرئيس ، وينسى ما ينوى أن يطلبه منى ..
وينسى بالطبع ، أنه قد طلبنى .. فلم يجدى .. وأنى تأخرت عن موعدى ..
و — يندب — معى فى الموضوع المرتبك الذى دخلت أعرضه عليه .. وليس
أسهل على من أن أقدم موضوعًا مرتبكًا .. لأن كل الموضوعات عندى مرتبكة .
هذه طريقة للدخول فى حالة التأخر .

أما الطريقة الثانية . فهى أن أدخل حزيتًا مكتتبًا .. مدعيًا أننى لم أتم طوال
الليل .. لأن زوجتى .. أو حماتى .. كانت مريضة جدًا .. وأبدأ بوصف ليلة
سوداء .. قضيتها فى الجرى وراء الأطباء .

أما الطريقة الثالثة .. وهى فى نظرى بمثابة الحالة — ج — فهى أن أدعى أننى

أنا نفسي مريض ، وعلى وشك الهلاك .
وهكذا كان يدفعني جبنى وخشيتى من العواقب إلى أن أجسد مبررات
لتأخرى .. ولقد كانت تلك المبررات دائماً .. تضمن لى أجمل العواقب وخير
النتائج .

أما اليوم .. وقد انطوى الجبن فى نفسى .. وبرزت فيها الشجاعة .
ولم أعد أحس بأى خوف مما قد ينتج عن تأخرى فى الحضور .. فأبى لم أشعر
بحاجتى إلى أن أتمس أى مبرر للتأخر .. بل دخلت إلى المكتب — علناً —
وصحيفاً معافى .. وضاحكاً مستبشراً .

ونظر إالى الزملاء فى دهش ، وردوا على تحيتى الصاخبة . وهمس لى « بهجت
أفندى » بلهجة الناصح :

— البيه طلبك خمس مرات ، وعرف أنك ما جتش .
وكان فى قوله ما يكفى لأن أنهار وأتخاذل .. وأن أندفع إلى « البيه » فأخترت
الأعذار لتأخرى .. وأطلب منه العفو .. ولكنى نظرت إلى « بهجت أفندى »
بساطة ، وهزرت رأسى متسائلاً :

— ما قلش عايز إيه ؟

وتعجب صاحبى من برودى وهدونى .. وأجابنى بأنه — طلبنى ليس إلا —
وقال على سبيل التحذير .. إن البيه هائج ناثر .

ويخيل إالى .. أنه يجب علىّ قبل أن أسترسل فى ذكر ما حدث أن أعطيكم
صورة واضحة لهذا « البيه » وأن أصفه لكم قطعة .. قطعة .

« البيه » هو إبراهيم أفندى عبد المتعال .. رئيس قلم .. فى وزارة .. يتراوح
عمره بين الأربعين والستين .

ولست أريد أن يؤخذ من قولى هذا دليل على غباوقى أو على عدم كفايتى فى
تقدير أعمار الناس ، لأن لى كل العذر فى أن أعطى للرجل عشرين سنة —
براحا — لكى يتراوح عمره فيها .

وماذا أقول ، وأنا أراه يومًا في الأربعين ، ويومًا في الستين ، وأخرى عجوزًا في أرذل العمر ؟

إني أرى عمر الرجل يتوقف على العوامل الآتية :

حلاقة ذقنه .. صبغة شعره .. عراكه مع زوجته ، هزيمته أو انتصاره في الطاولة في الليلة السابقة .. كمية ما احتسأه من النبيذ والعرق .

فقد أدخل عليه يومًا فأجد وجهه برآقًا لامعًا .. وشعره أسود فاحمًا ، وعينيه ضاحكتين ، فلا أعطيه من العمر أكثر من أربعين عامًا ، وقد أدخل عليه يومًا آخر .. فأجده مغمض العينين .. أبيض الشعر .. أسود لحم الوجه ، ناثرت في ذقنه الشعيرات البيض ، فلا أعطيه من العمر أقل من ستين عامًا . ولولا أنه لم يذهب للمعاش بعد ، لاعطيته أكثر من ذلك .

أما وصف الرجل .. فقد كان ممتلئ الجسد .. أحمر الوجه .. ذا ثلاثة كروش : كرش في بطنه ، وكرش في ذقنه ، وكرش في قفاه .

أما الكرش الأولى ؛ وهي أكبرها حجمًا .. فقد كانت أبرز ما فيه تلك الكتينة الذهبية التي تتدلى عليه من جيب الصدري .

وأما الثانية : فقد كانت تهدل أسفل ذقنه حتى تخفى ياقته ، وجزءًا من الكرافقة .

وأما الثالثة : فقد كانت من نوع دهني ، متحجر .. تقوم على قفاه .. كأنها سنام الجمل .

فإذا ما تركت هذه الظواهر الطبيعية الثلاث ، وجدنا الرجل في حد ذاته معقولًا كأى آدمي من أبناء آدم .. وعلى عينيه وضع تينكم القطعتين من الزجاج اللتين تميزان ابن آدم عن بقية الحيوان .

أما شاربه فهو لا يستقر على حال .. يومًا مبرم ويومًا متهدل .. ويومًا حليق ، ويومًا مسترسل .

وكانت علاقتى بالرجل على خير ما يرام ، وقد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت :

إننى كنت أحب الموظفين إليه .. لا لقدركى فى العمل أو لتفوقى على غيرى من الزملاء .. بل لأنى استطعت أن أفهمه .

والواقع أنى لا أرى فضلًا يمكن أن ينعم به الله على عبده قدر أن يعينه على أن يعينه على أن يفهم رئيسه ، ويعرف يروضه ويسوسه ، ولا شك فى أن أسعد الناس فى الحياة ، هم أقدرهم على فهم الناس .

كان « إبراهيم أفندى » .. أو — البيه — كما تعودت ألسنتنا أن تنطق به ، من أكسل خلق الله وأبلدهم .. ولم يكن يفعل شيئًا أكثر من — الإمضاء — وحتى هذه الإمضاء التى كان يصممها على الأوراق ، كان غالبًا ما يضيق بها ذرعًا .

كنت أدخل عليه بالدوسيات ، وكانت إمضاءاته دائمًا تتوقف على حالته النفسية .. لا على فهمه للموضوع ، ولا على استحقاق المسألة للقبول أو للرفض .. وكنت كما سبق القول أقدر الناس على ترويضه ، وعلى أن أحول غضبه رضا ، وكنت أحس حينذاك ، أن الرجل على كبره لا يزيد عن أن يكون فى قرارته طفلًا صغيرًا .

كنت إذا ما رأيت الرجل غاضبًا ، تركت الدوسيات جانبًا ، وأقبلت عليه أحييه فى أدب واحترام ، وسرعان ما أسوقه إلى أحد الموضوعات الثلاثة التى لا يحل أبدًا من تكرارها والحديث فيها .

ولم تكن هذه الموضوعات إلا مفاخر يشيد فيها الرجل بنفسه ، وأشار به أنا فى هذه الإشادة حتى أجعله يشعر بمنتهى الرضا والسعادة .

كانت أول هذه الموضوعات .. حكاية قصصها الرجل على ما يقرب من سبعمائة مرة .. وكنت فى كل مرة أسمعها أدهش منها وأبدى تعجبًا كأننى لم أسمعها من قبل .. ثم أعلق عليها بما استطعت من كلمات التقدير والإعجاب .

خلاصة الحكاية .. أن الرجل — كما يزعم — كان فيما مضى من كبار « الفتوات » وبطلا من أبطال حمل الأثقال .. ممن تخشى سطوتهم ويهاب غضبهم ، وكان له صديق — غلبان كده زى حالاتك (كذا كان يقول الرجل

فى كل مرة .. وكنت أنا أبتمم موافقاً على قوله (وكان يجب فتاة لا تكاد تشعر به .. ففى ذات يوم ذهب إليه ، وقد بدا عليه الهم وملأه الاكتئاب وسأله أن يصنع فيه معروفاً لن ينساه مدى العمر .. واستفسر منه عما يطلب . فإذا به يرجوه أن يشبك معه أمام الفتاة التى يحبها .

ويرفع الرجل منظاره فيضعه على المكتب ويتم قصته قائلاً :

— أجل لقد وجدته يرجونى أن أشبك معه أمام — البنت — وأنهم عليه ، ولكنى لا أضربه ، بل ينور هو فى وجهى ويناولنى بوكساً خفيفاً .. فأصرخ أنا وأقر هارباً ، وهكذا يبدو هو فى نظر الفتاة بطلاً .. ويستطيع بذلك أن يكسب حبها .

وفكرت فى الأمر جيداً ، وهممت بأن أرفض .. فقد كان كثيراً على أن أضرب من فتى هزيل كصاحبى .. ولكن دافع الصداقة والإخلاص دفعنى للقبول ، واتفقنا على الموعد ، وتركته له تدبير المسألة .

وذهبنا إلى المكان المتفق عليه ، وهو مقهى أمام دار الفتاة ، وانتظرنا حتى أطلت من النافذة ، فبدأنا تبادل السباب ، ونهضت من مكافى متهجماً على صاحبى ، ونهض هو مندفعاً إلتى وناولنى — البوكس — المتفق عليه .

ولكن الظاهر أن صاحبى كانت قد أخذته الجلالة .. وتملكته النشوة ، وحمى بعض الشيء ، فجاءت لكفته أقوى مما كنت أتصور ... وأحسست منها بألم شديد جعلنى أستشيط غضباً ، وأنسى كل ما اتفقنا عليه ، وأمسك بصاحبنا الهزيل .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد حملوه من المقهى إلى الإسعاف .. ويسكت « إبراهيم أفندى » .. فأسأله أنا ذلك السؤال الذى أعرف أنه ينتظر أن أسأله إياه :

— والبنت يا سعادة البيه ... عملت إيه ؟

ويضحك إبراهيم أفندى فى تخابث .. وينظر إلتى نظرة ؛ يفهم منها أنها قد أحبتة ، ثم يقول ضاحكاً :

— يا واد عيب .. دا كان زمان .

وهنا أندفع في عاصفة من التقرّيط ، وينساب من فمى سيل من المديح وأقول كل ما أستطيع قوله من أكاذيب أَرْضِي بها الرجل .

وقد تكون قصة الرجل على شيء من الطرافة ، وقد يحتمل الإنسان سماعها مرة ، ومرتين وثلاثاً .. أما أن تقص على سبعمئة مرة — بلا مبالغة — (فقد كان يقصها على بمعدل يوم بعد يوم) فذلك ما لا يحتمل .. ولكنى مع ذلك استطعت احتماها في سبيل أن أَرْضِي الرجل ، ولم أمل من التعليق عليها والإفاضة في مديحه وتقرّيطه ، وهذا هو ما كنت أراه فضلا في .. وقوة احتمال للمكارة . أما الموضوع الثانى فقد كان موضوع الترقية ، وكيف أنه رغم كفايته وقدرته لم يحظ بمثل ما حظى به من هم أقل منه كفاية وقدرة .. وذلك لأنه صريح شجاع لا يحب التملق ولا المداهنة — ووافقته أنا على ذلك مع علمى أنه أكبر مداهن متملق رعديد — ثم يقص على كيف كان « فلان باشا » زميله في المدرسة ، وكيف كان « فلان بك » معه في مكتب واحد ثم أصبح وكيل وزارة ، ولم يزل هو رئيس قلم .

وهكذا يندفع الرجل في ذكر فضائله ومزاياه ، وأنه ليس هناك من يقدر تلك المزايا والمواهب .. وأندفع أنا في موافقته على طول الخط .

أما الموضوع الثالث فقد كان موضوعا داخليا .. أعنى خاصا بحياته الداخلية .. وعلى وجه الدقة .. خاصا بعلاقته مع الست « أم على » حرمه المصون .

كانت شكوى الرجل من امرأته ، وفضفضته بما تفعله فيه هو خير ما يروح به عن نفسه ، وكان يبدأ الفضفضة عادة بسؤاله — أنت متزوج يا « فلان أفندى ؟ فأجيبه بالنفى ، فينفخ بشدة كمن يريح عن صدره كابوسا يطبق عليه ويقول : يا بخنك !

وأنتظر أنا عليه برهة حتى يشم نفسه ثم أسأله عن الموضوع فيبدأ بوصفه

قائلا :

— الوليّه .. حانئيب خيرى ، يا أخى المحكوم عليه بالسجن المؤبد يخرج بعد عشرين سنة ، وإذا كانت أخلاقه حسنة ييشيلوا عنه ستين ، وأنا بقالى خمسًا وعشرين سنة مع الوليّه مش قادر أفلت أبدًا منها .

— إيه اللى حصل يا سعادة البيه ؟!

— موريانى المر .. سودت عيشتى .. انبارح طول الليل تدق بالهون .. آل إيه بتششب علشان فيه ناس عاملين لها عمل ، ومسنكرة الشبايك علشان ما بصبصش للجيران .. قل لى أعمل إيه ؟
وأجابه أنا بمنتهى البساطة :

— طلقها ؟

ثم أبدأ فى إقناعه أنه ما زال شابًا ، وفى أوج قوته ، وأظل أنفخ فيه مدحًا وتقريظًا حتى يحس بالرضا التام .

وهكذا كنت أستعمل مع صاحبنا كل ما وهبه الله لى من قدرة فى النفاق والرياء والمداينة ، وكنت بهذه الطريقة أريح نفسى من شرّه وأتقى غضبه .. ما ذكرت مرة واحدة أنى عارضت له رغبة ، أو خالفت له رأيًا .

وكنت بين آونة وأخرى أقدم له بعض الهدايا .. بتمن صورى زاعمًا أنى حصلت عليها لقطة ، وأذكر أنى قدمت له مرة صندوقًا من الشوكولاته يقدر ثمنه بثلاثة جنيهات . وسألنى عن ثمنه ، فقلت له ابتعته لقطة بخمسة قروش ، ولم يدهش الرجل بل نظر لى ببساطة ، وقال لى :

— اوعى يكون أغلى من كده ؟!

لقد كنت أستعين على الرجل بالجبن والنفاق والرياء .. أما الآن ، وقد تناولت جرعة الشجاعة ، وتطاولت عنى الجبن وتبدد النفاق والرياء ، ترى كيف أستطيع أن أتعامل معه .. وهل أستطيع أن أحتمل غباوته وحمقه وسخافته وسلطة لسانه ؟! لقد غادرت مكتبى ودفعت بابى ، وأنا أقول فى نفسى :

— اللهم رفقًا لى .. وبه .

(٥)

اللعبة الكبرى

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما
يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات وأحزاب
وسياسة ، هي شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكئود ، والأغلال الثقيلة ،
التي تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .

دفعت الباب .. واقتحمت الحجرة وأنا أحس بجرأة لم أعودها قط من نفسي
عندما أتجاوز باب الرئيس .. ووجدت الرجل جالساً على مكتبه .. وقد بدت
عليه بوادر الشر ، وكأنه يتحفز للانقضاض .

ولم أشك عندئذ أن الرجل في أسوأ حالاته النفسية .. التي لا تتج إلا أثر
معركة حامية — على الريق — بينه وبين حرمة المصون .. وكان يجب عليّ
والأمر كذلك .. أن أبدأ بالترفيه عنه ، والتسرية عن نفسه .. وفرفشته ونعشسته
بشتى أحاديث النفاق والرياء والمداهنة .. ولكنني شعرت أني لم أعد أجيد هذه
الطرق ، وأن نفسي قد بدأت تعافها .. وأن الشجاعة الكامنة في جوفي تأني أن
تنزل لي إلى هذا الدرك .

ونظرت إلى الرجل وأشرت له بالسلام وسألته :

— هل طلبتني ؟

ونظر إليّ الرجل مكشراً عن أنيابه وسألني في غضب :

— أين كنت ؟

ولم يكن لدى أى شك فى أنه على استعداد لقبول أى عذر أعلل به تأخيرى ،
وأنه فى أشد الحاجة إلى أن يسرى عن نفسه بالفضفضة والشكوى ، ولكنى أجبته
فى غير اكتراث :

— لقد تأخرت بعض الشيء .

وهز رأسه متسائلا :

— ولم تأخرت ؟

— لأنى تأخرت فى الاستيقاظ .

وبدأ صبره ينفد ، وحملنى فى بعينه وقال مزجرا :

— ولم تأخرت فى الاستيقاظ ؟

— لأنى قد تأخرت فى النوم .

— ولم تأخرت فى النوم ؟

فأجبته ببرود :

— هذا ليس من شأنك .

ذهل الرجل فما كان يتوقع منى هذه الجرأة فى الرد .. وأخذ يرمقنى شررا
وتوقعت أن ينفجر ، فبدأت أنتفض للرد عليه وأصررت على أن أكبل له الصاع
صاعين .. ولكنى — لشدة دهشتى — رأيته قد كظم غيظه وأشار إلى
بالاقتراب والجلوس .

وجلست أمامه متأنقا .. فقد أدركت أنه ينوى أن يمل على الأسطوانة
إياها .. أسطوانة الشكوى والفضفضة .. ويقص على ما تفعله به امرأته ..
ويستشيرنى عما يفعله بها ، وأن على بعد ذلك أن أملى عليه الأسطوانة المقابلة ..
التي أشير عليه فيها أول ما أشير بطلاق امرأته ، ثم أخذ بعد ذلك فى امتداحها الشاء
عليه .

وبدأ الرجل حديثه ، وهو ينفخ ويزفر قائلا :

— إن الحياة مع هذه المرأة لم تعد تطاق .. ذهبت بالأمس إلى مقهى النيو بار

وجلست ألعب عشرة مع « عبد الحميد بك » ، وفي الساعة الثامنة طلبت واحد زبيب ، ثم تركت المقهى إلى ..

وبدأت أنا أنملل .. فقد كنت أعرف كل ما سينوى قوله ، ولم أكن أحس فى نفسى كثير صبر على احتمال سماعه ، وساءلت نفسى كيف استطعت أن أحتمله كل تلك المرات السابقة .. ولم أجد بدا من مقاطعة الرجل متمماً حديثه قائلاً فى سخرية :

— تركت المقهى إلى كازينو الشرق ، وقضيت وقتاً بريفاً مع كيكي الراقصة ، ثم ذهبت إلى البيت تترنخ من السكر .. فقابلتك زوجتك بخناقة .. لرب السما .. هل عندك أكثر من هذا ؟ ما ذنبى أنا ؟ تثقل على كل يوم بما فعلت وفعلت زوجتك .. لعنة الله عليك وعليها ، ثم كيف تبيع لنفسك وأنت فى هذه السن وهذا المركز التلكؤ على المقاهى والتسكع على البارات مع الراقصات ، ثم تذهب إلى البيت سكران طينة ، وتشكو مع ذلك مما تفعله بك زوجتك . ثم رفعت بصرى وحملت فى وجه مليا وأردفت قائلاً :

— لقد فضفضت أنت عن نفسك كثيراً فيما مضى .. هل تسمح لى بلحظات أففضض أنا فيها عن نفسى ، وأزيج بها العلة التى وضعتها على قلبى . أولاً .. هل تستطيع أن تذكر لى ما فائدة ذلك — الهباب — الذى تضعه على رأسك .. هذه الصبغة التى تلوث بها شعرك .. هل خدعت بها أحداً سوى نفسك ؟ .. هل تعتقد أن هناك حماراً — سواك — يتوهم أن هذا لون شعرك الحقيقى ؟ هل تظن الناس قد أصابهم العمى وقلة التمييز .. بحيث يكفى هذا السواد الذى تضعه على رأسك ، لإقناعهم أنك ما زلت فى شرخ الشباب ؟ هل يعقل أن يكون رجل مثلك .. فى وجهه مثل ما فى وجهك من تجاعيد له مثل هذا الشعر الحالك السواد ؟!

ثم هب أنك معجزة عصرك ، وأن الله قد أنعم عليك بحلقة فى الشعر أبدية ، بم تفسر للناس هذا السواد الذى يبدو فى أرضية رأسك ؟ ماذا تخشى من بياض

الشعر ، وماذا تبغى من تسويده . مزيداً من جمال ؟ وإيهاماً بفتوة ؟
إن لكل سن مميزات ، ومميزات الشباب جماله وقوته ، ومميزات الكهولة
وقارها وهبتها ، وأنت بصبغة شعرك قد قلبت سنن الطبيعة ومسخت نفسك
فأضعت وقارك وهيتك دون أن تكسب جمالا ولا فتوة .

إني ما رأيت أتعفه منك مخلوقاً ، تضع ثلثة أرباع يومك في أحاديث تافهة ،
ومصالح الناس معطلة .. لا هم لك إلا الشكوى من امرأتك ومن حالتك : فلان
باشا كان زميلك ، وفلان يبه أضحى وكيل وزارة ، وأنت ما زلت رئيس قلم ..
أحمد الله لأنك أصبحت رئيس قلم ، تور الله في برسيمه ، ماذا كنت تريد أن
تكون أكثر من ذلك ؟

ورأيت الرجل قد اصفر وجهه وفقر فاه من فرط الدهش ، وأصبح من فرط
الذهول لا يكاد ينطق ببنت شفة ، وكأنه على حد قولهم « قد نزل عليه سهم
الله » فنهضت ببساطة وغادرت الحجرة في سكون كأنتى لم أفعل شيئاً .
جلست إلى مكتبي ونظر إلّى جارى ليسألنى عن حالة البيه .. فأجبت
مبتسماً : أحسن .

وبدأت أقلب في الدوسيات المحتشدة على مكتبي ، دوسيات مكتظة
بالأوراق .. مليئة بالتعقيد والحشو واللغو .. وكلها مصالح معطلة .. تنسكع في
دروب الروتين الحكومى وحواريه .. تظل تلف وتدور حتى ينهكها التعب فترقد
في ملفاتها .

ونظرت إلى ركن الغرفة ، فوجدت أكواماً من الملفات قد خيمت عليها
العناكب وعلتها الأتربة .. كلها مصالح أناس قد أنهكها الروتين الحكومى
فرقدت في غيبوبة .

ولأول مرة أحسست بمرارة ، وتملكنى هم وأسى ..
وهذا والله هو الداء المستعصى والعلّة المستحكمة . هذا هو السرطان الذى لا أمل
للأمة في الشفاء منه .

هذا البطء المميت في الأعمال الحكومية ، وفي قضاء مصالح الشعب الذى يتناول الموظفون أجرهم من قوته .

إن أكثر ما يحز في النفس هو أن العلة لا علاج لها ولا أمل في البرء منها ، لقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعيت من يداويها

ولكنى أعتقد أن الشاعر لو عاش في زمننا هذا لا سبديل بالحماسة الحكومة وقال :

« إلا الحكومة أعيت من يداويها » .

إن الآلة الحكومية ، تسير كالسلحفاة تتسكع وتتهادى وتغفو وترقد . آلة خربة عتيقة ، محطمة مهشمة ، مركبة على قاعدة من السخافات والتعقيدات ، يديرها أناس كأنهم تنابلة السلطان ليس لهم في العمل رغبة ولا دافع ، كأنهم في سخرة .. ليس هناك منهم من يحس بحقيقة واجبه . هذا هو أحد الملفات الراقدة أمامى ، لننظر ما به .

إنه ملف « السيدة زهرة عبد الحميد » زوجة المرحوم « إبراهيم أفندى عبد الواحد » الموظف بوزارة الأوقاف .

هذه المرأة تطلب تنازل الحكومة عن نصيبها في معاش زوجها الراحل لأن كل ما سيبقى لها من المعاش هو أربعة جنيهات ، ولم يترك لها الرجل أى ريع تعيش منه سوى معاشه .

الملف منتفخ ، حاشد بالأوراق ، مكتظ بالتأشيرات والإمضاءات ، وكيف لا ينتفخ وقد مضى على طلب المرأة سنتان ، والدوسيه يتهادى بين أروقة الوزارة ويغفو في الأدراج ويرقد على المكاتب ، وفنحت الملف وقرأت آخر — تأشيرة — أنعم عليه بها فكانت كما يلي « يرفض الطلب لأن ميزانية الدولة لا تحمّل كل هذه الأعباء » ..

برافو ، هذا والله منتهى الإخلاص لميزانية الدولة ، ترى ماذا كانت تفعل ميزانية الدولة لو لم يتح لها الله مثل هذا الحارس الأمين الذى يخشى أن يرهقها بالجنبيين اللذين كانا على وشك أن ينتزعا منها ويتركها خربة خاوية ؟! هذا الحارس الأمين الذى رفض أن يسمح بالجنبيين لأرملة « إبراهيم أفندى » ، لكى تستعين بهما على الحياة — بفرض أنها ما زالت على قيد الحياة —

ترى أين ذهبت هذه الأمانة وهذه الشفقة بميزانية الدولة عندما وافق منذ بضعة أيام على صرف ألفين من الجنهيات لأرملة المرحوم فلان باشا !!!
أغلب الظن أن ميزانية الدولة لا توجعها إلا الجنهيات القلائل ولا ترهقها إلا المبالغ التافهة ، أما هذه الآلاف التى تتدفق فهى أحمال خفيفة لا تثقل كاهلها ، ولا تنقض ظهرها .

ولقد تركت أنا الملف يأخذ غفوته النهائية على مكتبى ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

أجل .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل ، قبل أن أتناول جرعة الشجاعة ؟
لا شيء ، ليذهب الملف وصاحبه إلى حيث ألفت .

أما الآن ، وقد أضحيت رجلاً شجاعاً ، فقد أحسست أن الأمر يختلف تمام الاختلاف ، وأنه يجب على أن أفعل شيئاً .

ولم يطل التفكير حتى فتحت الملف وبدأت أكتب مذكرة جديدة بالموضوع لرفعها إلى صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر .

وانتهيت من كتابة المذكرة وأعدت قراءتها لنفسى راضياً مسروراً ، وكان بها ما يلى :

مذكرة

« مرفوعة إلى حضرة صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر فى موضوع تنازل الحكومة عن نصيبها الذى تستحقه من معاش أرملة المرحوم إبراهيم أفندى عبد الواحد » .

« رفضتم سعادتكم طلب الأرملة المذكورة لأنكم لا ترغبون في إرهاب ميزانية الدولة ولا نشك أن التأشيرة قد حدثت خطأ ، أو هي نوع من السهوا أو زلة القلم لأن المعروف عن سعادتكم ، أنكم من غواة إرهاب الميزانية ، وأنكم تتخبنون الفرصة — للبعثرة — في أموال الدولة ، وليس أدل على قولنا هذا مما يأتي :

١ — سعادتكم ، أول عبء يرهق ميزانية الدولة ، فأنتم ولا شك تعرفون مدى جهلكم بالشئون المالية ، وتعرفون أدوار الاستثناءات التي مررت بها ، وتعرفون أنكم لم توضعوا في مركزكم إلا لعلاقتكم بمن تعرفون .
والتي لولاها لكنتم ما زلتم تغطون في الدرجة السادسة كغيركم من عباد الله الموظفين .

٢ — سعادتكم تبيدون — البقشة — من أموال الدولة ، والإغداق على الأقارب والمحاسيب .

٣ — سعادتكم تحبون جدًا صنع المعروف في بعض الجهات ولبعض الناس بشرط أن يكون هذا المعروف من ميزانية الدولة ، وبشرط أن يكون مرهقًا لها . وعلى ذلك فقد أدهشتنا جدًا تأشيرة سعادتكم التي تقولون إنكم لا تحبون أن ترهقوا الميزانية ، ولهذا أعدناه إلى سعادتكم للتكريم بإعادة النظر عسى أن يكون ما زال لديكم بقية حياء .»

ثم وضعت الملف جانبًا ، عازمًا أن أرفعه بنفسى إلى سعادة الوكيل المذكور .. وأمسكت بملف آخر ، لم يكن أقل من الآخر انتفاخًا ، وبدأت أقلب فيه . فلم أتمالك نفسى من الضحك .
هذا الملف قد وصل هو الآخر إلى حالة اليأس ، وأضحت وقفته في مكتبى وقفة شترية .

ماذا به ؟ مسألة هينة جدًا ، في غاية التفاهة ، ومع ذلك فالتقاعده الحكومية ؛ لا يمكن أن تتجاوز عنها .

الملف لأرملة أخرى ، لكنها لا تطالب باستثناء ولا تنازل ، بل تطلب حقًا لها . يجب أن تأخذه .. إنها تطلب المكافأة القانونية التي يجب أن تصرفها الحكومة بمجرد وفاة زوجها ، حتى تتمكن بواسطتها من العيش ، هي — ولا شك — فقيرة وفي أشد الحاجة لهذا المبلغ من المال . ومع ذلك فقد مضت سنة ونصف على وفاة زوجها دون أن تقبض شيئاً .

لماذا ؟ الأمر بسيط جدًا ، وسخيف جدًا .

لأن الأوراق التي كان ينقصها بعض الاستيفاء ، تمت كلها ما عدا أمرًا واحدًا ، وهو اسم المأذون الذي عقد قران الأرملة المذكورة على زوجها المرحوم منذ ثلاثين عامًا على الأقل .

أى والله هذا هو السبب !!

ولقد استمر الملف راقداً .. سنة ونصفًا ، وسيرقد إلى ما شاء الله حتى يعرف

اسم المأذون !؟

يا للسخف ! إني والله مخلوق سخيف جبان .. أو هكذا كنت ؟

وفتحت الملف وأمسكت القلم وكتبت في إحدى الأوراق ، اسم المأذون

أحمد إبراهيم على .

أى اسم !! ماذا يضرنى لو كتبت من زمن مضى وأنبئت المسألة ، وساعدت

المرأة المسكينة على صرف النقود .. من الذى سيناقشنى فى اسم المأذون ؟

وهكذا شمرت عن ساعد الجد وعزمت أن أكون شجاعاً فى عملي ، وعلى أن

أنهى كل هذه المسائل المعطلة وأدفع بمصالح الناس الراقدة على المكاتب وفى

الأروقة .

وأخذت أعمل بمجد ونشاط حتى خطر لى فجأة خاطر أوقنى عن العمل .

ما قيمة أن أنجز هذه المصالح ثم تتعطل بعد ذلك عند الرؤساء ، وحتى لو

جاوزت هؤلاء الرؤساء فلا شك أنها ستأخذ نومة طويلة فى مكتب الوزير .

أجل .. إن معظم هذه المسائل ستعرض على الوزير ، ومن يدري ربما حوّلت

(أرض النفاق)

على مجلس الوزراء ؟

وشرد ذهني بين الوزير وبين مجلس الوزراء أو ما يسمونه الهيئة الحاكمة .
هذه في مصر هي اللعبة الكبرى ، واللاعبون فيها هم الساسة .. أما الجمهور
المتفرج فهو الشعب التعس .

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات
وأحزاب سياسية ، هي شر ما ابتليت به مصر !!

إنها العقبة الكثود ، والأغلال الثقيلة ، التي تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .
ما هي السياسة في مصر ، وما هي الأحزاب ؟ هل جنت مصر منها شيئاً أم
جنت هي على مصر ؟ .

السياسة في مصر .. هي الحرفة التي توصل إلى الحكم ، والأحزاب هي فرق
تتبارى وتتسابق في الوصول إلى الحكم ، والحكم مفروض فيه أن يكون الوسيلة
لقيادة البلد والنهوض به والعمل على رخاء الشعب ، ولكن الحكم في هذا البلد
ليس وسيلة لشيء ، اللهم إلا رخاء هذه الفرق السياسية المسماة الأحزاب ، أما
رخاء الشعب وقيادته وإصلاحه والنهوض به فتلك أشياء ، قد لا تأتى في أذهان
الحاكمين إلا عرضاً ، أو لا تأتى أبداً .

هذا البلد لا يحتاج إلى شيء كحاجته إلى الاستقرار .. استقرار وهدوء توضع
فيه المشروعات التي تؤدي إلى رخاء الشعب .. ثم تنفذ في صمت وسكون وفي
عقل وحكمة .. بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب .. ولا دعاية ولا حفلات ولا
زيارات .. بل تحدد الأهداف التي سنصل إليها ، والطريق الذي سيوصلنا ،
والزمن الذي يستغرقه الوصول . ثم نسير في طريقنا قدماً .. بلا تلوذ ، ولا هزل ،
ولا عبث .

ولكن كيف يمكن الوصول إلى ذلك الاستقرار ، وفي بلادنا فرق تتبارى في
لعبة الحكم الكبرى ، واللعبة تحتاج إلى تصفيق وصفير .. وتنطيط وشقيلة ؟
كيف يمكن الاستقرار .. وهذا الفريق ينقض ما أبرم ذاك .. ويحل ما ربط ،

ويربط ما حل .. ويؤخر ما قدم ويقدم ما أخر !! وهكذا نجد أنفسنا دائماً بفضل
بجهود الأحزاب السياسية التي تتوالى على الحكم كأننا « يا بدر لا رحنا ولا
جينا ». كيف يمكن الاستفادة من المشروعات .. إذا كان غرضها الأساسى .. هو
الدعاية والحفاظ على كراسى الحكم ، والحصول على هتاف الشعب لا على
فائدته ؟

كيف يمكن الوصول إلى الاستقرار إذا كانت اللعبة الكبرى قد تحكمت فينا ،
وسيطرت على عقولنا ؟!

تبدأ اللعبة الكبرى .. بتلك المهزلة المسماة بالانتخابات .. والتي لم تحدث
قط في أى عهد من العهود .. منذ بدأنا حياتنا النيابية .. أن سلمت من أن ترمى
بالتزوير والغش .

ومهزلة الانتخابات عندنا شيء ظريف يعث التسلية في نفوس الجماهير ،
والفرق خلالها تنشر أفرادها بين الجماهير ، ويلقون اليفط كأنهم أصحاب
سيرك .. ثم يخطبون في الجماهير .. قائلين كلاماً « يموت من الضحك »
يتلخص في أنهم .. أى أفراد الأتيام (سيجعلون السماء تمطر ذهباً وفضة) .

وهكذا يروح الشعب كأنه فى مولد .. وهو شعب « هليللى » يجب
التفاريح ، ثم يحين وقت الانتخابات فيجرى رجال الإدارة بمعرفتهم .. بصرف
النظر عن رغبة الجماهير .

وتظهر نتيجة الانتخابات فإذا تيم من الأتيام قد نال كل الأصوات والباقي لم
ينل شيئاً .

وتتم بعد ذلك بقية اللعبة .. فيبدأ مجلس النواب .. فى الظهور واللعب ،
ويتكوّن معظمه من أفراد تيم واحد بينهم بضعة أفراد من الأتيام الأخرى . إما أن
يشتموا ويقاطعوا من أغلبية المجلس وإما أن ينسحبوا .

وعمل مجلس النواب الأساسى هو التصفيق بحماسة لكبار أفراد التيم ، أو كما
يسمون التيم الأول ، وهم الوزراء وعلى رأسهم صاحب الدولة كابتن التيم .

مجلس النواب ليس عليه سوى التصفيق بشدة . والموافقة على طول الخط .. والإعجاب والتقدير لأى عمل ، وكذلك الإعجاب والتقدير للعمل الذى يناقض هذا العمل بدون أى خجل ولا استحياء .. ما دام الكاتب يريد ذلك .. وماذا يضيرهم من الإعجاب والتقدير ؟ ما دام فى هذا الإعجاب والتقدير ضمان لبقائهم ، وبقاء تيمهم .

فإذا ما تركنا « السكندريم » فى تصفيقه وتهليله وانتقاله إلى جدول الأعمال ، ثم التفتنا إلى « الفرست تيم » ، وقد انهمك فى اللعب .. لعب الحكم .. راعنا ما رأينا .

التيم حائر قلق .. يخشى على نفسه من الأتيام الأخرى التى أخذت تضع له العقبات و « الخوازيق » وعتف بسقوطه ، وأفراده منهمكون فى قضاء مصالحهم والعمل على رخاء أنفسهم والأقربين إليهم ، ثم يفرعون فجأة على صوت ضجيج الشعب الساخط فيتظاهرون بالعمل لمصلحته محدثين فى مظاهرهم أكبر ضجة وأكبر دعاية ، محاولين استرضاءه بوسائلهم الجوفاء .. ومشاريعهم الشبيهة بالطليل .

والشعب بين الأتيام ضائع حائر .. منصرف بكليته إلى مشاهدة اللعبة .. متلهف على التغير والانقلاب .. يجب أن يسقط هذا ، ويرتفع ذاك .. ثم يسقط ذاك ويرتفع هذا .. مجرد التسلية .. والمشاهدة .. يشاهد أحد الأتيام فى اللعب .. فيسخط عليه ويكرهه ويطلب إخراجهم من الميدان . فإذا ما بدأ التيم الآخر فى اللعب .. عاد إلى سخطه وطلب الأول .. ونسى كل ما كان من أمره ، هو شعب طيب ، سهل الخداع ، سريع النسيان ، حائر بين هذا وذاك .. لأن هذا شهاب الدين .. وذاك أخوه .

كيف يمكن الاستقرار إذا .. وهذه اللعبة تسيطر على العقول وتشغل الأذهان ؟ .. كيف يمكن الاستقرار ، ومحترفو السياسة مغفلون فى البلد مسيطرون على دفة أمورها ؟

وأخذت أجهد الفكر في طريقة تخلص البلد من ساستها ، ومن أتيامها ، ومن لعبتها الكبرى .. من حكم وانتخابات ونواب .. إلخ .
وخطر لي فجأة خاطر عجيب .. وفكرة مدهشة .
لِمَ لا نحاول أن نفصل لعبة الحكم عن الحكم فعلا ؟

إن السياسيين والأثيام والجماهير لا غنى لها أبداً عن لعبة الحكم . لا بد من أحزاب وقيام وزارات وسقوط وزارات وكل ما ينتج عن ذلك من ضجيج وتهريج وإشاعات ودعايات .. هذا كله لا يمكن أن يستغنى عنه البلد .. فلك أشياء مسلية جداً وحرام أن نحرم الشعب مشاهدتها .

ولكن ما الداعي لأن نربط بينها وبين مصلحة البلد ؟
لِمَ لا نجعل التسلية شيئاً والمصلحة شيئاً آخر ؟ لِمَ نحاول أن نربط بينهما ..
فتضيع مصلحة البلد ؟

أجل .. والله إنها لفكرة هائلة .
نبقى الأحزاب كما هي .. والبرلمان كما هو .. وكل شيء كما هو ، ولكننا نجعل عملهم مجرد لعب وهو وتسلية . فلتجر الانتخابات ولتؤلف الوزارات ولتعقد البرلمانات .. ولتستمر لعبة الحكم كما هي .. على ألا تكون أية صلة بينها وبين الحكم فعلا .

دعوا هؤلاء في لعبهم ولهوهم وتهريجهم وخطبهم .. دعوهم يتسابقون إلى الحكم .. دعوهم يتشاقمون ويتخاصمون ، ويتبادلون التهم والسباب . دعوهم يفعلون كل شيء .. إلا شيئاً واحداً ، وهو الحكم .
يجب أن نضع في الحكم فعلا رجالاً لم تلوثهم الأثيام ، ولم تلقنهم أصول التهريج ، ونفرض عليهم تنفيذ مشروعات معينة ، في مدة معينة .. على أن يقوموا في كل عام بتنفيذ الجزء الذي يجب تنفيذه خلال هذا العام .. ويقودوا نهضة البلاد في جميع الشئون : اقتصادية وزراعية وصناعية وعسكرية .. يعملون في صمت وسكون ، ويدعون الصياح والضجيج للأثيام النهمكة في لعبة

الحكم .

واستحكمت في رأسي الفكرة وملأني منها إعجاب شديد ، ووجدت فيها الحل الأكبر لصلاح هذا البلد فهي تضمن مصلحة الشعب دون أن تضر بمصلحة محترفي الحكم والسياسة .. وسرعان ما أخرجت من أحد الأدراج ورقة بيضاء .. وبدأت أسطر فيها ملخص الفكرة .. عازما أن أعرضها على أولى الأمر . ومضت برهة ، وأنا أكتب وأشطب حتى انتهى بي الأمر إلى أن أصوغ المشروع في صيغة مرضية .. وتلوته بضع مرات ، ثم أخذت في تبينه ، وانتهى بي الأمر إلى أن أصر على عرضه على الوزير مباشرة !

وماذا في ذلك ؟ .. إنه لا شك سيقدر الظروف التي دعنتني إلى التفكير في هذا المشروع .. « مشروع فصل الحكم عن لعبة الحكم » ، وهو لا شك سيقدر أن حاجة البلد تستدعي إخراج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، ثم إنه لن يضيره منه شيء .. فهو سيقبى وزيراً كما هو ، وسيبقى له الجاه والمظهر ، والعربة والسعاة ، وسيذهب إلى مجلس النواب ويتحدث بما تعود أن يتحدث به من سقط الكلام ، وسيبقى كما هو صاحب معالي . فماذا يريد أكثر من ذلك ؟

وهكذا اختمرت الفكرة في رأسي ، وسرعان ما نهضت من مكتبي حاملاً ورقة المشروع متجهاً إلى مكتب الوزير .

وكان مكتب الوزير هذا يعتبر عندي من المناطق المحرمة التي لا أجسر قط على الاقتراب منها . فقد كنت أحس للوزير بهيبة وخشية .. لشدة ما وجدتها تتطاير من نفسي ، وأنا أتجه إليه حاملاً في يدي المشروع الخطير .

ودفعت باب المكتب ببساطة ودلفت إلى الداخل وتقدمت إلى صاحب المعالي ووضعت أمامه الورقة في سكون ثم أدت له ظهرى وغادرت المكتب عائداً إلى مكتبي كأني لم أفعل شيئاً .

وجلس على المكتب وانهمكت في إنهاء بقية الملفات المتأخرة ، ولكن لم تمض لحظة حتى وجدت البية « الرئيس » مندفعاً من حجرته كأنه الزوبعة وهجم

على يهزنى من كفى صارحًا :

— أيها المجنون .. أنت الذى كتبت هذا ؟

ودفعته جانبًا مظهرًا فرط اشمزازى من غضبه وثورته ووقع بصرى على الورقة التى كتبت فيها المشروع إياه ، والتى تركتها منذ لحظات على مكتب معالى الوزير ولححت عليها تأشيرة بإمضاء الوزير جاء فيها ما يأتى :

« يكشف على قواه العقلية » .

وعاد الرجل الثائر يصيح بى :

أنت الذى كتبت هذا ؟

وأجبت بهيرود :

— أجل .. أنا الذى كتبت .. ماذا به ؟ .. كفر ؟

— لا شك أنك جننت .

واندفع الرجل عائدًا إلى حجرته ، أمرًا إياى بالانتظار حتى يتخذ معى الإجراء اللازم ، ولكنى لم أر من الصواب أن أنتظر حتى أرى هذا اللازم الذى بنوى إجراء معى وقلت : إن من الخير لى أن أغادر المكتب .. إذ لم يعد لى مقام بين هؤلاء المنافقين المدهانين .

ولم تمض برهة حتى كنت أنطلق فى الطريق عائدًا إلى البيت ، ولكنى لم أكد أسير بضع خطوات حتى التقيت بمظاهرة كبيرة حشد فيها جمع خفير من الطلبة يهتفون بضعة هتافات مختلطة .

ونظرت إلى الصبية وساءلت نفسى : ماذا يريد هؤلاء الحمقى !! وماذا يمكن أن يفيدوا أو تستفيد البلد من هذا العبث ؟ . وهممت بأن أوجه القول إليهم ناصحًا .. عندما أبصرت بحجر قد ارتفع واستقر على أحد فوانيس النور فحطمه ، ثم أبصرت بجمع من الرعاع قد اندفعوا إلى واجهة حانوت فحطموها وأخذوا يهتفون بالضائع التى بها .

وأبصرت بصاحبه الكهل ، وقد تكأ كئوا عليه وأخذ هو فى الصراخ

والاستجداد ، فاندفعت لنجدته وأمسكت بواحد منهم فألقيت به على الأرض .
وهنا أحسست باللكمات والضربات تنهال على كالطمر ، وصدق على المثل
« الكثرة تغلب الشجاعة » . فلقد تلقيت علقه .. لم أتناول مثلها في حياتي .
وأخيرًا تمكنت من الهروب .. عظم الأعضاء .. لا تكاد تخلو بقعه في
جسدي من كدم أو خدش .

ووصلت إلى البيت ، وأنا ألث من فرط الإعياء ، وقد ورمت إحدى عيني ،
حتى أحسست أني لا أكاد أبصر بها .

وتلقاني أخي عند الباب مرتاعًا وسألني :

— ماذا أصابك ؟

— الحقني .

وارتميت على الفراش ، وأنا أشير بأصبعي إلى فمي .

وعاد أخي يسألني في دهش وذهول :

— ماذا تريد . ماء ؟

فهزرت رأسي ، فعاد يسأل :

— أسبرين ؟

فأشرت بالنفي ، واستمررت على الإشارة بيدي إلى فمي ، ولم يفهم أخي

ماذا أريد .. فصاح بي وقد تملكه الذعر :

— تكلم .. ماذا بك ؟ ، ماذا تريد ؟

وأخيرًا استطعت أن أتكلم فقلت له لاهثًا :

— الحقني بشوية ..

— شوية إيه ؟

— شوية جبن .

(٦)

فضيلة الجبن

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره ..
إن أفضل خلق الله أجبنهم .

نظر إلى أخى فاغراً من الدهش فاه وهز رأسه متسائلاً :

— شوية جبن ؟

فأجبت بصوت خافت ضعيف :

— أجل .. إني لم أعد أحتمل هذه الشجاعة التى ستؤدى نى إلى التهلكة ..

لشد ما صدق الرجل قال إنها بضاعة خاسرة .. يوم واحد منها قد فعل نى
ما فعل .. فما بالك بالتسعة الباقية ؟ .. لا .. لا .. هذا كثير .. كثير جداً .. إنى
لا أتصور ماذا يمكن أن يحدث لى فى بقية المدة لو انطلقت بين الناس على هذه
الحال ؟

وصمت برهة ثم أردفت متوسلاً :

— أرجوك .. أدركنى بجرعة جبن .. اذهب إليه وصف له حالى ..

استعطفه واسترحمه وقل له إنى راقد على الفراش أشلاء محطمة وأعضاء مهشمة .
قل له إنى على وشك أن أفصل من عملى .. وأن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على
قواى العقلية .. قل له ارحم المسكين التعس الذى دفعت به إلى بش المصير
بفضل جرعة الشجاعة .. لا كنت ولا كانت الشجاعة .. قل له أن يبحث فى
قاع الأدراج وفى الشوالات الفارغة عله يجد بقايا جبن تذهب عنى الشجاعة

وتنقذنى من شرورها .. استعمل معه كل ما استطعت من وسائل الوعيد
والتهديد .. قل له إنه سيكون مسئولاً عن كل ما يحدث لى خلال الأيام التسعة
الباقية وأنى سأكون ضحيته .. وأنى سأبلغ النياحة .. افعل معه كل ما يمكنك .
اضربه .. أو توسل إليه .. ولكن اتنى منه بجرعة جبن تذهب عنى شجاعتى
وتعيدنى إلى ما كنت عليه .

ومضت فترة سكون .. لم ينس أخى خلالها بينت شفة فقد أرتج عليه من فرط
الدش وأخذ ينظر إلى نظرتة إلى أبله ذى جنة .. وبدأ لى أنه لم يستقر فى ذهنه غير
قولى : إن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على قواى العقلية وأنه لم يعد يشك فى أن
بعقل لوثة ، وأن كل ما قلته عن جرعة الشجاعة والجبن ليس إلا هذيان مخبول ..
وأن ما لى من كدمات وضربات ناتج عن اشتباكى مع الناس وأنا فى حالة هياج .
وهكذا أقنع أخى نفسه بأنه أمام مجنون خطر ..

ووجدته يتسم لى ابتسامة زائفة ستر بها ما اعتمل فى نفسه من الفزع والخوف
على ، وأخذ يربت على برفق ويقول لى مهدئاً :

— نم .. نم .. استرح ، هدى من روعك .. سأحضر لك ما تريد من
شوات الجبن ، فأنا معك أن هذه الشجاعة شىء خطر .. وأنها لا بد مؤدية بك
إلى التهلكة .. اطمئن .. سأحضر لك الجبن بأية وسيلة .. فقط اهدأ ..
واسترح .

ولم يكن فى قول أخى شىء يعث على الغضب ، فقد كان هو الرد الطبيعى
على ما سألته إياه .

لقد طلبت منه أن يحضر لى شيئاً من الجبن .. فأنبأنى أنه سيحضره ووافقنى
على أن الشجاعة شىء خطر ، ومع ذلك استفزنى قوله ، أو على الأصح استفزتنى
اللهجة التى أسر بها لى قوله ، لهجة اللين المفرط والرقعة المتناهية ، لهجة جعلتنى
لا أشك فى أنه يعاملنى كمجنون وأنه — على حد قولهم — (واخذنى على قد
عقل) .. وليس أدل على ذلك من أنه لم يحاول أن يتفاهم معى فيسألتنى من أين

سأتى بالجبن ؟ ..

ولا حاول أن يستفسر عن كيفية حصولي على جرعة الشجاعة كأن المسألة طبيعية جدًا .. وكأن حوانيت الأخلاق تملأ الميادين والطرقات .. أو كأن الشجاعة يسرح بها الباعة على العربات .

ونظرت إليه في ضيق وحنق وسألته منهكمًا :

— هل تعرف من أين ستأتى بالجبن ؟

— أجل .. أجل .. أعرف تمامًا .. لا تتعب نفسك كثيرًا .. إنها مسألة هيئة .

وزاد لي الحنق من هذا الأبله الذى يصر على معاملتي كمجنون واستمررت على تهكمي منه قائلًا له :

— أنا أعرف أنها مسألة هيئة ، ولكنى أريد فقط أن أتأكد من معرفتك لخانات الرجل .

— يا أخى لا تتعب نفسك كثيرًا .. إن الجبن ملء الطرقات والأسواق وسأعرف كيف أحصل لك عليه .. وأخلصك من هذه الشجاعة التى ستودى بك .. ؟

وهنا غلى مرجلى ولم أعد أحتمل فصحت به غاضبًا :

— أيها الغبي السخيف . أية أسواق هذه المليئة بالجبن ؟ هل تظننى مجنونًا أخرف بما لا أعمى ؟ كف عن هذه الموافقة الحمقاء على كل ما أقول .. واعلم أننى فى كامل عقلى ، وأنى فى حال طبيعية جدًا .. لم يطرأ على أى تغيير .. عدا ما أحدثته فى نفسى جرعة الشجاعة .. فأنا والأمر كذلك لست بمجنون .. قد تكون نتيجة الحالتين واحدة .. وقد تتساوى الشجاعة فى هذا الزمن مع الجنون ، ولكنى أؤكد لك أنى أبعد ما أكون عن الجنون

وكان أخى يهز رأسه موافقًا على كل ما أقول دون أن يحاول أن يفسر بين شفة وخشية أن أعود إلى حالة الهياج — كما كان يتصور — وأجمعت حديثى قائلًا :

— وهكذا ترى أن علاجي كائن في جرعة جبن .. لست أدري إذا كنت ستجد منه عند التاجر شيئاً أم لا .. فقد أنبأني أنه ليس لديه من هذا النوع من الأخلاق الرديئة ذرة واحدة .. ولكن من يدري .. ربما كان لديه بعض منه وسط — الكناسة — القديمة . أو ربما كان لديه شوال منسي أخفى تحت بقية الشوالات ، على أية حال اذهب إليه .. وقل له : إن أخى — فلان الفلاني — الذى أخذ منك بالأمس شجاعة عشرة أيام ، قد جعلته في يوم واحد راقداً بلا حراك .. وارم العين .. مشجوج الرأس ، تعارك — في أربع وعشرين ساعة — مع حماته ، ومع سائق الأتوبيس ، ومع باشجاويش القسم ، ومع رجل يضرب امرأته . ثم قبض عليه بتهمة الصهيونية . واعتدى على رئيسه بالإهانة والسب . وتقدم إلى الوزير بمشروع كانت نتيجته أن طلب الكشف على قواه العقلية .. ثم تعارك مع بعض الرعاع فأكل منهم — علقه — لم يذق مثلها في حياته .. كل هذا في أربع وعشرين ساعة ، وهو راقد الآن في انتظار نجدة من الجبن — يا تلحقه يا متلحقوش — إن جانوت الرجل كائن في آخر الطريق على يدك اليمنى .. بالقرب من شجرة الجميز الكبيرة . وهو رجل طيب جداً .. ولا شك أنه سيق لي .. وسيرسل إليّ النجدة .

أما إذا لم تجد عنده للجبن أثراً .. فستكون — واقعة سودة — وسأضطر أن أحبس نفسي في الحجرة حتى تنقضى العشرة أيام .. دون أن أتصل بأحد .. كل ذلك وأخى يهز رأسه موافقاً ، على طول الخط .. وأخيراً قال في لهجة مؤكدة :

— لا .. لا .. اطمئن ، إن شاء الله سأجد عنده مطلبنا ، إذ ليس من المعقول أن يكون قد نفذ .. لا بد أن يكون هناك — على حد قولك — شيء منه في الكناسة .. أو في قعور الأدراج أو الشوالات .. اطمئن واعتمد على كل الاعتماد .

وأخذ أخى ينسحب من الحجرة بانتظام حتى وصل إلى الباب فخرج في

سكون وأغلق الباب خلفه ، وبعد لحظة سمعت صوت الباب يغلق بالمفتاح .
يا للمخائن .. المخادع .. لقد أغلق الباب عليّ إنه ما زال يعتقد أنى مجنون ،
ولقد وافقنى على ما قلت وتظاهر بتصديقى حتى يهرب ويسجتنى فى الغرفة .
ووجدت أن المسألة ستزداد حرجاً .. وستطور تطوراً لن ينتهى بأية حال
إلا إلى أسوأ الأمور ، وأننى سأتهم بالجنون وسيحاولون معاملتى كأننى مجنون ،
ولا أظن هناك أبعث إلى جنون العاقل سوى أن يتهمة الناس بالجنون وأن يؤولوا
كل أفعاله وأقواله إلى أنها صادرة من مجنون ، ولن يعدموا بعض ما يرر لهم
ظنونهم .. فلا أظن هناك فارقاً كبيراً بين الإنسان فى حالة الجنون أو فى حالة العقل ..
ولا أظن هناك حدوداً معروفة فاصلة بين الجنون وحالة العقل .. إذ ليس هناك
مقاييس للعقل تجعلها مستوى للمقارنة .. فالمسألة .. كلها مسألة نسبية ،
والعاقل فى قوم مجانين يتساوى مع المجنون فى قوم عقلاء ، ومن منتهى العقل منتهى
الجنون .. فأعقل الناس أشدهم نبوغاً ، وأشدهم نبوغاً أكثرهم جنوناً .
وهكذا سأجد نفسى متهمًا بالجنون .. ويزيد الطين بلة هذه الشجاعة التى
تملأ نفسى .. فلو كنت على حالتى الأولى من الجبن .. لاستطعت بسهولة أن
أثبت لهم صحة عقلى ، بمختلف أنواع النفاق والرياء .. ولاستطعت أن أداريهم
وأسايرهم وأتبع معهم اللين ، والسياسة ، والمكر ، والدهاء ، أما وأنا على ما فى
من شجاعة وجراءة وصراحة ، فالله وحده يعلم ما سينتهى به أمرى معهم .
وأخذت أفكر فى حل ينقذنى مما أنا فيه ومما أوشك أن أقع فيه .

أين المخرج ؟ كيف النجاة ؟

هذا الأحق الذى أغلق الباب عليّ ، ولم يعد لى فيه أى أمل لكى يذهب إلى
الرجل ويحضر لى جرعة الجبن .. فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أننى مجنون ، وعلى
ذلك لم يبق أمامى سوى الاعتماد على نفسى .. و « ما حك جلدك مثل
ظفرك » .

أجل يجب أن أسرع بالفرار قبل أن يسرى فى الدار نبأ جنونى .. وقبل أن يطبق

علّى القوم .. ويضيقوا علّى الخناق يجب علّى أن أتحمّل على نفسى وأسرع إلى الرجل .. وأريه ما قد وصلت إليه .. وأقنعه بأنّى لم أعد أحتل أيام الشجاعة الباقية ، وأتوسل إليه أن يعيدنى إلى ما كنت عليه من الجبن .
وكان من العبث أن أحاول الخروج من الباب .. فقد أحكم أخى غلقه ، وكانت أية محاولة أبذلها ستثير ضجة تنبه أهل الدار .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى النزول من النافذة .

النزول من النافذة ؟! .. أنا أفكر فى النزول من نافذة الحجرة الكائنة فى الدور الثانى ؟.

ولم لا ؟! .. هذا شيء كان يتعذر علّى عمله فيما مضى . أما الآن .. وأنا الرجل الشجاع .. فلا أظنه بالمتعذر علّى النزول من نافذة الدور التاسع .
وهكذا لم تكد تمضى برهة قصيرة على خروج أخى حتى كنت قد امتطيت النافذة .. كأنى « طرزان » وبدأت أهبط متسلقا عمود الشرفة أسفل الحجرة متكئا بيدى على كورنيش يحيط بالعمود ، ولم أكن أشك أن المسألة ستنتهى على خير حال ، وأنى سأصل إلى الأرض سليما .. حتى بدأ الكورنيش يتهاوى تحت يدي فإذا بيدى تفلت ، وإذا بى أقطع بقية الطريق إلى الأرض فى لمح البصر .
سقطت على الأرض ، وكانت السقطة — سليمة — بإذن الله ، ولم يحدث لى منها إلا التواء بسيط .. فى القدم ، سبب لى بعض العرج .. وخرجت من الدار متسللا وأنا — أذك — بقدمى .

ولم أكّد أغادر الباب .. حتى وجدتها ؟!

من ؟ هى .. هى بعينها أو بعينها وشفتها ونهديها .. وساقها ؟ هى جارتى .. أو جارة الوادى .. أو جارة السوء ، التى طالما أقضت مضجعى وألمت عواطفى وأهاجت مشاعرى .

جارتى التى لا ترحم .. جارتى التى طالما هتفت بها : يا جارتى لو تعلمين بخالى .. جارتى التى أعلنتها علّى حربا شعواء .. ونصبت لى من عينها مدفعى

برن .. سرعى الطلقات .. لا أكاد أقف فى النافذة حتى ينهال على منها وابل من النظرات شديدة الفتك محكمة التصويب لا ترضى بغير القلب هدفها .. أما شفتاها فقد جعلت لى منهما قاذفات للهب .. شفتان حارتان ملتهبتان .. يحس لهما من بعد .. ما نظرت إليهما إلا وأحسست بلسعة ، وكأنى بهما لو مستهما قطرة ماء — لطشطشت — وتبخرت أو مستهما شفاه أخرى — لبقبت — واحترقت .

أما صدرها فقد ركبت به قنابلها الشديدة الانفجار .. قبلتين قد رفعت عنهما طابة الأمان .. فهما عرضة للانفجار فى أى لحظة لا باللمس .. بل بمجرد النظر .

أما الساقان فقد كانتا من نوع ذرى لم يكشف عنه بعد ، ولا جرب أثره ، ولكن مجرد التلويح به .. كان كافياً للانهيـار والتسليم .

لقد وجدتـها أمامى .. جارتى المسلحة .. التى طال هجومها على .. واشتد حصارها حولى وأنا صافد أمامها .. لم يندلج حصن .. ولا دكت لى قلاع .. أدافع وأقاوم وأصد الهجمة تلو الهجمة .. مستعيناً فى دفاعى بشيء واحد هو الذى أعاننى على المقاومة ، وهى لى الدفاع .. شيء واحد هو الذى صد عنى كل تلك الغارات والهجمات .

أى شيء .. ذلك الذى أعاننى وهى لى المقاومة ؟ الضمير ؟ أبداً .. فالضمير شيء لا يستيقظ إلا بعد أن تقع الواقعة وتم الهزيمة .. فيبدأ وخزه وتأنيبه الذى لا جدوى فيه ولا فائدة منه .

حب الفضيلة ؟ لا تكونوا سخفاء .. فتذكروا أشياء وهمة لا وجود لها فى عالم الحقيقة .. واذكروا قول الشاعر :

مررت على الفضيلة وهى تبكى

فقلت علام تنتحب الفتاة ؟

فقلت كيف لا أبكى وأهلى

جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

إذن أى شىء ذلك الذى أعانى على المقاومة ؟ والدفاع ؟ حتى لا أسقط
متداعياً أمام جارقى المسلحة .

إنه الجبن !!

أى والله الجبن !! لا تدهشوا ، ولا تنكروا على قولى .. فكلنا ذلك
الرجل .

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره .. إن أفضل خلق الله أجبنهم .
كيف ؟ .. الناس من حيث رغبهم فى النساء نوعان .. نوع زاهد فاضل ،
ونوع مستهتر مهتك .

والنوع الفاضل نوعان .. نوع فاضل حقاً ، ونوع مخادع يعرف كيف يستر
آثامه فيبدو أمام الناس فاضلاً .. وهذا النوع الأخير يستوى مع المستهتر
المتهتك ..بقى أمامنا النوع الزاهد الفاضل حقاً .. ما هى علة زهده وفضيلته ؟ .
أمر واحد .. هو جبنه وخوفه من أن يفتضح أمره .. أترى لو أتيت لأحد من
هؤلاء الزاهدين الأفاضل فرصة أن يتمتع نفسه بإحدى حوريات الجنان وسهلت
له المسألة بحيث لا يفضح أمره ولا يعود عليه منها أى ضرر أو عاقبة .. هل تراه
يقاوم أو يتورع ؟!

لقد كانت جارقى العزيزة التى يجرى فى عروقها ماء الشياطين تهاجمنى بلا رفق
ولا هوادة .. وكنت دائماً أتقى هجومها بدرع حصينة من الجبن .
أقف فى النافذة .. فأجدها على أهبة الهجوم ، ويبدأ هجومها دائماً بتخلع
القميص .. ثم يستمر بعد ذلك بطريقتين : الطريقة الأولى الجمباز ، والثانية
طريقة القراءة ..

أما الأولى .. فالجارية العزيزة اللذيذة .. لا تكاد تخلع القميص .. حتى
تتوارى وراء « برفان » قصير لا يبدو منه سوى رأسها وكفها .. ثم تنهك فى

خلع بقية ملابسها وهي تنعم على بين آونة وأخرى بابتسامة تبيل حرارتي وتهديء من ثائرتي .

وبعد لحظات تخرج إلي وقد ارتدت — شورت — وبلوزة حرير .
وتبدأ الجارة بعد ذلك في اللعب والقفز والانحناء والالتواء .. مسلطة على ما لديها من أسلحة وقنابل ومدافع .

أما الطريقة الثانية .. طريقة القراءة .. فهي لا تكاد تخلع فستانها حتى تستلقي على الفراش وتأخذ في القراءة ، وهي في قراءتها لا تقرأ كبقية عباد الله .. بل تتقلب وتتولى وتثنى وتمطى ، ثم تلقي بالكتاب فترة لتمسك بقطعة صغيرة تحتضنها وتقبلها .

ولا أجد أنا في النهاية خيراً من الانسحاب من النافذة عائداً إلى قواعدي سالماً أو غير سالم .

كانت الجارة ولا شك تستدعيني ، ولم يكن هناك أحب إلي من أن أسلم إليها نفسي رافعاً الراية البيضاء ، ولو لم يكن بنفسى رغبة فيها وتشوق إليها لأغلقت النافذة وكفيت نفسي شر القتال ، ولما تركت رابضاً وراء النافذة أصلي نيران العيون وهب الشفاه .

كنت أقاوم بالجبن .. كنت أقول لنفسى : إن هذه مسألة خطيرة ، وإننى رجل متزوج ، وإن من العبث أن أعلق نفسى بمتعة تحيطها الأشواك ، وأنه قد يراى فى رفقة الجارة أحد معارف السوء — وما أكثرهم فى مثل هذه الظروف — فبلغ زوجتى ، أو قد يراى أحد الجيران فينشر أمرنا ثم ما النهاية ؟ إما متعة زائلة ، تنتهى بالملل ، وإما علاقة دائمة وفيها شر مستطير .. لا .. لا .. إن من الخير .. أن أتقى شرها وأنأى بنفسى عنها .

وهكذا كان الجبن . ، وخشية العواقب تلبسنى درعاً من الفضيلة .

أما اليوم ، فقد ذهب الجبن ، وتبددت من نفسى مخشية العواقب ، ومهلوت تلك الدرع الزائفة من الفضيلة ، فماذا أفعل ؟؟؟

(لُرض النفاق)

كانت تقف أمامي في الشرفة وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأبيض ذاك جابونيز
كشف عن ذراعها وعن جزء كبيره حوله، وقد تهدل شعرها وانساب على كتفها
وبرز صدرها حتى فسرت كل قطعة به .

ونظرت إلى الجارة الفاتنة وابتسمت ، وسرعان ما تحولت ابتسامتها إلى
قهقهة عندما رأتني — أذك — بقدمي ثم أشارت إلى بقلة من أطراف أصابعها .
ولو كنت في حالي الطبيعية لمولت في مشيتي هارباً خشية عيون الجيران
والسنتهم .. ولكني ، والشجاعة تملأ نفسي ، لم يسعني إلا أن أرد على تحيتها
بأحسن منها ، وأرسلت لها قبلة طرقت في الهواء .

ودهشت الحساء من تلك الشجاعة التي حطت على فجأة وهزت رأسها
متسائلة كأنها تسألني : « إيه جراك » ؟ فأشرت بسباتي إلى رأسي ، وهزرت
أصابعي بحركة مستديرة قاصداً أن أقول لها : « جنتيني » !
وانطلقت منها ضحكة أخرى نزلت على برداً وسلاماً .. وأشارت بيدها
كأنها تقول « تفضل » .

مرة واحدة !! ترى كيف أستطيع أن أرفض دعوة الحساء بالتفضل !
ورفعت لها يدي إلى رأسي بمعنى « متشكر » .. ولكنها كررت الدعوة .
فرفعت سباتي وإبهامي — كأني أبرم بهما شواربي — وهزرت رأسي
متسائلاً : هل يوجد لديك رجل ؟ .. فهزت رأسها بالنفي .

وملاثنى النشوة .. ورأيتني أندفع نحو دارها ، لا يقف في طريقي جبن
ولا تقدير عاقبة ولا خشية نتيجة .. لقد استسلمت سريعاً أمام هجوم المرأة ..
وانهارت مقاومتي .. فرفعت الراية البيضاء .
لقد هزمتني شجاعتي شر هزيمة .

واندفعت إلى دار الحساء .. أعرج الساق .. وارم العين ممزق الثياب ، غير
آبه لما أنا عليه من — بهدلة — و — قلة قيمة — ولو كان لي بعض الجبن لتريثت
طويلاً قبل الاندفاع فما كنت أجسر قط أن أبدو أمام حسناء ، بهذه الهيمة المشينة

والشكل المزرى .

ولكن اشتياقي إلى الحسناء مضافاً إلى الجرأة المستحكمة في نفسى لم يتركألى
الفرصة أن أفكر فى شكلى أو فى ساقى العرجاء أو فى عيني الوارمة ، بل كان كل
همى هو اقتناص اللذة العابرة والفرصة السانحة متمثلاً بقول الشاعر :

وانهب من اللذات جهدك واعلمن .

أن القبور عديمة اللذات

علام الزهد والتقوى والورع ؟ أزهد على ظهر الأرض وفى باطنها ؟ أتقى فى
الحياة وفى الممات ؟

لا تضق همًا بأمس وغد

أمس ولى وغد لم يولد

ويلنا إن ضاع يومى من يدى .

عاطلاً من زينة اللهو وما

صقلت أطرافه شمس المدام

وهكذا ازدحمت فى رأسى كل فلسفة الخيام ، ووجدتنى بعد لحظة .. أصعد
سلم الدار .. وأقف أمام الحسناء وجهًا لوجه .

من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل الفاضل الزاهد .. الجبان .. الرعديد ، أقتحم
دار الحسناء ، وأجلس وإياها فى حجرة واحدة ، وقد كان أقصى ما أستطيع فعله
هو استراق النظر من النافذة !

وجلست وإياها وقد تلاصق جسداًنا وسرى منهما تيار أشبه بالتيار
الكهربائى ... وبدأت أملئ البصر منها من قرب ، وأحقق فى الأسلحة التى ظلمنا
صويتها إلئى وأصلتنى بنيرانها .

ورأيتنى مغالياً فى خشيتى منها ، ووجدت البعد والحرمان قد بالغاً فى تأثيرها ،
وأضفياً عليها روعة .

لا جدال فى أن المرأة كانت جميلة ، ولكنها ليست بذلك الإفراط الذى كنت أتوقعه منها .

إن شفيتها أو قاذفات اللهب .. لم يكونا كما خيل لى من السخونة والحرارة .. أو على الأصح كانت سخونتهما مبعثها لصبغ الأحمر الذى رسمهما بإتقان ، وهى سخونة .. باردة زائفة .. الفرق بينها وبين سخونة الشفاه الحقة .. كالفرق بين صورة اللهب ، واللهب نفسه .

وأبصرت مدفعى « البرن » من قرب .. فإذا بطلقاتهما « فشك » مجرد طرقة فى الهواء ، ولا إصابة .. وإذا بالرميل يبدو واضحاً فى جفونهما .

لقد وجدت المرأة المسلحة .. أسلحتها بعيدة المرمى .. إلا على بعد ، ولكنى لا أنكر أنى كنت أتحرق شوقاً إليها ورغبة فيها ، فهى كما قلت امرأة حسناء .. عارية الأذرع ، متهدلة الشعر ، ناضجة الجسد ، وأهم من هذا كله .. ليست زوجتى .

قد جمعتى وإياها حجرة واحدة .. ولم يكن الشيطان ثالثاً .. لأنه كان أحدنا .

وبدأنا الحديث ناعماً رقيقاً ، وكانت الشيطانة — خفيفة الدم — فسرعان ما رفعت الكلفة بيننا .. وأحطت الحسناء بذراعى ، وضممتها إلى صدرى .. وأحسست بجسدها ليّناً دافئاً ، وتملكتنى نشوة جارفة .. وعجبت لنفسى كيف استطعت الصبر طوال تلك المدة التى طالما استدعتنى الفاتنة خلالها ، وكيف وقف الجبن امامى سداً منيعاً يصدنى عنها ؟

ولم تمض لحظة حتى التقت منا الشفاه ، ووصل إلى أذن همساتها الرقيقة ، وأصوات أخرى آتية من بعيد .

أصوات ما أبعداها عن همسات .. أصوات جعلتها إلى أذن نافذة الحجرة المقابلة .. حجرتى أنا .

أجل . لقد عاد أهل الدار إلى حجرتى ليطمئنوا على بعد أن أنبأهم الأخ العزيز بخبر جنونى ، فوجدوا أننى قد هربت من النافذة .

وأصخت السمع .. مرهقاً أذنى ، وكانت شفتائى ما زالتنا على شفتى
الحسناء ، واستطعت أن أميز بين الأصوات بكاء امرأتى ، وصراخ حماتى ، وهى
تنبيههم أنها أول من اكتشف مسألة جنونى عندما تهجمت عليها وهى تضرب
الخادمة .

ومر بذهنى خاطر طارئ .. خاطر بسيط جداً .. ومع ذلك جعلنى أرتحف
رغم كل ما فى من شجاعة 11

ترى ماذا يحدث لو فتحت نافذة الحجرة التى أجلس فيها والتي تواجه نافذتى
مباشرة ؟ ماذا يحدث لو أزيل هذا الحاجز الخشبي الرقيق .. فوقع بصر أهل الدار
على ، وقد احتضنت الجارة العزيزة .. وألصقت شفتى بشفتيها ، ورحت وإياها
فى نشوة من الهوى 12

أنا رجل شجاع .. ومفعول جرعة الشجاعة أكيد فعال .. ولست أشك أنى
أستطيع بفضلله أن أجوض أحمى المعارك ، والأقى أشد الأهوال .. ولكن شيئاً
واحداً هو الذى لا أستطيع مواجهته ولا حتى تصوره .. وهو أن يقع على بصر
امرأتى وحماتى .. وأنا فى هذا الوضع العجيب .

أجل .. لقد نزلت على أصواتهم كالصواعق . وأحسست منها برودة سرت
فى جسدى .. أضاعت كل ما أكسبتنى الحسناء من حرارة ونشوة ..
وجدتني — أطلع — شفتى على شفتيها كأنى أطلعها على ضريح أحد الأولياء ..
وأحسست منى الحسناء شروداً وبروداً .. فهمست متسائلة : « مالك » ؟
وأجبتها ببساطة ، وأنا أسحب شفتى من شفتيها .
— لا شيء .

ثم بدأت أسحب جسدى ببطء وأبتعد عنها شيئاً فشيئاً .. وهمست إليها :
— عن إذنك .. خمسة .

وهزت رأسها متسائلة فى دهش :
— إلى أين ؟

ورفعت يدي إلى فمي وعدت أهس :

— أشرب .

— سأحضر لك كوبًا من الماء .

ولكنني هزوت رأسي بالنفي .. فتضاحكت .. وقالت مازحة :

— ويسكى صودا ؟

— لا .

— ويسكى سك ؟

— لا .. أريد جين سك .. جين مركز .

ثم أدريت ظهري وانطلقت أعدو بساقى العرجاء .. وجاوزت الباب ، وهبطت الدرج كأني قذيفة مندفعة ، تاركًا الحسنة تضرب كفا بكف .

وقد تملكها منى ذهول شديد .

وانطلقت في الطريق غير ملتفت بمنة ولا يسرة ، وقد استقر في الرأي على أمر واحد .. وهو الوصول إلى تاجر النحاس بأقصى سرعة .. قبل أن يصادفني إنسان وقبل أن تقودني شجاعتي إلى ما لا قبل لي به .

وهكذا أخذت أعدو حاملًا شجاعتي ، حتى وصلت أخيرًا إلى الحانوت المنشود ، حانوت الأخلاق .. فوجدت التاجر الكهل ما زال في جلسته كما هو حتى ، لكأني لم أفارقه لحظة ، وارتعيت أمامه على أحد الشوالات مبهور الأنفاس ، منهوك الأعضاء ، وهتفت به :

— أغثنى .. أدركني .

وقطب الرجل جبينه وتملكته دهشة وهز رأسه متسائلًا :

— ما بك ؟

— شجاعة .. ضحية من ضحايا الشجاعة .

— ولكنك لم يمض عليك سوى يوم واحد ، وما زال أمامك تسعة أيام :

— هذه هي المصيبة .. تصوّر يا سيدي .. يوم واحد من الشجاعة قد فعل لي

ما ترى .. عرج وعور وجنون ورففت من الشغل .. ومن يدري ربما رفت من البيت أيضًا ؟ فقد يكون أحد من أهل الخير رآني وأنا أدخل دار الحساء فيبلغ امرأتي .. تصوري يا سيدى .. هذا ما فعله يوم واحد . فما بالك بالتسعة الباقية ؟ أرجوك يا سيدى .. أغتنى .

ورأيت الرجل يهز رأسه آسفا :

— هذا ما كنت أتوقعه .. لقد نصحتك فلم تقبل النصح .. وأيت إلا أن تركب رأسك فتجرب الشجاعة .. ما ذنبى أنا وقد حذرتك فضربت بتحذيرى عرض الحائط .. إني لست مسئولاً عما حدث لك .. إن كل المسئولية واقعة على عاتقك .

— لا يهمنى كثيراً أن تكون أنت المسئول أم أنا .. إن كل ما أريد هو علاج سريع لهذه الشجاعة .. إني أتوسل إليك .. إني أرجوك .
— وماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— جرعة جبن .. تكفى للتسعة الأيام التالية .. جرعة جبن تتعادل مع الشجاعة فتجعل منى إنساناً طبيعياً أرجوك .. أنا فى عرضك .

— ولكنى قلت إن هذا النوع من البضاعة قد نفذ ، ولم يبق لدى منه ذرة واحدة .. لا جبن ولا نفاق ولا كذب ولا رياء ، ولا لؤم ولا خسة ، هذه أصناف قد استنفدت كلها .. فماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— ابحث يا سيدى .. ابحث .. نقب وراء الشوالات وخلف الأدراج ، اكس أرض الحانوت فقد يكون بها أثر جبن من بقايا الماضى .. من يدري ؟ ابحث يا سيدى أرجوك إنها مسألة حياة أو موت .

وبدأ صبر الرجل ينفد ، وقال فى شيء من الحدة :

— قلت لك إنه ليس لدى منه ذرة واحدة ، وأنا لا أقول إلا ما أعنى قوله .. أنا أعرف حانوتي .. شبرا .. شبرا وأعرف كل ما به ، فوفر على نفسك مشقة الرجاء الذى لا طائل تحته .

وتملكنى من قول الرجل يأس شديد ، وأطرقت فى حزن واستسلام ..
وسادت فترة صمت طويلة ، رفعت رأسى وقلت للرجل مستعطفًا .

— إذا لم يكن لى علاج عندك لهذه الشجاعة .. هل تسمح لى أن أمكث
عندك التسعة الأيام الباقية .. حتى تنتهى بسلام ؟

— على الرحب والسعة .. إن الحانوت حانوتك .

وصمت الرجل برهة ثم رفع حاجبيه وأردف قائلا :

— لقد خطرت لى فكرة .. فيها لك نوع من العلاج .

وسألته بلهفة :

— ما هى ؟

— إننا نستطيع شفاء الشجاعة التى بك ، ولكنه ليس شفاء بمعنى الكلمة ،
بل هو استبدال الشجاعة بشىء آخر .. فإنك تستطيع أن تختار لك نوعًا آخر من
الأخلاق .. فتأخذ منه جرعة تسعة أيام .. فيحل فى نفسك محل الشجاعة ..
ما رأيك ؟

وأخذت أفكر فى المسألة ، وأستعرض جميع الأنواع البائرة التى حواها
الحانوت .. الإخلاص والصدق والوفاء والأمانة والمروءة والكرم .
إن فكرة الرجل صائبة .. فلا أظن هناك أخطر من الشجاعة ولا أشد أثرًا ،
ولا شك أنى أستطيع أن أنتقى من بين هذه الأصناف صنفًا محتملًا .. يستطيع
المرء أن يصبر على مكارهه ويحتمل أضراره خلال التسعة الأيام الباقية ..
وأحسست كأنما قد انزاح عن كاهلى عبء ثقيل وقلت للرجل :

— هذه فكرة صائبة .. إن أى شىء يمكن احتماله .. غير الشجاعة .

وألقيت نظرة أخيرة على الشوالات .. وأخذت أقلب البصر فيها حتى استقر
على واحد منها .. خيل لى أنه أخفها ضررًا .. فقلت للرجل :

— أعطنى جرعة من هذا .

— تقصد شوال المروءة ؟

— أجل .. ما رأيك ؟

— لا بأس بها ..

وبدأ الرجل يعيئ لي في قرطاس مروءة تسعة أيام .

ثم أعطاني إياه ومد يده مودعًا ، ولكنني عدت أقول له مستعطفًا :

— لي رجاء أخير .

— ما هو ؟

— هل تسمح لي بتناول جرعة المروءة هنا .. إلى أخشى على نفسي من

العودة ، وأنا رجل شجاع .. إلى أخشى أن ألقى أهل الدار وما زال لي أثر من

شجاعة .. ثم من يدري .. ربما تدفعني شجاعتى في الطريق إلى أن ألقى قرطاس

المروءة في الأرض ، وأعود إلى الدار رجلاً شجاعاً .

وهز الرجل رأسه بالموافقة .. ثم مد يده فأخرج كوبًا وجرعة ماء وأذاب فيه

قرطاس المروءة ثم أعطاني الكوب فتناولت الجرعة .

وهكذا شفيت من الشجاعة لأصاب بالمروءة .

ترى أكنت مستجيرًا من الرمضاء بالنار ؟

من يدري ١١٩

(٧)

ذو مروءة

يا أهل القذارة .. رحاكم .. إن النظافة من
الإيمان .. وهي نوع من الإيمان لا يكلفكم
كثيراً ولا قليلاً .. لا يكلفكم أكثر من أن
تعودوا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتأسوا
قليلاً فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم
فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا
قذرين .. ولكن بقدر .

لم تكد جرعة المروءة تستقر في جوفى حتى أحسست بعضلاتي التي شدتها
جرعة الشجاعة تتراخى وتنكمش ، وخيل إلي أن جسدي قد رق ، وأن نفسي
تسامى ومشاعري ترهف .

لقد أشاعت جرعة المروءة في نفسي إحساساً عجيباً بالحب والحنان والرفقة
والعطف ، وملأت قلبي برغبة جارفة في مواساة الناس وتخفيف أحزانهم
وتضميد جراحهم .

فكان أول ما فعلت هو أن نظرت إلى التاجر المسكين فأحسست بالرتاء له
والعطف عليه .. يا للرجل البائس الشقي ! يا لطول ما أضته الوحدة وآلمته
الوحشة والفراغ !.. يا لطول ما قبع وسط بضاعته الخاسرة الكاسدة .. بضاعته
الطيبة في عصر ملأ أسواقه الفساد ! بضاعته الخيرة في زمن غداة أهله الشر
والسوء .

إيه يا تاجر الحق في أرض النفاق ! يا بائع الصديق في دنيا الرياء يا مُهدى
الشجاعة لمعشر الجبناء ! والإخلاص لجمع ضاع بينهم الحق وعز الوفاء ! لشد
ما آلمتني فجيعتك وأوجعتني خسارتك .

واقتربت من الكهل الطيب فضمته إلى في عطف وحنان وقلت له في لهجة تفيض ألماً وحزناً :

— لشد ما عانيت من وحدتك يا سيدى وقاسيت ، إلى لا أطيق أن أتركك هكذا وحيداً محزوناً ، سأجعل من نفسى رفيقاً لك يؤنس وحشتك ويشاركك في ضرائك .. أجل يا سيدى لقد عزمت أن أقضى معك بقية عمرى .
ونظر إلى الرجل بطرف عينية وقال في هدوء :

— أشكر لك مروءتك الطارئة ، ولكننى لست في حاجة إلى من يعينى فالعون من عند الله ، ولقد تعودت طول الوحشة حتى ألقتها ، ولم أعد أحس منها بضيق أو ملل .

وصمت برهة ، ثم أردف قائلاً :

— خير لى أن أذكرك بشيء يجب أن تضعه نصب عينيك ، إياك أن تعطي وعداً يربطك بقية العمر ، فلا لزوم لأن تعدنى مثلاً بأنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمرك ، بل الأضمن أن تقول : إنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمر مروءتك ، البالغة تسعة أيام ، هذا هو المدى الذى تستطيع أن تلقى فيه الوعود .. تسعة أيام فقط ، أما بعد ذلك ، بعد أن تبدد من نفسك المروءة ، وتصيح كما كنت خلواً منها فلا ترتبط بوعد أبداً لأنك لا شك حاث به .
وهمت بأن أجادل الرجل وأخبره أن هذه المروءة طبيعية ، وأنها تستمر في نفسى إلى آخر العمر ، وأنى سأتى إليه إذا ما تبددت لأتناول منها جرعة أخرى لأعيدها إلى نفسى ، لأنى ما أحسست قط بلذة كلذة المروءة ، لذة صفاء النفس والرغبة في فعل الخير .

ولكن الرجل أسكننى بإشارة من يده وقاطعنى قائلاً :

— أعرف كل ما ستقول ، لقد جربت أثرها وأحسست بكل ما أحسست

به .. اذهب يا بنى ، أعانك الله عليها !

ونظرت إلى الرجل في دهش وسألت منه أن يرفض العون الذى عرضته

عليه ، وأنه يأبى أن أبقى إلى جواره لأعينه على احتمال وحدته ، ولم أجد بداً من الانصراف ، ولكنى قبل أن أنصرف خطر لي أنى أستطيع أن أعين الرجل بطريقة خفية ، لا تمكنه من رفضها .

إن الرجل لا شك فى حاجة إلى المال فهو على ما يبدو رقيق الحال لا يملك غير تلك الشوالات المكتظة بالبضاعة البائرة ، ويعلم الله كيف يحصل على معاشه فهو لا يقبل لبضاعته ثمنًا ، بل يؤجل الحساب ليوم الحساب ، وعلى ذلك فإن أى مبلغ أدسه له خفية بين الشوالات لا شك سيسر له حاله ويعينه على قضاء حاجته . وانتهرت فرصة غفلة من الرجل فأسرعت بإخراج محفظتى وأخرجت كل ما بها من نقود فدسستها بين الشوالات بحيث تظهر أطرافها ويسهل على الرجل رؤيتها ، ثم شددت يد الرجل شاكراً وانصرفت فى طريقى عائداً إلى الدار .

وهكذا كان أول ما فعلته بعد أن أصبحت رجلاً ذا مروءة ، هو أن تركت للرجل المسكين كل ما كان معى من نقود وسرت فى الطريق خاوى الوفاض لا أحمل مالا ولا همًا ولا حقًا ولا ضغينة .. لا شئ أبداً إلا أكداً من المروءة تشع من نفسى وتضئ جوائضى كأنها الفوسفور فى الظلمة الخالكة .

سرت فى الطريق متجهاً إلى البيت ، ولم أكد أقرب من الباب حتى صادفت كلباً قد تمدد على الأرض وتدل لسانه وأخذ يلهث من فرط العطش . أى عالم هذا الذى نعيش فيه ؟ عالم القسوة والغلظة والجمود !! هذا الكلب المسكين يكاد يموت من فرط العطش ، والناس تمر به دون أن يفكر واحد منهم فى أن يمدينه إليه بجرعة ماء .

أيها العزيز ، أبشر . لقد صادفت ذا مروءة ، سيروى غلتك بعد طول ظمأ . واقتربت من الكلب وربت عليه برفق وأشرت إليه أن يتبعنى . ودخلت الدار والكلب معى ، ولم يكد أنخى يلمحنى من النافذة حتى صاح فرحاً وهتف بمن فى الدار :

— لقد عاد .

ثم أطل على من النافذة قائلاً في رفق :

— أين كنت ؟ لقد كدنا نحن خوفاً عليك .

ولم أجب بل أشرت إليه رافعاً يدي إلى فمي حتى يحضر للكلب جرعة ماء ..

ولكن الغبي لم يفهم .. وسمعته يجيب بمنتهى الأدب والرفقة :

— أجل .. أجل .. لقد أحضرته لك من أفخر الأنواع وأشدّها تأثيراً ، لقد

صدق ظنك ، إذ رفض الرجل في بادئ الأمر أن يعطيني إياه زاعماً أنه قد نفذ ،

ولكنني عرفت كيف أؤثر عليه وأنتزعه منه .

ولم أعرف ماذا يعني أخى بهذه — الخطرفة — فهزئت له رأسي مستفهماً عما

يقول ، فأجاب :

— لقد قال لي إن لديه عينة من نوع جديد ، نوع مركّز جداً ، تكفي جرعة

منه لأن تجعل عنترة بن شداد أجبن خلق الله .. إنه أحسن أنواع الجبن الموجودة

في السوق .

وفهمت ما يعنيه الأخ الغبي .. وأدركت أنه ما زال يعتقد أنني مجنون .. وأنه

يرى أن يقنعني بأنه قد أحضر إلي جرعة الجبن التي طلبتها .. حتى يهدئ من

روعي ويطيب خاطري .

وصحّت به ضاحكاً :

— أي جبن هذا الذي أحضرته أيها الحمار ؟ لا شك أن بعقلك لوثة .. إلى

أريد جرعة ماء أسقى بها هذا الكلب الظمآن .

وبدت الدهشة على وجهه وأجاب مرتبكاً :

— حالا .. سأحضر لك الماء .

واختفى من النافذة وسمعته يقول لمن بالداخل :

— الظاهر أنه قد شفى .. لقد كان ما به نوبة طارئة .

وبعد لحظة وجدته قد هبط إلي حاملاً في يده كوزاً مملوءاً بالماء وتقدم به إلى

الكلب الذى أخذ يعب ما به عبا .

وارتوى الكلب .. ومد فمه ففعل بأخى .. ما فعل الثعبان بصاحبه حين أحس بالدفء والشبع .. أجل .. لقد عض أخى .
كان الكلب مسعورًا ، وانطلق فى الدار يشبع أهلها نهشًا وعضًا حتى استطعن أخيرًا أن نوقفه ، ولكن — بعد خراب مالطة — فلقد عض ما لا يقل عن سبعة أشخاص .

ولم تمض لحظة .. حتى كان الأهل جميعًا نزلًا مستشفى الكلب 11
لم ينبج منهم إلا واحد .. هو أنا .. صاحب المصيبة وصاحب المروءة .
وتملكنى الحزن ، وملأنى التشاؤم ، فقد كرهت أن يكون أول قصيدتى كفرًا ، وأن أبدأ مروءتى بإرسال أهلى جميعًا إلى مستشفى الكلب ، ولكنى أخذت أعزى النفس بأن كل ما حدث لم يعد أن يكون من فعل القضاء والقدر ، وأنى لو لم أحضر أنا الكلب ، لاستضاف هو نفسه ، وحضر إلى الدار دون حاجة إلى دعوة ، وأن الله ما دام قد كتب على الأهل رحلة إلى مستشفى الكلب فلن يقف فى طريقهم مخلوق ، ولو لم يعضهم الكلب لعضوا أنفسهم .
وهكذا سريت عن نفسى وأقنعتنا بأن المروءة لا دخل لها فى كل ما حدث ، وعزمت أن أحتمل لوم الأهل وتقريعهم بصدر رحب وحلم شديد ، ولم يغضبني قط أن أسمع من حماقى — أنى طول عمرى جلاب المصايب — وأنها لم تر من ورائى إلا كل النوازل والكوارث . وأنى لاشك قد — سلطت — الكلب عليها و « انشك » كل الأهل الأعزاء حقنة كلب « على الماشى » وهم يستنزلون على غضب الله ويستمطرونه اللعنات .

ولم أجد خيرًا من أن أترك الدار وأنأى بنفسى عن أهلى برهة حتى تخف حدة غضبهم .

وغيرت ثيابى ، واغتسلت ، وتسليت من البيت .. بعد أن أعدت ملء المحفظة الخاوية بالنقود .

سرت فى طريقى ، وقد تملكنى إحساس جارف بالعطف على الناس والرائء

لهم بلا أدنى سبب ، وتمنيت لو وهب لى الله عدة أجساد أنشرها بينهم .. أحمل عنهم أعباءهم وأخفف مصائبهم .. وضايقتنى أن أجد نفسى عاجزاً عما أود فعله لهم ، فقد كانت قدرتى — كإنسان — محدودة .

ولكننى هدأت نفسى وطبيت خاطرى قائلاً : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وأنه ليس عالى إلا أن أفعل كل ما فى طاقتى .

وبدأت أفكر فى أنجع الوسائل لتخفيف ويلات الناس ، فاستقر الرأى على أن أذهب فوراً إلى أحد الأحياء البلدية . فلا شك أنى واجد فيها مرتعاً لمروءتى ، وأنى سأحصل على مورد خصيب للهموم والبلايا ، فى أزقتها وحواريها وحول أضرحة الأولياء فيها .

وبدأت أستعرض لنفسى الأحياء إياها .. الزاخرة بالمصائب .. الراضحة تحت عبء الأمراض والأقذار . بولاق ، القللى ، زينهم ، الحسينية ، عشت الترجمان ، السيدة ، الحسين .

ولم أجد هناك معنى للمقارنة فقد كانت كلها فى الهوى سوا .. وأخيراً اخترت « القللى » .. فقد وجدت أنى أستطيع الوصول إليه بسهولة وكنت قريب العهد بزيارته ، فقد ذهبت إلى إحدى ورش النجارة هناك ، وما زالت صورته مطبوعة فى ذاكرتى .

لم يكن الوصول إلى القللى بالأمر الشاق ، فقد كان فى قلب القاهرة ، ولم يكن عالى إلا أن أركب أى ترام أو أتوبيس يمر بشارع الملكة ، ثم أنزل قرب الإسعاف عند الكنيسة ثم أعبى الشارع الجديد المسمى بشارع « الجلاء » ، وأدخل فى أحد الجحور المفضية إليه فأجد نفسى فى القللى ، وما أدراك ما القللى ١٩

شارع ترامت فيه الخضرة ذات اليمين وذات اليسار ، ولست أقصد بالخضرة خضرة الأشجار .. بل خضرة عروق الملوخية .

خطر لى وأنا أجدول فى الشارع أن الأسماء التى يكتنى بها عن مصر .. كأرض

الفراعنة وبلاد الأهرام ، ينقصها اسم قد يكون أصدقها وأدقها تعبيرًا ، وهو أمة الملوخية .

أجل والله إنها أمة الملوخية ، على جوانب الطريق أكوام من القمامات أظهر ما فيها عروق الملوخية ، والعربات المتجولة منتشرة على الطريق أظهر ما فيها — ورق العنب يا ملوخية — وفي كل دار لا يصل إلى أنفك إلا رائحة واحدة .. تلبية الملوخية ومن كل نافذة لا تصب على رعوس المارة إلا حبل الملوخية ، حيا الله الملوخية ، وأمة الملوخية .

سرت في القللى على قدمي طبعًا .. فالطريق أو السرداب لا يكاد يسمح بالمرور إلا على القدمين فهو طريق بينه وبين المدينة مائة عام .. طريق أغلب الظن أنه يتمتع باستقلال تام ، وفي الوقت نفسه بالموت الزؤام .

أما عن تمتعه بالاستقلال التام .. فأمر لا يحتاج إلى مناقشة فلا أظن للحكومة سلطانًا على المكان أو أهل المكان ، وكيف يكون لها سلطان على شيء لا تكاد تحس بوجوده .. ما للحكومة وهذه الأمكنة العفنة المنتنة ؟! ما لها وهذه القاذورات المتراكمة ! ما لها وهذه السرايب الضيقة التى لا تتسع لمرور عرباتها الفخمة الطويلة العريضة ! ما لها تقض مضجعها وتشغل بالها بهؤلاء — الرعاع الحوش — ومساكنهم وطرقاتهم ! ماذا يعنىها من القللى ما دام طريق الملكة بفخامته وأبهته قد ستر أطلاله وأخفى خرائبه ، فما عاد منظرها الكريه يؤذى العيون القريرة ، وما عادت رائحتها التنتنة تزكم الأنوف التى تعودت على الاتكسون ، والسوار دى بارى ؟! ما لوزير الأشغال ومدير التنظيم ومدير النظافة .. و .. و .. ! ما لكل هؤلاء وهذه الجحور المظلمة والكهوف الخربة ، ما دامت — بوابير الزلط — والعمال .. دائبين مجدين في تنسيق الزعفران وتبليط الخليفة المأمون والدقي والزمالك !! ما لهم وللجحور التى لا تبصرها إلا عين هؤلاء التعسين المساكين !! ما لهم وللجحور التى ما دار بخلدكم قط أنها كائنة منهم على قيد خطوات وهم يطوون بعرباتهم الطرقات الفخمة

الواسعة ١.

ترى لو أننا حكمنا على أحد هؤلاء بالسكنى فى جحور القللى أو بولاق أو زينهم أو الماوردى .. ماذا كان يصيب الحى التعس ١؟
تصوروا معى لو أننا أمسكنا بوزير الأشغال وأجبرناه إجباراً على السكنى فى القللى . ماذا يمكن أن يحدث ١؟

أول ما يحدث هو أن يستدعى الوزير الوكيل ومدير التنظيم وغيرهما من المسؤولين ويسألهما فى حق ودهش كيف يقى حى كالقللى فى قلب القاهرة وهو على حالته تلك من القذارة والتانة ١؟
كأنه — لافض فوه — لم يكن يعيش فى القاهرة من قبل ، ولم يكن يعلم أن القللى .. وغيره من أمثاله .. كائنة فى قلب القاهرة .

وهنا يأمر الوزير المصلح فوراً بإصلاح الحى رفقا بأهله ، وحرصاً على صحتهم وراحتهم ، ولا تكاد تمر بضعة أيام حتى تجد العمل والإصلاح والهدم والإنشاء قد قام على قدم وساق ، وإذا بالقللى قد مسته يد ساحر ، كما مست من قبل أرضاً بوراً يملكها واحد من أصحاب السلطان فشقت فيها النزع والمصارف وأفاضت على ما حولها خيراً عميماً .

مرت بذهنى كل هذه الخواطر وأنا أسير فى السرداب الضيق .. أشق طريقى وسط كراسى الخوص التى فاضت بها المقاهى القائمة على الجانبين فرصت فى عرض الطريق .

وكان أول ما لفت نظرى فى الحى وأهله هو ما تجلى فيه من روعة الفن .. فن القذارة الرائع .

إن الحكومة لا شك مقصرة فى أمر هؤلاء التعسين ، ولا شك أيضاً أن ما بهم مرجعه الأول إلى الفقر الذى يكبلهم بأغلاله ، ولكن ما ضرهم لو ضغطوا على أنفسهم ، فحاولوا أن يكونوا من تلقاء أنفسهم أكثر نظافة ! ما ضرهم لو طلقوا

بالثلاثة فن القذارة ١؟

(أرض النفاق)

ولا تظنوا بقولى « فن القذارة » سخريه أو مبالغه .. فأبى والله جاد فى قولى كل الجد .. إذ لا شك فى أن المسأله فن .. وأن أى إنسان غير هؤلاء المتبحرين فى فن القذارة لا يمكنه أن يفعل مثل ما فعلوا ، ولا يمكنه أن يصل به الحال إلى مثل ما وصل حالهم ؟

وكيف لا تكون القذارة فناً .. وأنا أبصر هذه المرأة الفنانة وقد جلست على قارعة الطريق بجوار الجدار .. لا فارق هناك بين لون وجهها وملابسها والأرض .. فهى مثل لصدق قول أبى العلاء « أديم الأرض من هذه الأجساد » أو هذه الأجساد من أديم الأرض .. وفى حجرها تمدد وليدها .. أو قطعة أخرى من أديم الأرض ، وقد رمدت عيناه .. وحط الذباب على وجهه زرافات ووحدائاً ، وأمامها قفص قد رصت عليه بضع قطع من « نبوت الغفير » (وإن كنت أشك كثيراً فى أن نبوت الغفير يمثل هذه القذارة) وبضع قطع أخرى من الحلوى المختلفة الأحجام والألوان والتى قد وجد الذباب فيها مرتعاً آخر غير عيني الطفل ، وبجوار المرأة طفل آخر يحبو على قوائمه الأربع فيستقر به المقام على كوم من القمامة .. هو خليط من قشور الخضضر والأترية والماء العطن .. « والبطيخ البابت » ، ويفزع الذباب من وصول الصبى فيطير عن كوم القمامة ، ولكنه يتبين أن القادم صديق .. أو هو جزء حى من القمامة ، فيحيط رحاله مرة أخرى مرحباً بالطفل .

هذه المرأة .. لا شك فقيرة .. ولكن ما دخل فقرها ، فى هذا التفنن فى القذارة ؟! ماذا يكلفها أن تغتسل وتغسل طفلها ؟! ماذا يكلفها أن تبعد نفسها عن كوم القذارة ؟! ماذا يكلفها لو غطت حلواها (إذا كان لا بد لها من بيع الحلوى) بقطعة قماش نظيفة ؟! ماذا يكلفها لو أمسكت فى يدها منشفة رخيصة من القش تذب بها الذباب عن وجهها وعن طفلها ؟!

لن يكلفها كل ذلك إلا أمراً واحداً .. وهو إتلاف تابلوه القذارة الذى تفتنت فى عمله بالاشتراك مع زرافات الذباب وأكوام القمامة .. هذا التابلوه الحى

المتحرك .. سيذهب برونقه نظافتها ونظافة أولادها .. وتلك المنشئة التي ستمسكها ستحرق المخالفة القائمة بينها وبين الذباب .. فلا يعود إلى معاونتها في إبراز فنها .

وتابلوه آخر .. ذلك الرجل الذى وقف على ناصية أحد الأزقة وقد وضع أمامه « طبلية » رصت عليها « شقق البطيخ » وبدت « الطبلية » كأنها مصيدة ذباب ، وكأن شقق البطيخ ورق ذباب ، والرجل نفسه — أجاركم الله — تمثال للقذارة .. يتمخط ويصق بين ثائية وأخرى .. وقد لوثت يده بماء البطيخ الأسود — بعد خلطه بما تيسر من الأتربة — وحوله قد تناثر قشر البطيخ واللب .. وعلى مقربة منه جدار يقضى الناس حاجتهم بجواره فهو بمثابة (مبولة) تفوح منها رائحة الصنان .. وجواره نافذة تسكب منها امرأة من سطل في يدها ماء أسود قذرًا .

أليس هذا والله فئًا ؟ ماذا يكون فن القذارة أكثر من ذلك !!

يا أهل القذارة .. رحاكم .. إن النظافة من الإيمان .. وهى نوع من الإيمان لا يكلفكم كثيرًا ولا قليلًا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتعبدوه .. لا يكلفكم أكثر من أن تناسوا قليلًا فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا قذرين ، ولكن بقدر . لتجعلوا لكم يومًا فى الأسبوع تمتعون فيه أنفسكم بالقذارة . تتمرغون فى التراب ، وتطلقون أطفالكم فى أكوام القمامات ، وتسكبون من النوافذ ما شتم من الماء الأسن .. وتمتفلون فيه بتكريم الذباب والبق وكل أنواع الحشرات التى تعاونكم على التمتع بالقذارة . أما فى باقى الأيام فاغتسلوا واغسلوا أطفالكم ودوركم ونظفوا أزقتكم وادفئوا القمامة ، وحاربوا الذباب وغيره من حلفاء القذارة .. افعلوا ذلك .. جربوا النظافة .. فأنى أؤكد لكم .. أنها لن تكلفكم شيئًا ، وأنكم « ستستحلونها » وتطلقون القذارة .. بلا رجعة .

فإذا لم تفعلوا .. فأنى أهيب بالحكام .. أن يفرضوا عقوبة الجلد على عشاق

القذارة وفنائها .. وأن يجلدوكم حتى تستقيم قناتكم .. أو تموتوا .
فخير لكم .. أن يموت منكم البعض جلدًا من أن تموتوا كلكم من جرائم
القذارة .

سرت في الطريق .. أنقل البصر بين تابلوهات : القذارة ، والفقر ..
والمرض .. ونفسي تفيض عطفًا على أهل الحى .
وبودى أن أفعل شيئًا لأرفع عنهم ذلك البؤس الذى حط عليهم على أجد مخرجًا
للمروءة التى تصطبغ في نفسى .. حتى وقع بصرى على شحاذ قد انكمش
أسفل جدار .. ومد يده في صمت وسكون .. وبدت عليه المذلة والحاجة .
نظرت إلى الرجل .. فأحسست برئاء له شديد .
كان الرجل .. مقطوع الساق والذراع ، ولم يكدر أنى ، حتى تطلع إلى
ببصر متلهف .

وهمت بأن أضع يدى في جيبي لأعطيه شيئًا من النقود .
ولكننى تذكرت أن هؤلاء الشحاذين فئة مخادعة ، وأنهم يتخذون الشحاذة
حرفة .

وكان تذكرى .. ما قرأته في بعض الصحف عن الثروات التى يخلفها بعض
هؤلاء عقب موتهم .. يجعلنى دائمًا أحجم عن مد يد المساعدة إلى أى شحاذ .
ولكننى .. في هذه المرة — والمروءة تملأ جوانحى — وجدت نفسى أترث
أمام الرجل ، وأنعم الفكر برهة .
أليس من المحتمل .. أن يكون هذا الرجل بائسًا فقيرًا ، محتاجًا إلى المساعدة ،
وأنه ليس مخادعًا ، ولا محتالًا ؟

وهل يعنى ، مجرد أن يخلف بعض الشحاذين ثروة .. أنهم جميعًا .. من
أصحاب الثروات ، وأنهم جميعًا محتالون ؟ وإلى من نقدم يد الإحسان إذا كنا
سنمنعها عن كل سائل ؟

لا .. لا .. هذا فرض خاطئ .. يجب ألا نأخذ الكثرة بالقلّة .

يجب ألا نأخذ البريء بذنب المجرم .
يجب أن أمد يد المعونة إلى الرجل ، مهما كان الأمر .
واقتربت من الرجل ، فوجدته يقول لى بلهجة المتوسل :
« إننى لم أذق طعاماً منذ يومين !! »
ووجدتنى أهتف بنفسى « فرجت » .
أجل .. والله .. إنها « فرجت » !
لقد حل الرجل المشكل ، وأنتقدنى من حمقى وترددى .
إن الرجل قد وضع حاجته بما لا يقبل الشك .
إنه جائع .. لم يأكل منذ يومين ، وهكذا أستطيع أن أقدم له مساعدة عملية
« مضمونة الأثر » وذلك بإطعامه فعلاً !! فأكون بذلك قد أسدبت إليه
معروفاً ، وأنا ضامن أنه لم يخدعنى .
وهكذا استقر بى الرأى على أن أطعم الرجل .. أطعمه بنفسى .. لا .. أن
أعطيه نقوداً لكى يشتري بها طعاماً . حتى لا أعطيه الفرصة للاحتيال وحتى
أضد — إذا كان جائعاً حقاً — أن يأكل أكلة دسمة محترمة .
هذا هو المعروف ، وتلك هى المروءة .. معروف فى موضعه ، ومروءة
نتيجتها مضمونة مائة فى المائة .
ووقفت أمام الرجل ألقى عليه التحية :
— السلام عليكم يا حاج .
وأجاب الرجل بصوت متوسل ، ولهجة منكسرة :
— وعليكم السلام يا بنى ورحمة الله .
— أحقاً .. لم تأكل منذ يومين ؟
— من امبارح الصبح .. وأنا لم أذق لقمة .. أعطنى قرشاً لله .. أشتري به
شقة حاف .
— لا .. لا .. شقة حاف .. لا تنفع .. ولا تسمن .. ولا تغنى من

جوع !.. لا بد لك من غذاء كامل .. يرى عليك .. ويعرضك الأكلات التي ضاعت منك .

ونظر إلى الرجل في ذلك متوهماً أني أسخر منه ، وأجاب :
— يا سيدى .. شقة كفاية .. ربنا يعمر بيتك .

— ما رأيك في أن تتناول الغداء معى .. إني لم أتناول الغداء حتى الآن ويمكننا أن نتغدى سوياً .

ورأيت الرجل يرمقني بطرف عينيه بنظرة فاحصة .
ويدأله أني إما أبله مجنون .. أو ساخر متهم .

وأخيراً أجابنى :

— يا سيدى أنا رجل مسكين .. حرام عليك !!

— حرام على ! إني لآسخر ، ولا أمزح .. إني أتكلم جاداً .. وإني أصبر على دعوتك للغداء معى .. وماذا في ذلك ؟ هل هناك فارق بين عبيد الله ؟
وهكذا استطعت أن أقنع الرجل بصدق رغبتي . في أن يتناول الغداء معى ،
وحاول الرجل التهرب ، ولكنى أصررت .

وأخيراً .. نهض يتوكأ على عكازه ، وسار بجوارى .

وأخذت أفكر في أنسب الأماكن ، لتناول الغداء مع الشحاذ المحترم ، وكان أول ما خطر ببالى .. هو : أن أصطحبه إلى الدار . فقد كان التناقض بين منظرنا سيثير الدهشة واللغط في أى مطعم أطرقه وإياه .. فما تعود الناس .. أن ييصروا « أفنديا » محترماً مثل يدعو « شحاذاً » لتناول الغداء معه .

ولكن قليلاً من التفكير جعلنى أستبعد نهائياً فكرة الذهاب إلى البيت .. ترى ماذا يمكن أن يلقانى به الأهل لو ذهبت إليهم مصطحباً هذا الذى ينضح قذارة .. وطلبت منهم أن يجهزوا لنا الغداء ؟

ماذا يمكن أن يحدث لى منهم ؟ وعضة الكلب المسعور الذى استضافته من قبل ما زالت تحز في أجسادهم ،

لا .. لا .. إن من الحق أن أحاول اصطحابه إلى الدار .. فلا أظن الأهل يستطيعون الصبر على هذه المرة !

أين نذهب ؟ .. كيف نأكل ؟ .

نبتاع سندوتش بالطعمية والفول .. ونأكله ونحن سائران ؟

وفجأة لاحت لى لافطة ، وجدت فيها خير حل للمشكلة لافطة كسب عليها :

« المصمت الوطنى الوحيد » لصاحبه « الحاج عبد القادر عيد » .

وجدتها أخيراً .. حمداً لله !

هذا « المصمت » هو خير ما نتناول فيه الغداء .. فإن دخولنا فيه لن يشير

الدهشة ، فهو جامع حاو لكل من هب ودب .

عمم .. ولبد .. وطواقى .. وطرايش .. من كل صنف .. ومن كل نوع .

وأهم من هذا وذاك .. لقد كنت متشوقاً لأن آكل فقة كوارع بالثوم ..

وهكذا أستطيع أن أرضى نفسى ، وأرضى الرجل .. دون أن أخشى لومة لائم .

وسحبت الرجل من ذراعه السليمة .. ودلفت به إلى الداخل .. واحتلنا

منضدة فى أحد الأركان .

وصفقت ييدى منادياً المعلم .

ومضت برهة قبل أن يجيبني أحد ، فقد كان المكان يعج بالزبائن ، وكان

صبيان المحل فى حركة دائمة .

وجلست أنظر إلى ناحية « القزان » الذى قام مواجهها الباب ، وقد وقف

أمامه من لم أشك قط فى أنه « الحاج عبد القادر عيد » نفسه .. فقد كان بشواربه

المبرومة ، و « لاسته » الملفوفة بعناية حول رأسه .. و « الكبشة » فى يده يقلب

بها القزان .. كأنه قائد يتوسط أرض المعركة .. وقد أمسك فى يده عصا

المرشالية .

وكانت الأبخرة تنصاعد حول المعلم « عيد » كأنها دخان المدافع .. وقد

رصت أمامه ، عشرات السلاطين ، المليئة بالعيش المكسر ، أو « الفقة الجافة » ..

وهو يسكب في كل منها بكيشة من الشورية ، التى ملئ بماء القزان ، ثم يتركها برهة حتى (تبوش) .. وحتى (تشرب ميتها) .. ثم يبدأ بتغطيتها بطبقة رقيقة من الأرز . الموضوع فى قزان آخر .

فإذا انتهى من عملية التغطية بالأرز .. كشف عن حلة (الصلصة) .. وأخذ ينقل منها بكيشة صغيرة .. بمقادير محدودة .. يزين بها سطح السلاطين . وتبدأ بعد ذلك عملية تقطيع الكرشة .. فيخرج من القزان .. كرشة كبيرة .. تتساعد منها الأبخرة ويأخذ فى تقطيعها على رخامة البنك ، ثم توزيعها على السلاطين .

وهنا يهجم الصبيان فيحمل كل منهم نصيبه من السلاطين ، وينطلقون بين المناضد لتوزيعها على الزبائن .

ويأخذ المعلم (عيد) بين آونة وأخرى فى تجهيز الرعوس ، وتوضيها ، وفصل اللسان والجوهره ، وإخراج المخ .. ثم يقذف بالعظام إلى القطط الملتفة حوله .

وأعدت التصفيق .. فحضر إلّى أحد الصبية الذى علمت بعد ذاك أنه يعمل مناديا فى (المصمت) .. إذ لم أكد أطلب منه ما أريد .. حتى وجدته قد رفع يده إلى فمه ، كمن يهم بالغناء .. ثم جعد وجهه .. وأغلق عينيه .. وصاح بصوت ملحن ، ملؤه النغمات والآهات :

« اتنين بالصلصة والكرشة .. وجوز عجالى .. وحتتين لسان .. مع التحايش » .

وهكذا بلغ النداء إلى الحاج « عيد » دون حاجة منه إلى الانتقال إليه .. ولم يصعب على أن أدرك أن « التحايش » معناها أن يكون الطلب معتنى به . ومضت فترة قبل أن يحضر إلينا الطعام .. فأخذت أتشاغل بالحديث مع صديقى أو علمت منه أنه يدعى « الشحات » أى إنه اسم على مسمى .. وأخذ يقص على ما يعاينيه من شغل العيش والبؤس ، حتى أقسمت فى نفسى أن أتولى

أمره بصفة دائمة أو أحاول أن أجده عملاً لا يحتاج للحركة .
وأخيراً أحضر الصبي الطعام وبدأنا تناوله .
وأنهينا من الطعام وحضر إلي المعلم « عيد » نفسه لتناول الحساب ، ونويت
أن أكون كريماً معه حتى يعرف أنني ابن ناس .. وحتى لا يكون اصطحابي
للسحاذ سبباً في إضاعة مركزى أمامه .. وحتى يعرف أن طعامي مع السائل ليس
إلا من باب التواضع والمروعة والإنسانية .
وفرك المعلم يديه وبدأ يسرد لى قائمة الحساب .. فإذا كل ما تناولناه لا يزيد
ثمنه على الريال .

في مجمع الشحاذين

إن هناك الملايين .. ممن يستحقون العون ،
ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال ..
أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء
وجوهم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .
إلا كرامتهم .

ومددت يدي لأخرج المحفظة .

ومضت فترة وأنا أنقل يدي من جيب لجيب دون أن أجد للمحفظة أثرا ..
وأحسست بالعرق يتصبب من جبينى من فرط الخجل .. ماذا أفعل أمام
الشحات وأمام الحاج « عيد » أنا الأفندى المحترم الذى أريد أن أظهر بمظهر
« الفنجرى » ، فإذا لى لا أجد ثمن ما تناولته من طعام .

ورأيت الشحات ينظر إلى نظرة فاحصة بطرف عينه ، ووجدت القلق قد بدا
على وجه الحاج « عيد » والحق قد بدأ يسرى فى ملامحه .. فأسقط فى يدي ،
وأحسست كأننى قد غرقت فى جوف بحر ، وأنه ليس لى مخرج من ذلك المأزق
الذى وضعت فيه نفسى .

وفجأة رأيت المخرج .. فقد هبط على منقذ من السماء .. منقذ لم أكن أتوقعه
قط ، فقد رأيت الشحات يرفع بصره إلى المعلم « عيد » ويقول له ببساطة :
— معلش يا معلم .. الظاهر إن الأفندى نسى المحفظة .. خلى الأكل على
حسابى المرة دى .

ونظر المعلم « عيد » إلى نظرة ملؤها الازدراء .. ثم أولاني ظهره وانصرف ،
وأحسست بالعرق يقطر من جسدى بعد أن تناولت الغداء على حساب
الشحات .

تملكنى الذهول وأحسست أنى أكاد أجن مما حدث .

من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل — الفنجري — المحترم الذى يفيض مروءة ،
وكرماً ، وأريحية .. الرجل الذى قطع كل تلك المسافة من داره إلى حى القللى ،
ليغدق على البؤساء من فيض كرمه ويعطيهم مما أعطاه الله ، ويهب لهم من إحسانه
ما يثلج به صدورهم ، ويقضى حوائجهم .. ينتهى به الأمر إلى أن يتناول غداءه
على حساب أحد الشحاذين !

هذا والله منتهى السخرية ؟

أحسن على شحاذ ؟ ولم يمس على تناولى جرعة المروءة بضعة ساعات ؟
أيطعمنى سائل جائع أكنع كسيح ؟ .. وأنا صاحب الفضل والإحسان !!
والله ما كنت أقبلها قبل أن أتناول الجرعة .. فما بالكم وأنا أحس بالمروءة تنقل
أمعان ؟

ثم .. المحفظة !! أين المحفظة ؟

إنها السبب فى كل ما حدث .. إنها هى التى وضعتنى فى هذا المأزق الحرج ..
إنها هى التى سببت لى كل ذلك الخذلان والحيرة .

أين ذهبت ؟ لقد بحثت عنها فى كل جيوبى دون أن أجدها أثراً ، مع أنى واثق
أنى قد وضعتها فى جيوبى قبل أن أترك الدار .

ومضت برهة وأنا جالس على المائدة التى تناثرت عليها بقايا الطعام .. شارد
الذهن غارب البال .. ما زالت يدي تنقب فى جيوبى باحثة عن المحفظة ..
والشحات جالس أمامى يمسح فمه بطرف كفه المهلهل القدر .. وأسند عكازه
الأسود على طرف المنضدة .. وأخذ يوجه إلى من آن لآخر نظرات مسترقة من
طرف عينيه .. خيل إلى أن فيها لحة سخرية خفيفة .

ولم تكن حالة الحرج والخجل التى أنا فيها قد تركت لى الفرصة كى أفكر فى أن هذا الشحات لا بد أن يكون مخادعًا محتالًا ، وإلا فكيف يدعى أنه لم يذق الطعام منذ يومين مع أن له فى المصمت حسابًا جاريًا ؟
إن المعلم لم يحاول مناقشته عندما طلب منه أن يجعل الطعام على حسابه بل انصرف دون أن ينبس بينت شفة .. فلا شك أنه مطمئن إلى الرجل .. وأنه يجد فيه « زبون سقع » .

وبدأت أوجه إلى الشحات نظرات الشك ، ولكنه لم يابه لنظراتى ونهض فى سكون متناولًا عكازه واتجه إلى خارج المصمت وأنا سائر خلفه مطأطئ الرأس وقد تملكنى خجل شديد ، إذ أحسست أن كل من فى المصمت يحملون قى بأعينهم وأنهم يشيرون إلى بأصبعهم قائلين : هذا هو الأفتدى .. الذى أطعمه الشحات .

وسرت والشحات فى الطريق الضيق وكلانا مطرق صامت يسترق النظرات إلى صاحبه بين آونة وأخرى .. وأنا حائر لا أدرى كيف أتصرف معه .. هل أشكره على كرمه وأريحيته لأنه أطعمنى من جوع .. أم أزجره وأؤنبه لأنه خدعنى وسخر منى !
وأخيرًا قلت له :

— ما الذى أجبرك على البقاء يومين بدون طعام .. إذا كان لك حساب جار فى المصمت ؟

ونظر إلى الشحات رافعًا حاجبيه فى شىء من الدهش وأجاب :

— الظاهر أنك على نياتك قوى .

— على أية حال .. إذا كنت قد خدعتنى .. فأنا لا شك معذور ، فهذه الحال التى أنت عليها تحزم بأنك لم تذق الطعام لا منذ يومين .. بل منذ سنتين ، والواقع أنك لم تخدعنى لأنى أوكد لك أنك بائس تعس .. ماذا يجديك ما اخترتته من النقود .. إذا كان أثرها لم يظهر عليك .. إن قيمة النقود ليست فى النقود بل فيما

تفعله النقود ؛ هبك جمعت أموال العالم وخزنتها في حفرة في أرض غرفتك .. واستمررت على ما أنت عليه من السؤال والعري ، هل هناك فارق بينك وبين الفقير المحروم الذى لا يملك شروى نقيير ! إنك أشبه بالحمار الذى يحمل قرب الماء وهو يلهث من العطش .. ولكنك معذور فلست وحدك تفعل هذا .. ولا أظنك تختلف كثيراً عن معظم أثريائنا .. الذين يخزنون أموالهم ويحرمون أنفسهم ويضيعون أعمارهم سدى ، ويخيل لى أن خير ما يمكن عمله هؤلاء هو أن تسحب نقودهم من خزائنها وتصرف عليهم حتى يتعموا بالحياة ويزكوا عن أنفسهم دون أن يعلموا أن هذه هى نقودهم .. بل يستمر إيهامهم أن نقودهم ما زالت مخزونة حتى تظل نفوسهم قريرة راضية للمسألة لا تزيد عن مجرد وهم ، وليست متعهم بالنقود المخزونة سوى متعة وهمية ، وإلا فقل لى بربك هل هناك فارق بين خزنك النقود وخزنك أكواماً من الزلط .. ما دامت النقود ستبقى فى خزائنها دون أن يتفع بها أحد ؟

ونظر لى الشحات من أسفل إلى أعلى ، وأجابنى ببساطة :
— الظاهر أنك متفلسف :

— متفلسف أو غير متفلسف .. إنك رجل تعس شقى ما فى ذلك شك ، ومهما كان من أمر فليس لى إلا أن أشكر لك أنك أطعمتنى ، وأعدك بأنى سأعود إليك لأرد لك ثمن الأكلة .. لأننى كما ترى قد نسيت المحفظة .

وابتسم الرجل وأجاب فى سخرية :

— لا داعى لأن تعود ثانية .. إنك لم تنس محفظتك .

ثم مد أصابعه وأخرج من صدره .. المحفظة !!

— إى والله !. محفظتى بعينها فقد نسلها منى الرجل ونحن فى طريقنا إلى

المصنعت وعاد يسألنى .

— أما زلت تصر على أنك لست « على نياتك » !

وتناولت منه المحفظة وقد تملكنى الدهش وازداد لى الإحساس بالحيرة

والخجل .. ودفعت يدي في المحفظة فأخرجت منها بعض النقود وقلت للرجل :

— خذ الريال .. ثمن الأكلة وشلن بقشيش لك .

وأخذ الرجل الخمسة والعشرين قرشًا فدهسها في جيبيه .

وهنا لمحت سائلا آخر قد عصب عينيه ووقف على ناصية أحد الأزقة ماذا

يده ، فاندفعت إليه في حركة غير إرادية لأهبط له بعض النقود ، ولكن

« الشحات » جذبني من ذراعي ونظر إليّ نظرتة إلى ذى جنة وسألني متعجبا :

— إيه يا سيدنا .. إيه حكايتك .. مغرم شحاتين . وإلا غاوى إحسان !

— أبدا .. أبدا .. مسألة مروءة ليس إلا .. أنا ذو مروءة أو مصاب

بالمروءة .. ليس الذنب ذنبي إنما ذنب الجرعة التي تناولتها .

— ذنب الجرعة .. أية جرعة ؟

— جرعة المروءة .

— أَللمروءة جرعة ؟

— طبعا .

— ومن أين حصلت عليها ؟

— عند تاجر الأخلاق .

— وماذا أجبرك على تناولها ؟

— مكره أخوك لا بطل .

— لا أفهم .. من الذى أكرهك على تناول جرعة المروءة ؟

— أنا أكرهت نفسى .

— ولم ؟

— لأستعين بها على إزالة الشجاعة .

ثم أخذت أقص على الرجل القصة باختصار . وسردت له كل ما حدث من

جرائم الشجاعة ، وكيف استجرت من الشجاعة بالمروءة .. وهنا هز رأسه ،

وقال في سخرية :

— تمامًا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

— لا أظن .. ليس هناك شر من الشجاعة .

وهنا لمحت سحاذًا آخر وقد وقف أمامه رجل يادى الطيبة بهم بأن يعطيه قرشًا ، فأثار المنظر نخوتي وهجمت على السحاذ حتى أشارك الرجل الطيب في الإحسان إليه ، ولكنى وجدت الشحات جذبنى إليه مرة أخرى وحال بينى وبين التقدم إليه ، وهتف لى :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— أعطى الرجل حسنة .

— أى رجل ؟

— السحاذ طبعًا .

— الظاهر أنك غير مؤمن .

— حاشا لله .. ماذا دعاك إلى اتهامى بهذه التهمة الباطلة ؟

— المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .. وأنت تأبى إلا أن تلدغ من الحجر عشرات مرات .. ما دخل المروءة بهؤلاء ؟ يجب أن تضع المروءة في موضعها وتعطى الإحسان لمن يستحقونه .. ما دمت تتلف على فعل الخير والمروءة .. فخير لك أن تتقدم بالإحسان إلى الرجل الآخر .

— أى رجل ؟

— الرجل المحسن .. الذى يمد يده بالنقود إلى السحاذ .

— ماذا تقول ؟ أترك السائل .. وأمد يدى بالإحسان إلى المحسن ؟

— أجل .. وإذا أمكنك أن تنتزع كل ما مع السحاذ فتعطيه المحسن فلا شك

أنك تكون قد فعلت خير المعروف وأعظم المروءة .

وهزرت رأسى مستكبرًا .. إن « الشحات » لا شك يريد أن يزعج لى فى مأزق ، أو هو رجل أحمق شاذ . فليس أدل على ذلك من تبرعه بإطعامى على حسابه وإنقاذى من المعركة التى كانت توشك أن تقع بينى وبين المعلم « عيد » صاحب

(المصمت) .. ثم تطوعه لإعادة المحفظة إلى بعد أن أطمأنت في جيبه واستقر بها المقام .

كيف يريد الرجل أن أتقدم بالنقود إلى الرجل المحسن ؟
إن الرجل يبدو « مستورا » وليس به من حاجة إلى الإحسان ، ولست أشك
في أن إحساني إليه سيخدش كرامته ويثير غضبه علي .
وعدت أسائل الشحات وأستجوبه :

— أى قول هذا الذى تقول ؟ وأى عمل أحق تدفعنى إلى فعله ؟ وأى ورطة
هذه التى تريد أن تزج نى فيها ؟

وتوقف الرجل ونظر إلى نظرة فاحصة . ثم أطرق وأجاب :
— أنت رجل طيب .. وذو مروءة حقًا .. وحرام أن تذهب مروءتك أدراج
الرياح .. سألقنك درسًا تنتفع به وسأحيطك بما لم تحط به علمًا .. هيا بنا ؟
— إلى أين ؟!

— إلى المجمع .

— المجمع اللغوى ؟!

— لا .. إلى مجمع الشحاذين .. سأدفع بك بين الكواليس لتبصرهم عن
قرب .. سأريك هؤلاء الذين استدروا دمعتك على خشية المسرح وأطلعك على
خفاياهم .. حتى تعرف بعد ذلك كيف توجه مروءتك ، ولين تلقى بإحسانك
ومعروفك .

وسرت والشحات الأكبر قاصدين مجمع الشحاذين .. وظل الرجل يدفعنى
من زقاق إلى زقاق ، ومن جحر إلى جحر بين أكداس القمامة والعفونة حتى
دلف فى النهاية إلى حارة مسدودة قد شاعت فى أركانها ظلمة خالكة، ثم توقف أمام
باب فى نهايتها وطرق الباب بعكازه .. ولم قض لحظة حتى فتح الباب وأطلت منه
عجوز شحاذة سوداء هجفاء لم تكدر لى حتى بدا عليها الدهش ورفعت حاجبها
الأشيب متسائلة عنى أكون .

وأشار لها صاحبي مطمئنًا مفهمًا إياها أني لست بذى خطر .. وأنى رجل طيب « على نياتى » .. وأنى ضيف عنده ..

ودخلنا فى ممر مظلم ، وعرفنى الشحات بالعجوز قائلا :
— الحاجة نودق (بفتح الدال) رئيسة المجمع .. وشيخة الشحاذين .
وسمعت العجوز ترحب بى قائلة بصوتها الرفيع من خلال فكها المتداعين :
— أهلا وسهلا .

وانتهى بنا الممر الضيق الذى اجتزنناه إلى حجرة رحية تسلى إليها الضوء من خلال نوافذ عالية ذات قضبان حديدية كنت ألمح أقدامًا تمر بها من آن لآخر .. فأدركت أن الحجرة هى بدروم يعلوه أحد الأزقة .
وبدت لى الحجرة أشبه بمحجرات النوادى الرياضية التى يستعملها اللاعبون فى خلع ملابسهم .. مع فارق القذارة المتناهية .

كانت أرض الحجرة غير مبلطة ولا مسفلطة ، بل أرض طيعية قد فرش عليها هنا وهناك بعض زكايب وحصر .. أغلب الظن أنها تستعمل للنوم، ووضعت بحوار الحائط بعض الدكك والمقاعد الخشبية المتداعية ، ودق فى الحائط مشاجب ومسامير علقت عليها ملابس قديمة وأربطة قذرة ، وفى ركن من أركان الحجرة وضع جردل ماء وبجواره قلة . وعلى أحد الجدران علقت مرآة مكسورة سوداء ، وفى وسط الحجرة قامت بضعة دواليب وصناديق .

وتلفت حولى فلم أجد فى كل ما رأيت شيئًا يستحق المشاهدة أو يستحق ذلك المشوار الذى قطعته مع الرجل بين الأزقة والحوارى .. وقلبت الطرف بين صاحبي وبين مظاهر الفقر المدقع القائمة حولى وسألته فى استياء :

— أهذا كل ما تريد أن ترىنى إياه ؟ .. هل هذا هو ما تود أن تحيطنى به علمًا ؟
أهذا هو الدرس الذى ستعلمنى به كيف أوجه مروعى ؟! أهذه هى الكواليس التى تحدثت عنها ؟! لا .. لا .. لى لن أستمع إليك ، وسأعطى « نودق » كل ما لدى من النقود لتفك بها ضيقها .. وضيق « الغلابة » الذين (أرضى النفاق)

يعيشون معها .

— صبرًا .. ولا تكن أحق عجولا .

وكانت « نودق » قد اختفت عن أعيننا في أحد السرايب فرفع الرجل عقيرته منادياً :

— نودق .. فكيني .

ودهشت بعض الشيء ، ولم أفهم معنى قول الرجل « فكيني » ١١
فقد كان مطلق السراح ليس هناك ما يقيد .. وأخذت أحن كيف تنوى
المرأة أن تفكه ..

وأخيراً حضرت العجوز ، وتناولت من الرجل عكازه وأخذت تساعد على
نزع « الملاهيل » التي كساها جسده .. وهنا فقط عرفت ماذا عنى بقوله :
« فكيني » .

أجل لقد أخذت العجوز في فكته .. ولم تمض فترة قصيرة حتى وجدت
الرجل واقفاً على قدميه سليم الذراعين .

كان الرجل قد شد ذراعه على جسده بشدة وثنى ساقه من الركبة بطريقة
لا أظن أى بهلوان يستطيع أن يفعلها ثم شدها إلى فخذه بالأربطة بحيث لم يعد
يشك الناظر إليه في أنه مقطوع الذراع والساق .

ونظر الشحات وقد وقف سليماً معافى وقال باسماً :

— ما رأيك ؟... هذا بعض ما وراء الكواليس .

ثم نظر إلى باب الحجرة وأردف قائلاً :

— وهذه عينة أخرى مما وراء الكواليس .

ونظرت إلى حيث أشار فوجدت امرأة ضريرة قد أقبلت علينا بقودها طفل
يكاد يكون عارى الجسد ، لا يستر جسده سوى قميص ممزق قلر ، وبدا على
الاثنتين أبلغ آيات البؤس والتعاسة .

ووصلت إلينا تحية المرأة :

— العواف .

وأجيناها في نفس واحد :

— الله يعافيك .

ولم أر الله يستجيب دعاء بمثل ما استجاب دعائنا هذه المرة .. إذا لم تمض لحظة .. حتى كانت المرأة قد عوفيت ... وأضحت عيناها الضريرتان — كالفناجيل — ولم يتطلب فتحهما من الحاجة سوى كوز مياه من الجردل الملقى في آخر الغرفة أزالته به آثار النشا الذي ألصق به جفنا المرأة .

ودخل علينا رجل بعد ذلك .. يحمل على كتفه حجرا ويتقدم به إلى الحجرة وهو شبه عار ، وهمست للشحات :

— إيه حكاية الحجر ؟

— يضرب به صدره .

— ولم ؟

— هي طريقة قديمة .. ولكنه تعودها .. فقد ورثها عن أبيه ، وكل ما عليه هو أن يسير في الطرقات فيرفع الحجر بين يديه ، ويهوى به على صدره ، قائلا :
يا عشاق النبي .. وعلى المحسنين من عشاق النبي .. الباقي .

وهكذا توالى علينا العينات المختلفة من جميع أصناف الشحاتين .. ذوى العاهات المتقنة الصنع .. ما بين عرج وعمى وعور وكساح وخرس وجنون . وسحبني الرجل من يدي إلى حجرة أخرى أنبأني أنها مخصصة لدراسة فن الشحادة .. لأن على كل شحاذ أن يحفظ ما يناسبه من أقوال وأفعال . وكانت الحجرة مشغولة ببضعة شحاذين يتلقون محاضرة عن الشحادة في رمضان .

ووجدتهم يكررون مع المحاضر « من فطر صائم له أجر دائم عند الله » وأنبأني الشحات أن لديهم مؤلفين لتأليف أغاني التسول ، وملحنين لوضع الألحان لها . وأكد لي أن المسألة ليست سهلة كما أظن .. بل إنه يستطيع أن يجزم أن التسول

هو الشيء الوحيد الذى يقوم فى مصر على أساس متين لا ارتجال فيه .. وأنه من أنجح المشروعات المصرية كافة .

ودلف بى بعد ذلك إلى حجرة المخزن المليئة بجميع الأنواع التى يحصل عليها الشحاذون عن طريق التسول من كسرات خبز وملابس قديمة وأطعمة ، وأفهمنى أن لديهم هيئة مسئولة عن بيع هذه الأشياء .

وانتقلت بعد ذلك إلى حجرة أخرى فهمت منه أنها بمثابة روضة أطفال يتولون فيها تدريب الأطفال على المهنة .

وظل الرجل ينتقل بى من غرفة إلى غرفة وهو يشرح لى كل ما يتعلق بمجمع الشحاذين حتى عدنا إلى الحجرة الأولى ، وطلب منى الجلوس على أحد المقاعد وجلس أمامى مفترشاً الأرض وسألنى وهو يفرك كفيه :

— ما رأيك ؟

— شيء عجيب !! لم يكن يخطر لى على بال قط .

— أما زلت تعتبر المروءة هى تفريق النقود على الشحاذين ؟

— لا .. لا أظن .. إن من الخطأ أن نسميهم شحاذين لأنهم شركة مساهمة .

وأطرقت وأفكر ثم سألته بعد برهة :

— إذا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل المروءة ؟

— يفعلها فيمن يستحقها .

— ومن الذى يستحقها ؟

— كثيرون .

— اضرب لى مثلاً .

— ذلك الرجل الذى شاهدته بمد يده بالإحسان إلى الشحاذ الذى منعتك

عنه .

— أهذا يستحق المروءة ؟

— أجل .

— وكيف ؟ .. كيف يستحق المروءة ، وهو يحسن إلى غيره ؟ ألم يكن من الخير لو وفر إحسانه ليستعين به لنفسه !
— صدقت .. ولكنه لا يستطيع .. لأنه تعود الإحسان .. لأن الرجل الكريم المحسن لا يمكن أن يمتنع عن كرمه وإحسانه .. مهما أخنى عليه الدهر .. هذا الرجل كان من كبار التجار ، رجل تقى ورع يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة .
وهب له الله بسطة في العيش ووفرة في النعم .. وأغدق عليه من زينة الحياة الدنيا — المال والبنين — الشيء الكثير . وكان مثلاً لامرئ قرير العين ناعم البال تفيض نفسه بشكر الله وحمده .

واستمرت الأقدار تصعد بالرجل إلى أوج سعادته .. تجارة رابحة وثروة واسعة وأبناء ناجحون وأحفاد يلتفون حوله يقدقون عليه من بسماتهم وضحكاتهم ما يقر به عيناً .
ومرة واحدة بدأ الرجل يهبط من القمة .. قمة السعادة .. وإذا بالقدر قد تخلى عنه وتركه يهوى إلى حضيض الشقاء .
كيف ؟

لقد بدأ الأمر بأن توفي زوج ابنته .. وترك ابنته وأولاده بلا عائل ولا مال .. وحمد الرجل ربه — الذي لا يحمد على مكروه سواه — أن وهب له بسطة في الرزق حتى يستطيع أن يتكفل بابنته وأولادها بعد أن توفي زوجها وقرر أن يبذل جهده لتعويض ابنته الشكلى وأحفاده اليتامى عن أبيهم وعلى أن يضمهم تحت كنفه .

وهكذا أصيب الرجل أول ما أصيب في ابنته ، ولكنه تلقى الإصابة في ثبات وتصبر وتجلد فما فرغ وما جزع .. أما الإصابة الثانية التي وجها إليه القدر فقد كانت في ابنه الأصغر .. إبراهيم المهندس .
ماذا حدث له ؟

لقد جن ١١ خاتنه امرأته — بنت الحلال — فقتلها ثم جن .

وهكذا زاد العبد على الرجل .. فضم أولاد ابنته الذين قتل أمهم وجن أبوهم إلى أولاد ابنته اليتامي وأصبح عليه أن يعول الأولاد الستة وابنته وابنته الذي أضحي نزيل مستشفى المجاذيب .

تلك كانت هي الإصابة الثانية .. لقد حطمت أعصاب الرجل وهدت قواه ، إذ لم يكن من السهل على مثله وهو الرجل الهادئ الطيب أن يرى نفسه وقد أحيط بتلك الزواجع العاتية .. خيانة زوجية .. و قتل .. وجنون ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقاوم ويتجلد ويتألك ، وحمد الله .. وماذا يملك مثله من درع لتلقى الخطوب سوى حمد الله ، والإيمان به ..

أما الإصابة الثالثة .. فقد كانت في ابنه الأكبر .. محمود الدكتور .

مات !!!؟

لا لم يمّت .

إن القدر لم يترفق به إلى هذا الحد .

إن الموت لمثله نعمة ، والقدر قد أصر على أن يسترد كل نعمة .. فكيف ينعم على الابن بالموت ؟

أصيب الدكتور بداء الصدر .. التهاب في الرئة .. ماء في الرئة .. صديد في الرئة .. تلفت الرئة ورقد المسكين طريح الفراش بلا حول ولا قوة وقد التف حوله أم باكية ، وأبناء « زغب الخواصل لا ماء ولا شجر » .

رقد الابن طريح الفراش .. ينهش الداء صدره وتمزق العلة رثييه ، وطال به الأمر ، وهو كما هو .. مضنى عليل .. لا يشفى فيريح أو يموت فيستريح . رقد الابن ، وحوله زوجة كالأرملة وأبناء كاليتامي .. لا مال ، ولا عمل ، ولا عائل ولا معين إلا الأب .. والله واستعان الأب بالله .. وبدأ يفيق من هول الصدمة ، وهو يركى على ابنه الحبيب بدمع العين ودمع القلب ، وتحامل على نفسه ، وحمد الله .. لأنه وهب له المال يستطيع أن يعول به ابنه المريض وأحفاده المساكين .

لقد تلقى الرجل إصابات القدر الثلاث !
وحمد الله أن ماله يكفي لإعانة أولاده الستة وأحفاده التسعة ، لأنه هيا لهم منه
خير عائل ومعين .
وكانما ساء القدر أن يصمد الرجل لضربات .. فتحفز واستعد .. ثم أطلق
الرابعة .. فأفلس الرجل وضاعت تجارته وأضحى هو والاثنا عشر المساكين ..
بلا عائل ولا معين .
ماذا فعل !!؟ لا شيء . لا شيء أبدًا . لقد حمد الله الذي لا يحمد على مكروه
سواه !!

وصمت الرجل ، واستطعت أن أكبت دمعين همتا بأن تفلتا من عيني ،
وقلت متسائلا :

— وكيف يعيش الرجل وأبناؤه التعسرون ؟
— ذل بعد عز .. وضيق بعد سعة .. يعيشون على فضل الله .. هبة من هنا
ومن هناك ، وبيع لكل ما كانوا يملكون من بقايا التعميم .
لقد باعوا الدور ، والأثاث ، والملابس .
ومع كل ذلك ، فما انقطع الرجل عن مد يده بالإحسان إلى كل شحاذ
يراه .. ترى من أحق بالإحسان أم الشحاذ ؟
ولم أجب فما كانت لي من حاجة إلى الإجابة ، ونظر إلي الرجل وممس :
— ما رأيك ؟ ألم أحطك بما لم تحط به علما ؟
— إى والله .. لقد أحطتني علما بالشيء الكثير .
ثم صمت برهة ، وأردفت قائلا :
— هل تستطيع أن تدلني على بيت هذا الرجل المسكين .. حتى أذهب وأعيته
بعض المال ؟

— ولم هذا الرجل بالذات ؟
لقد ذكرته لك على سبيل المثال .

إن هناك الملايين ، ممن يستحقون العون ، ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال .. أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء وجوههم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .. إلا كرامتهم .

أولئك الذين يستحقون أن تهب لهم من مروءتك .. كل ما استطعت ، وتعطيهم من إحسانك فيضًا غزيرًا .
وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة في البحث عنهم ، فهم تحت بصرك .. وملء يديك .

وصمت الرجل قليلا ، ثم سألني :

— أليس عندكم خادم ؟

— عندنا طفلة صغيرة وصبي يتيم .

— هذان وأمثالهما يستحقان منك الكثير من المروءة ، هذه الطفلة التي انتزعت من أمها لتقوم بخدمتك لقاء بعض الدراهم لتعين بها ذويتها على العيش . كيف تعاملونها ؟ .. كيف تطعمونها ؟ . هل تعاملونها كما تعاملون أبناءكم ؟ هل تطعمونها كما تطعمونهم ؟
أبداً والله !!

هل تذكرون أنها في حاجة إلى الراحة ، وإلى الرفق ، وإلى التدليل ، والحنان .. كغيرها من الأطفال .. أم أنتم لا تؤمنون بشيء سوى أنها آلة تقضى لكم حوائجكم ، وتؤدي لكم ما تطلبون .
هذا مثل بسيط ، ومثل آخر ..

أليس لكم أصدقاء فقراء .. أئني عليهم الدهر ؟

هل تودونهم وتبرونهم .. وتعطونهم مما أعطاكم الله ، وحرمتهم إياه ؟
يا سيدي .. أؤكد لك أنك لو بحثت حولك ، لوجدت الكثيرين ممن يستحقون المروءة ، ولا يمدون أيدهم للسؤال .
الكثير ممن عضهم الفقر والدهر بنابه ، فلم يجسروا حتى أن يقولوا « آه .. »

بل طووا آلامهم في صدورهم ، وصبروا ، وتجلدوا . حتى يحفظوا ماء وجوههم .

وأمنت الفكر .. فأدركت مبلغ ما في قول الرجل .. من حقيقة .
ومرّ بذهني الكثير ممن أذكّره من المحتاجين الصامتين ، الصابرين المتجلدين .. الذين يصيهم الله ، فيحمدون الله .

ونهضت من مجلسي .. فنهض الرجل ، وشدت على يده شاكراً ، وطلبت منه أن يسمح لي بالذهاب حتى أوجه مروءتي إلى حيث يجب أن توجه إليه .. وأحسن إلى أولئك الذين أرشدني إليهم .

ووصلنا إلى الباب ، ووقف الرجل يودعني قائلاً :

— مع السلامة . هل معك نقود كافية للإحسان والمروءة ؟

— أجل .. المحفظة مليانة .

— ليس المهم أن تكون المحفظة مليانة .

— ما المهم إذن ؟

— المهم أن تكون معك !! ..

ومددت يدي أتحسس المحفظة .. وأخذت أنقل يدي بين الجيوب دون أن أجد لها أثراً .

وللمرة الثانية يمد الرجل يده في صدره ، فيخرجها ويدفعها إليّ قائلاً :

— لا مؤاخذه .. « يموت النشال وصياحه يلعب » إنها غية قديمة .. فلقد كنت نشالاً قبل أن أمتن الشحاذة .. إن الشحاذة آمن عاقبة وأوفر ربحاً ، ومع ذلك .. فإن أصابعي دائماً — تأكلني على النشل — لا مؤاخذه .

وأمسكت بالمحفظة ، فدستها في جيبى ، ووجدت الرجل يمد يده إليّ بالخمسة والعشرين قرشاً التي أعطيتها إياه وهو يقول :

— وهذه أيضاً .. خذها .. فأنت أولى بها مادمت تنوى أن تحسن بها ، فهي حلال لك .. أعطني قرشاً فقط .

وسألك ضاحكًا :

— ولم ؟

— حتى لا أكون قد أضعت وقتي معك سدى .. وحتى أكون قد نجحت معك كشحاذ .

ومددت يدي إليه بالقرش ثم ودعته وانصرفت في طريقى أنقب في ذهني عن بعض أولئك الذين يستحقون المروءة ممن ذكر لي الرجل أمثالهم .

(٩)

أهل الخداع

إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا
تكاثر ولا تناسل .. أما الأشواك فقد بارك الله
فيها فملأت ربوع الأرض .. إن المسألة تحتاج
إلى قانون ينظمها .. فهي ليست مسألة
أفراد ، بل مسألة أمة .

سرت في طريقى ، وأنا أنقب في ذهنى عن بعض من أستطيع أن أوجه إليهم
مروءتى ممن يستحقونها حقاً .. بعض أولئك الذين لا تذهب مروءتى فيهم أدراج
الرياح .. أولئك المنكوبين الصامتين .. الذين لا يجزعون على طلب العون ..
إلا من الله .

وكان أول من تذكرت رجلاً يمت لنا بصلة قرابة بعيدة .. لست أستطيع
تحديدتها بالضبط .. ولكن أغلب الظن أن أباه هو ابن خال امرأة عم أبى .. أو
شيئاً من هذا القبيل .

كان الرجل أول من خطر لى ، وأنا أستعرض أصحاب البلايا والمصائب ،
لقد قفز الرجل في رأسى ليصبح لى : هاأنذا .. منكوب صامت ، ومصاب
مستتر .. « أعطنى من مروءتك .. وهب لى من فضلك وإحسانك » .

كان الرجل المسكين .. مصاباً بداء .. النسل والذرية ، وعلة البنين

والبنات !!

لا تتعجلوا فتيبوا دهشتكم .. وتسائلوني : هل النسل داء .. والذرية علة ؟
وأنا معكم .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .. ولكن ما رأيكم في بنين بلا
مال ؟ يتنين « حاف » ؟ .. هل تظنونهم للحياة الدنيا زينة .. أم أنها مصاب
وبلاء ؟

والمصاب الأعظم .. هو أن بين المال والبنين تناقضاً شديداً إذ قل أن يلتقيا عند
امرئ واحد .. ولو حاولنا أن نضع لهما قانوناً من قوانين الطبيعة لما كان أكثر من
أن يتناسب مال الإنسان تناسباً عكسياً مع ما لديه من بنين «
فهذا المليونير العجوز لم ينجب بنين قط .. وهذا أنجب بنتاً واحدة .. والثالث
عاش عزباً فلم يتزوج . أما حنكورة والمعلم حنفي ، والشيخ أبو سريع ، فلدى
كل منهم دسمة من البنين والبنات .

ولست أشك في أن هذا الأمر هو إحدى العلل الكثيرة التي رزئ بها هذا
البلد .. وهو تكاثر البلد من الناحية السفلى .. وتضخمها في الجزء البائس
التعس .. فهي أشبه بنبات تتوالد أشواكه .. ويجف ثمره .
إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا تكاثر ولا تزواج ولا تناسل ، أما
الأشواك فقد بارك الله فيها فملأت ربوع الأرض . إن المسألة تحتاج إلى قانون
ينظمها .. فهي ليست مسألة أفراد ، بل مسألة أمة .

إننا نجد الطبقة « المبسوطة » أو أهل النعمة .. إما أن يحجم أفرادها عن
الزواج .. أو يتزوجوا ، ثم يحددوا من نسلهم .
أما الطبقة التعسة أو أهل اليأس والفاقة .. فيأبون إلا الزواج « مشى وثلاث
ورباع » دون أن يخشوا قط ألا يعدلوا .. أما الذرية فهي عندهم كالتحلل وربنا
يرزق .. أو لا يرزق .

وهكذا يضيع البلد بين أنانية أهل المال والنعمة .. الذين يأبون أن يتزوجوا أو
يتناسلوا ليربحوا أنفسهم ويقوها شر المسئولية .. وبين جهل أهل الفقر والشقاء
المتوالدين كالذباب ليستزيدوا أنفسهم فقراً وشقاء .

لا بد من قانون لتنظيم هذه الأوضاع .. إن حرمة التناسل ليست من حق الأفراد ، بل من حق الأمة .. فالأبناء أبناء الوطن قبل أن يكونوا أبناء آبائهم .
أى منطق هذا الذى يقول إن رجلا كالأستاذ « فكرى أباطة » أو الأستاذ « التابعى » أو غيرها من أهل الفكر .. يعيشون حياتهم عزابا ، ثم يذهبون بلا ذرية ولا بنين .. فى الوقت الذى ينسل فيه عكشة ، وجرجير ، وجراده — ممن لا يكادون يجدون ما يقيمون به أودهم — عشرات الأبناء !؟

قد يقول قائل : من يدريك !

إن ابن عكشة الزبال .. قد يكون على مر الأيام خيرا من ابن « فكرى أباطة » .
وإنه « قد يخلق من ظهر العالم فاسد . ومن ظهر الفاسد عالم » .. وإن فلانا من العظماء كان أبوه إسكافيا .. وفلانا من الوزراء ، كان أبوه حوذا .

وقد يكون فى ذلك القول شىء من الصحة .. ولكنه لا يمكن أن يتخذ قاعدة .. وأن نحاول تبعا لذلك أن نكثر من أبناء الإسكافية والحوذية ، لأن أحدهما أنجب لنا عظيما ، والآخر أنجب وزيرا .. لأنه بجانب هذا العظيم ، وذاك الوزير ، قد أنجبوا لنا الملايين من التعسفين والأشقياء الذين تتكون منهم العمدة التى أقيم عليها صرح الفقر والمرض والجهل على الذراعتين البنيان .

ماذا علينا لو استبدلنا بأبناء عكشة الاثنى عشر .. أربعة لعكشة ، وأربعة « للتابعى » ، وأربعة « لفكرى أباطة » أليس ذلك خيرا للأمة ولعكشة ، وللتابعى ، ولفكرى أباطة ؟

سنرفع عبء الاثنى عشر .. من فوق « عكشة » فنوزعه على الثلاثة بالتساوى .. فيستطيع « عكشة » أن يرى أولاده الأربعة خيرا مما كان سيرى الاثنى عشر .. ويستطيع فى حدوده أن يجعل منهم أبناء مفيدين للوطن فلا يتشرد منهم واحد أو يجوع آخر .. أو ينوء هو بعبئهم . أما الآخران فلا شك فى أن كلا منهما يستطيع أن يجعل من أبنائه الأربعة خيرا من أبناء عكشة .. فالثقافة متوفرة والمادة متوفرة .. ولدى كل منهما من الوسائل ما يستطيع أن ينتج للأمة أربعة من

خيرة الأبناء .. ولا شك أيضًا أن الأبناء أو على الأقل بعض الأبناء سيرثون عن أبيهم شيئًا من ذكائه ونبوغه .

وهكذا يتضح وجوب سن قانون للزواج وتنظيم النسل . فلا تترك المسألة هكذا « سهلة » فيعقم النسل الصالح (ونقصد بالعقم .. العقم المقصود .. أما العقم الطبيعي فلا حيلة لنا فيه) ، وتملأ الأرض بالذرية التي لا يعرف أصحابها كيف يطعمونها ؟

كان الرجل الذي مر بذهني مصابًا بداء النسل ، أو مصابًا بعشرة أولاد فقط لا غير .

ليس بالرجل من داء سوى ذلك .. لم يكن به مرض خبيث ولا فقر مدقع .. لم يكن به شيء سوى وفرة الأولاد ، ولولا ذلك لما مر بذهني قط ، ولما صح أن أدخله في زمرة من يستحقون مروعتي .

لو كان الرجل عزيبًا .. أو لو عقلت امرأته فلم تنجب له أولادًا أو ترفقت به فأنجبت له واحدًا أو اثنين أو ثلاثة .. لما صح أن نسميه منكوبًا أو مصابًا .. ولما فكرت في أن أتوجه إليه لأمد له يد العون .

إن مصاب الرجل هم أولاده ، ولست أعنى بذلك أنهم أولاد فاسدون ، ولو كانوا فاسدين لحف المصاب وهانت العلة ، ولكنهم — مع الأسف — كلهم ناجحون ، وهذا هو سر النكبة ؟

تسألون كيف ؟ كيف يكون الأولاد الفالحون الناجحون سبب نكبة على أبيهم ؟ المسألة بسيطة .. بسيطة جدًا .. إننا في مصر .. ومصر كما لو تعلمون بلد العجائب .. وعلى ذلك فليس بكثير أن يكون الأبناء الفالحون نكبة على أبيهم ؟ إن الرجل موظف عادي .. درجة سادسة أو سابعة .. لا أذكر .. موظف من آلاف الموظفين السائرين في الركب الحكومي . ليس بمحسوب ولا قريب ولا نسيب ، وليس له ما يهيء دفعة من الدفعات التي تقفز به أمام الصفوف ، وليس له من يتهمه بالذكاء والغيرة على مصلحة العمل ، ويطلب له ترقية

استثنائية .. فهو والحال كذلك .. موظف طبيعي .. أى « منسى غلبان » وهو رجل طيب هادئ قنوع .. تزوج كغيره من عباد الله .. فأنتم نصف دينه .. ثم بدأ ينتجب الأولاد من بنين وبنات .. الواحد تلو الآخر .. تاركاً المسألة على طبيعتها .. دون أن يخطر له قط .. أن يحاول الحد من النسل .. لأنه متدين وهو يعتقد أن ذلك ليس من شأنه ، بل من شأن الله .. وأن عليه أن يقوم بواجبه كزوج ، وعلى الله الباقي .

وهكذا زادت الذرية .. وازدادت المصروفات ، والدخل ثابت لا مزيد فيه ، والمأهية كما يقولون « هيه .. هيه » والرجل — مهما بلغ من ضالة مرتبه — يعتبر نفسه موظفاً ، ولا بد أن يعلم بنيه وأن يدخلهم المدارس .

وأدخل الرجل أبناءه المدارس الواحد تلو الآخر .. وبدأت المسألة في أول الأمر هينة ، واستطاع الرجل أن يقوم بعبء الأولاد من أكل ولبس وتعليم .. ولكن الأولاد — مع الأسف الشديد — كانوا فالحين ، فتجحوا في المدارس وانتقلوا من الابتدائي إلى الثانوى .. وزادت المصروفات ، وأخذت المسألة تصبح عبئاً معقداً ، فلا هو بقادر على حمل العبء ولا هو بمستطيع أن يحرم الأولاد من التعليم .. وخاصة أنهم فالحون ناجحون .

وبدأ يسعى في المجانية .. ولكن وزارة المعارف الكريمة .. لا تغدق كرمها إلا على ذوى السلطان .. وذوى الجاه .. أو على من يستطيع التمسح بعيتاتهم ، أو من له صلة بكبار رجالها وذوى الشأن فيها .. والرجل المسكين لا يتوافر فيه أى شرط من هذه الشروط التى تراها الوزارة الرشيدة واجبة للمجانية بصرف النظر عن الفقر والحاجة .

وتطورت حياة الرجل بالتدريج .. فأضحت مشكلة معقدة ، وأصبح الرجل منكوباً نكبة طبيعية .. لا افتعال فيها ولا عنف .. كل ذلك والأولاد ما زالوا يتسربون بلا توقف ، والرجل كالتائه .. لا يعرف بالضبط الخطأ الذى ارتكبه ، حتى أوصله إلى تلك الحالة من الفقر والحاجة .. واضطر الرجل أنه يخرج أكبر

أبنائه من المدارس ليعمل ببضعة قروش تعاونه على سد حاجته ، ولكن الابن استطاع بفضل ما أصيب به من فلاح ونجاح أن يستذكر في الدار وأن يحصل على شهادة الدراسة الثانوية بتفوق ، فجلب بذلك على أبيه نكبة كبرى .. فقد كره الرجل أن يقف عقبة في طريق ابنه ، وعزم أن يدخله الجامعة .. وفعلا أدخله وبدأ يقطع من قوته وقوت أبنائه ليدفع المصروفات .. ونجح في دفع بعض الأقساط ، ولكن انتهى به الأمر في النهاية إلى العجز التام .. وأصبح ابنه الناجح الفالح مهددا بالطرد .

والرجل المسكين حائر .. فهو مصاب ، وغير مصاب !! وهو في أشد الحاجة للمليم واحد ، فلا أحد يحسن إليه .. ولا هو يستطيع أن يديده للسؤال .. لأنه أفندى موظف ، وإن كنت لا أشك أنه ليس به من سمات الموظفين غير الهيعة الظاهرة ، أعنى البدلة والطربوش والكرافتة .. أما ما عدا ذلك فإن أبأس شحاذ خير منه .

تري من أحق من الرجل بمروءتي ؟

هل هناك طريق لفعل المروءة خير من أن أعينه ببعض المال الذي يستطيع به أن يعين ابنه على أن يتم دراسته .. ويستطيع هو أن يفك به ضيقه ويزيل كربته ؟ واستقر بي الرأي على أن أذهب رأسا إلى بيت الرجل وأحسست برضاء تام عما انتهيت إليه .

وكان الرجل يقطن في بيت القاضي بالقرب من سيدنا الحسين .. فاتجهت لأركب تراما يذهب بي إلى العتبة ثم أركب بعد ذلك إلى الأزهر وأتمشى إلى بيت الرجل .

ومرت بي بضع عربات الترام كان من العبث أن أحاول ركوب إحداها ، اللهم إلا إذا استطعت تسليق أعمدة الترام وامتطاء ظهره كما فعل بعض الصبية . ومر بي الوقت وأنا واقف مكاني . وأخيرا لم أجد بدا من أن أحشر جسدي على سلم إحدى العربات .. بعد أن استطعت أن أجد موطئا لقدم واحد ..

وأستمرت قدمي الأخرى معلقة في الهواء .. ولم أكن أخشى السقوط ، فقد كان جسدي مضغوطاً كالسرددين بين بقية أجسام الركاب .

وظل الترام يتهادى من محطة إلى أخرى ، وأنا على حالتي تلك من الشعلقة حتى وصلنا أخيراً إلى العتبة .

وشققت طريقي بين باعة الجرائد وإبر بوابير الجاز .. واللبان والشكولاتة ومساحي الأحذية .. ووصلت إلى ترام الأزهر وجلست على أحد المقاعد منتظراً أن يتحرك الترام ..

وهنا لحت أحد الشحاذين يقبل عليّ ، وقد بدت عليه مظاهر البلاءه ، ولم يكن يرتدى سوى سروال ممزق يكاد يستر عورته وأخذ يصيح في مدعياً الخرس — ١. ١. ١ — وهو يشير إلى فمه بأصبعه محاولاً إفهامي أنه جائع .

ولم أملك نفسي من الابتسام .. وأحسست كأن الرجل ليس غريباً عني .. بل كأننا أصدقاء .. بين أحدهما والآخر معرفة قديمة .

واستمر الرجل يقول :

— ١ .. ١ .. ١ ..

ووجدت نفسي أجيب :

— أهلاً .. أهلاً .

ولكن الرجل استمر على تجاهلي وادعائه البلاءه .. فعدت أسأله :

— ازاي الشغل ؟

وأحسست أن الرجل قد بدأ ينظر إلى بعين فاحصة حذرة ، فاستمررت في

قولي :

— الحاجة نودق ترجوك ألا تتأخر .

وهنا فغر الرجل فاه وتملكه دهش شديد .. وكف عن « التهته » واقترب

منى حتى كاد يلمص فمه القذر بأذني وسألني هامساً :

— أنت تعرفها ؟

(أرض النفاق)

— طبعًا هي والشحات ، وسنية العمشاء .. و ..

— ولكنى لم أبصرك قبل الآن ؟

— لقد انضمت حديثًا إلى الجمع .

وهنا دوت زمارة « الكمسارى » فأسرع الرجل متباعدًا . ناظرًا إلى نظراته إلى زميل ، وبدأ يهاجم زبونًا آخر .. بصياحه : — ا .. ا .. ا ..

ووقف إلى الترام في النهاية عند الأزهر ، وسرت في الشارع متخذًا طريقى بين زرافات الناس وعربات الباعة ، وقد تعالت من حول النداءات المختلفة الملهحنة ، ووصل إلى سمعى منها نداء بائع المشمش كأنه أغنية جميلة : « المشمش استوى وطاب وطلب الأكال يا حموى يا نايج » .. ثم رنين طاسات بائع العرقسوس كأنها تقاسيم القانون يتخللها صوت البائع مناديا في ثقة « خمير شفا » وقد وقف مائلا بنصفه الأعلى واتكأت قدرة العرقسوس على جنبه معلقة في كتفه بسير جلدى ، ووضع في فوهتها قطعة مستطيلة من الثلج ، وحول وسطه قد شد وعاء نحاسيا وضع فيه الأكواب الزجاجية ، وتدلى من الوعاء إبريق صغير بالماء لسفسل الأكواب .

وأغرائى منظر القدرة والثلج ورنين الطاسات بأن « أبل ريقى » بكوب من العرقسوس .. فاقتربت من الرجل وطلبت منه كوبًا ووقفت أتأمله بجلبائه الأبيض ، وقد شد حول وسطه الفوطة الحمراء المخططة ، وشاعت في أساريه علامات الرضا والمرح ، وكأنه من رنين الطاسات فى عرس دائم وطرب مستمر .

ورفعت الكوب إلى فمى ، وقد علته الرغبة وتندى خارجه بقطرات الماء من فرط التليج .. وأحسست ، وأنا أجرع العرقسوس بكثير من المتعة كأنى أجرع كأسًا من الشمبانيا ، أو كأن جو الطرب والمرح الذى يحيط به الرجل نفسه قد سرى إلى فملا نفسى بالرضا .. وشعرت أن الله لا ينسى عبده ، وأنه قد يحمل قدرة العرقسوس من اللذة ما لا يحمله دنان الشمبانيا .

ولم أكد أعطى الرجل ثمن الكوب حتى لحت على مقربة منه عربة يد محملة بالموز ، وقد رفع صاحبها عقيرته بالنداء .. فى صخب وضجيج .. طالباً من الناس أن يلحقوا أنفسهم قبل أن « يشطب » .
وهنا خطر لى أن الواجب يحتم على بالآ أدخل بيت الرجل « وإيدى فاضية » وأن يضع أقات من الموز سيكون لها وقع طيب .. فلا شك أن أولاده .. محرومون من الفاكهة .. ولا أظن دخله الضيق يتيح له أن يفرق الموز على الصغار المساكين .

واقتربت من بائع الموز ، وقد وقف أمام عربته ، ولسانه لا يكف عن الصياح والضجيج كأن به جنة .. « يا بلاش بخمسة صاغ الأفة يا موز » .. « نبيع بلاش يا ناس » .. « يا عالم بنص الثمن » . « الحق نفسك قبل ما يجير » .

وأسرعت إلى الرجل لألحق نفسى قبل ما يجير !!
كيف لا ؟ . وهو يبيع بنصف الثمن .. يبيع أفة الموز التى ثمنها عشرة قروش بخمسة فقط .

ولم تكن لدى فكرة حقيقية عن ثمن أفة الموز .. لا لأنى لا آكل الموز بل لأنى لا أشرته .. فأنا أجدّه فى البيت « مشترى » جاهزاً ، فهم يحذروننى فى البيت أن أحاول شراء أى شىء قط ، لما عهدوه فى من « خيابة » و « غشومية » ، والظاهر أنهم لم يظلمونى بتهمتهم لأننى غشيم فعلاً ، فما أذكر أنى اشتريت شيئاً إلا وكان إما فاسداً أو بضعف الثمن ، وما زلت أذكر حتى الآن الثين الحامض ، والتفاح المعطوب ، وغيره وغيره .. مما اشتريته ، وكان نصيبه الاستقرار فى صفيحة الربالة بدلا من بطوننا .

ومن ذلك الحين ، وقد استقرى الرأى على أن أقبل نصيحتهم وألا أحاول أن أتباع شيئاً قط .. بل أعطيتهم النقود وأترك لهم عملية الشراء .

ولكنى وجدت نفسى فى هذه اللحظة مجبراً على أن أقوم بعملية الشراء بنفسى .. مجبراً على أن أقدم إلى الرجل وأفصاه فى الثمن وأفحص جيّداً عينة

الموز ، وأتأكد أنه ليس به شيء فاسد .

ووقفت أمام العربية .. وداخلني الاطمئنان .. من ذلك الضجيج الذى يحدثه الرجل ، ومن أقواله التى يعلنها صائحًا « إنه يبيع بلاش » .. وقلت لنفسى : إن خمسة قروش لا شك ثمن زهيد جدًا لأقة الموز .. وأنه لا يمكن لإنسان شراؤها بأقل من ذلك .

وألقيت على الرجل التحية :

— السلام عليكم .

فلم يجبنى الرجل ، إذ حال صراخه وصياحه وندائه على الناس أن يلحقوا أنفسهم دون سماع تحيتى ، فلم أجد بدلًا من الصياح بصوت عال صارخًا فيه :

— بكام الأقة ؟

ونظر إلى الرجل بطرف عينه ، وقد تجهم وجهه :

— بنقول بخمسة .. بنبيع بالخسارة .. والله حرام .

وسألت أن يبيع الرجل بخسارة .. وكرهت لنفسى .. أنا صاحب المروءة الذى أنوى أن أحسن بما أشتريه منه أن أتسبب للمسكين فى خسارة بضعة قروش ، وتبين لى من عبوس وجهه وتجهمه أنه صادق فى قوله .

وكان الرجل قد عاود صراخه وصياحه .. فصنحت به حتى يسمعنى :

— بستة .. تبيع بستة ؟

وصمت الرجل ونظر إلى فى دهش ، وقال لى متسائلًا :

— إيه ده اللى بستة ؟

— الأقة .. أقة الموز .

— قلت لك بخمسة .

— لأ بستة .

ونظر إلى الرجل نظرته إلى مخبول ، فأردفت قائلاً شارحًا وجهة نظرى :

— حرام نخسر .

— نعمل إيه .. أكل العيش عايز كده . مرة نخسر ومرة نكسب .
ولكنى أصررت على أن أشتري بستة .. وأن أتيح للرجل « مرة تكسب »
بعد طول خسارة .

وبدأت أفحص الموز جيداً .. حتى لا يخدعنى الرجل فيعطينى موزاً معطوياً
يخجلنى أمام الأولاد وأبيهم .. ووجدت الموز الموضوع على العربة من نوع سليم
ليس كثيراً أن تدفع فى أفته ستة قروش .. بل لقد وجدته فى الواقع لقطة .. إلى
حد أنى قررت أن أعود للبائع بعد زيارتى للرجل فأبتاع منه بضع أقات للبيت حتى
أطلعهم على مبلغ مهارتى فى الشراء .

وقلت للرجل : زن لى خمس أقات .
وتناول قرطاساً من بين كوم من القراطيس موضوعة أسفل العربة وجاهزة
للتعبئة ، وبدأ يعبئ فيه الموز ، وهو مستمر فى صياحه :

— يا بلاش .. بنبيع بلاش يا ناس .. بنص الثمن يا موز .. يا خسارة الموز ..
راح بلاش .

وكلما أمعن الرجل فى الصياح .. كلما أحسست له بالرتاء والعطف ...
ولما سيحدث له من خسارة .. وازدادنى تأنيب الضمير .. وأخيراً لم أعد أحتمل
فصحت به :

— خليفها بسبعة .

ووضع الرجل القرطاس فى الميزان .. ونظر إلتى كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال
مستفسراً :

— بسبعة ؟! سبعة قروش صاغ .

— أى نعم .. حرام عليك تخسر كل هذه الخسارة !
وأمن الرجل على قولى بهزة من رأسه ، وإن كنت علمت من نظراته أنه يعتقد
أنى مخبول معتوه .. ثم مد يده بالقرطاس وتساءل ببساطة ، وهو ينظر إلتى بطرف
عينيه :

— تحب نخلها بثمانية .. ولا إيه رأيك ؟

فأجبت في حماسة :

— لا مانع أبداً ؟

وحملت القرطاس ومددت يدي إلى الرجل بالأربعين قرشاً ثمن خمس
الآفات ، وسرت في طريقي ، وهو يشيعني بنظرة دهش ، ويهز رأسه ، وكأنه
يقول : « الله في خلقه شئون » .

وتركت شارع الأزهر وعبرت السكة الجديدة متجهاً إلى « سيدنا
الحسين » .. ماراً في طريقي بعشرات الشحاذين من ذوى العاهات والأفذار ..
الذين لم يستطع واحد منهم أن يستدر مني قطرة عطف .. بعد ذلك الدرس الذي
تلقينته في مجمع الشحاتين من صاحبي الشحات والحاجة نودق .

سرت في طريقي لا آبه لأحد من أولئك الشحاذين حتى استوقفني صوت
يصيح بلهجة توسل :

— يا بيه .. يا سيدنا الأفندي .

ووقفت لأرى المنادى . وكنت أسير إذ ذاك على الرصيف المقابل لسيدنا
الحسين ، وتلفت حولى .. فوجدت المنادى رجلاً ريفياً قد جلس القرفصاء
وبجواره امرأة ريفية تدلى ثوبها الأسود فغطى الأرض من حولها .. ولفت رأسها
بشال أسود .. وأمامها وضع سبت متوسط الحجم مليء بالبيض ، وفوق البيض
زوج من الحمام .

وكان منظرها يؤكد للناس أنها قد أتت من الريف توا .. وكأني بهما يعرضان
على الناس نموذجاً للسداجة الريفية .

واقتربت منهما وسألت الرجل عما يريد ، فأجاب في كثير من الخجل
والمسكنة :

— عدم المؤاخذه يا بيه .. احنا جاينين من البلد علشان نزور الحسين وبادوبك
وصلنا .. وامد إيدي أدور على المحفظة لقينتها ضاعت باللي فيها .. انسرقت ..

وقعت .. خدما ابن الحلال .. الله أعلم .. ومختارين يا سيدنا الافندى نعمل
إيه .. بس لو كان معنا أجره السفر .

وفهمت من الرجل ما يريد . ولم تكن هى المرة الأولى أن يطلب منى أمثاله
أجرة السفر ، فقد كانت إحدى طرق الشحاذة والخداع المعروفة .. وقد حدث
أن أعطيت أحدهم أجره السفر ثم مررت به بعد ساعات فتقدم لى يعيد نفس
« المونولوج » .

وهمت بأن أقول للرجل « على الله » ولكنى وجدته يردف قائلاً :
— يا سيدى اليه .. احنا مش وش شحاته . وربنا ما يحكم علينا أبداً .. أنا
مش عايز منك إحسان . أنا معايا سبت بيض وجوز حمام جايينه معنا من البلد ،
تعملش معروف تشتريه مننا .. وتدينا ثمنه أجره السفر .. ربنا يعمر بيتك .
وهنا قطع على الرجل كل الوسوس .. ولم يبق مجال فى أن أشك أنه شحاذ
محتال .. فالرجل لا يريد إحساناً بل يعرض صفقة للبيع .. يريد أن يعطى البيض
ويأخذ نقوداً .. فهو رجل ساذج قد أتى وامرأته لزيارة الحسين فوقع فى يد نشال
محتال سلبهما نقودهما .. والرجل لا يريد أكثر من أن يستبدل بالبيض والحمام
نقوداً تمكنه من العودة إلى بلده والفوز من زيارة الحسين بالإياب ..

وخطر لى خاطر ملائى طرباً .. إلى أستطيع أن أضرب عصفورين بحجر .
ماذا على لو ابتعت من الرجل البيض والحمام فأنقذته من ورطته ، ثم حملت
السبت بما فيه إلى بيت صاحبه المسكين مع ما أحمله من الموز فتكون هدية تقر بها
عينه وعين امرأته وأولاده ، وتفك ضيقهم .

برافو .. هذا توفيق من الله ، إن الأعمال بالنيات .. وهكذا يفتحها الله فى
وجه كل صاحب مروءة وذى فضل .

وسألت الرجل عن ثمن البيض والحمام ، فأجابنى بأنه لا يريد أكثر من أجره
السفر ، وهى سبعون قرشاً .. مع أن السبت بما فيه لا يقل ثمنه عن مائة قرش .
ومددت يدى فى المحفظة فأخرجت للرجل جنيهاً ثم أعطيته له قائلاً :

— هذا ثمن البيض والحمام .

ثم أخرجت سبعين قرشًا وناولتها إياه قائلاً :

— وهذه أجرة السفر .. مبسوط ؟

وحاول الرجل أن يعيد إليّ الجنيه قائلاً : إنه لا يريد إحسانًا ، ولكنى أجبرته على أن يأخذه .

ومددت يدي لأحمل السبت ، ولكن شيطان الشك وسوس في نفسي فجأة قائلاً : إياها الأحق .. من يدريك أن الرجل يخدعك ، وأنه محتمل يتظاهر بالبراءة . وأن البيض تألف « ممشش » .

وترددت برهة .. من يدرينى حقًا ؟

وبدت علىّ الحيرة .. وأخذت أنقل البصر بين سبت البيض ووجه الرجل .. فوجدت وجه الرجل ينم عن منتهى الطيبة والسذاجة . وخيل إليّ أنى أظلمه بشكوكي ، وقلت لو سواس الشك : إن الرجل طيب مسكين لا يبدو عليه قط أنه محتمل .

ولكن هاتف الشك أجابنى مغیظًا :

— أيها الأبله .. إنك أنت الطيب المسكين .. والله لقد صدق أهلك حين حذروك أن تحاول الشراء .. إن البيض ممشش . إن الرجل يخدعك .

ولم أجد خيرًا من أسكت هاتف الشك .. وأثبت له أن الرجل طيب مسكين .. فقلت للرجل وأنا أتناول السبت من يده .

— أوعى يكون البيض ممشش ؟

— ممشش ؟! أستغفر الله .

وبدا الألم على وجه الرجل .. وسرعان ما مد السبت وتناول بيضة وأسرع بكسرها وأراني إياها رفعها إلى فمه وابتلعها وقال :

— يا سيدنا الافندى .. ده بيض طازه من تحت الفراخ هو احنا لا سمح الله حانا كل بيض ممشش .

ثم مد يده ، وتناول بيضة أخرى وشرها قائلاً :
— وادى واحده كان .. يا بيه دا على المكسر .

وهنا لم أجد بداً من الاعتذار للرجل عن سوء ظني ، وتناولت سبت البيض
وقد وضعت فوقه الحمامتين ، وودعت الرجل وانصرفت .

ولكنني لم أكّد أتقدم بضغ خطوات حتى وجدت إحدى الحمامتين قد قفزت
من السبت ، وأخذت تتوالب أمامي .. ثم أعقبتها الحمامة الأخرى .

وأسقط في يدي ولم أدر كيف أتصرف ؟ أترك سبت البيض والموز على
الرضيف وأعدو وراء الحمام .. أم أترك الحمام ينطلق هارباً ؟

وكرهت أن أترك الحمام يفر ، وخشيت كذلك إن أنا تركت البيض والموز .
أن أعود فلا أجدهما ، وأخيراً لم أجد خيراً من أن أعدو وراء الحمام حاملاً السبت

وقرطاس الموز .

وهكذا بدأت أتبع الحمام وأنا أصبح بالناس أن يعاونوني على الإمساك به ؛ ولم
تمض لحظة حتى كان الشارع كله قد تكأكأ وراء الحمامتين ، وأخذ الناس

يعدون ويتصايحون .. وازداد المهرج والمرج والضجيج والعجيج ، وقلب
الشارع إلى شبه مظاهرة .

وسأل أحدهم آخر عن سبب الازدحام فأخبره :

— لازم حرامى .

وسرى بين الناس أن المطارد حرامى .. وسرعان ما انقلب الصياح إلى ..

حرامى .. حرامى ..

ووجدت نفسى بين أفواج الناس المتصايحين والمتصايحين .. وقد انقطعت
كل صلة لي بالحمامتين ، ولم يعد لي أى أمل في لقاءهما ، فلم أجد خيراً من أن

أولى وجهي شطري بيت الرجل ، وعفا الله عن الحمامتين الهاربتين .

وصلت إلى البيت أخيراً .. وقد تصبب منى العرق وتصلبت ذراعى من
قرطاس الموز وسبت البيض ، ووضعت السبت على الأرض وقرعت الباب

وسمعت صوتًا نسائيًا يحينى :

— مين ؟

فاجبت الإجابة الطبيعية :

— أنا .

فعاد الصوت يسأل :

— انت مين ؟

ولم أر فائدة من أن أقول — أنا مين — لأنى واثق أنهم لن يعرفونى من مجرد ذكر اسمى .. فزيارة مثل لا تخطر لهم قط على بال .. وأجبت على سؤال المرأة بسؤالى :

— محمد افندى موجود ؟

— أبوه .

ثم سمعت الصوت يصيح :

— يا سى محمد .. يا سى محمد .. واحد عايزك .

كل ذلك والباب لم يفتح بعد ، ثم انفتح الباب فبدا لى من ورائه طاير من البنين والبنات يتطلعون بأبصارهم محملقين فى وجهى .. ثم لحت « سى محمد » يظهر من وراء الطابور . وأطل على برأسه وقد بدا عليه دهش شديد ، ثم صاح مرحبًا لى وهو فاغر فاه :

— أهلا وسهلا .. اتفضل .

وبدا عليه فجأة ارتباك شديد ورأته يهرول إلى الداخل ولم يصعب على أن أدرك سر ارتبائه فقد كان يرتدى أحد قمصان امرأته .

وأدخلنى الصبية إلى حجرة — المسافرين — وهى بضعة مقاعد لأكبر متداعية من بقايا الجهاز وقد توسطت الحجرة مرتبة فرشت على الأرض .. وأسرع أحد الصبية بطيها وحملها خارج الحجرة .

وبعد لحظة أقبل الرجل وقد ارتدى كامل ثيابه .. ولم أشك عند ذاك أنه

يتشارك وامراته ثياب المنزل ، وأن جلاله من قمصاتها .
وانهالت على من فم الرجل عبارات الترحيب .. وهو يسترق النظر بين آونة
وأخرى إلى القرطاس وسبت البيض . وبعد لحظة أقبلت امرأته وبدأت تشاركه
في الترحيب بى .. وفي استراق النظر إلى السبت والقرطاس .
وانتهزت فرصة لحظة خفت فيها ألفاظ الترحيب .. فدفعت للمرأة بالقرطاس
والسبت وقلت فى لهجة متواضعة :
— دول للولاد يا ست زكية .

— وليه يا خويا التعب ده .. حقا ما لكش حق .
ولحت رعوس الأولاد تطل من الباب وقد أرهفت السمع والبصر .
وبدأنا الدردشة .. فأخذت أقص عليهم قصة البيض والحمامتين الهاربتين ،
ولكنى لم أكد أبداً فى وصف الرجل الرفي والمرأة ، حتى وجدت الست
« زكية » تفغر فاهها .. تضرب بيدها على صدرها وتصح بى :
— يا ندامة .. هم عملوها فيك انت راخر .. هو احنا موعودين ؟
وسألتها فى دهش :
— مين هم الى عملوها فى ؟
— النصاين الغشاشين . قالوا لك عايزين أجرة السفر ؟
— أيوه .

— تمام .. زى ما قالوا لسى محمد .. وخد منهم سبت البيض والحمامتين
وفاكر أنه جاب لقطة .. وطلع البيض كله ممش .
وضحكت فى ثقة .. ونظرت إلى المرأة نظرة الاطمئنان وقلت لها :
— ما حدش يضحك على أبداً أنا اشتريته على المكسر .. كسر الرجل أمامى
بيضتين .. زى الشمس وشربهم .
— دانت الى شربهم .. دول البيضتين الوحيدتين الى مش ممشين فى السبت
كله .. ياريت ما شربهم ! كنا استغننا بيهم .

ولم أصدق المرأة .. فقد تناول الرجل البيضتين أمامي من وسط البيض ولم تكن بهما أية علامة مميزة . وطلبت من المرأة أن تحضر طبقاً لكي أثبت لها أن البيض سليم .

ولم تحضر المرأة طبقاً بل أحضرت .. حلة كبيرة .. وبدأت في تكسير البيض . وكسرنا كل ما في السبت فلم نجد به واحدة سليمة .

وسألتني المرأة في حيرة :

— والحمام طار ؟

فأطرقت برأسي في خجل شديد وقلت :

— أيوه .

— تمام .. زى ما حصل مع سى محمد .. زمان الحمامتين قاعدين دلوقت فوق سبت تانى .

وهنا أدركت الخديعة وعلمت أن الرجل الريفي وامرأته والحمامتان يكونون عصابة لبيع البيض الممشش . والحمامتان مدربتان على الجلوس على البيض حتى تتم الصفقة ثم تقفزان من السبت وتعودان إلى الرجل مرة أخرى ، لتقوما بالدور المطلوب .

وملأني خجل شديد وأحسست أني كنت أحق معتوها .. لقد خدعني رجل ريفي وامرأة ساذجة وحامتان !

ونظرت إلى قرطاس الموز فوجدت فيه بعض العزاء .. وقلت للمرأة :

— معلهش .. حصل خير .. خلى الأولاد ياكلوا موز . وقامت الست « زكية » فأحضرت صينية .. وبدأت في تفريغ الموز فإذا بالقرطاس الكبير — عزائي الوحيد — لا يحمل من الموز إلا ما يقرب من أقة ، قد وضعت على سطح القرطاس .. أما الأربع أقات الباقية .. فقد كانت عصيدة موز .. أو خليطاً من موز مخبوض تالف وحجارة وزلط وأشياء مما ثقل وزنها وخف ثمنها .. أشياء لا علاقة لها قط بالموز .

يا للرجل المختال النصاب .. لشد ما خدعنى وسخر منى وهزأ بى .. لقد كان
الفرطاس محشوا بهذه القمامة .. ولم يفعل هو أكثر من أن غطاه بيضع أصابع من
الموز السليم .. وهكذا أخذت الأقة بأربعين قرشاً .. يا بلاش .
وأحسست أن العرق يقطر منى .. وأصابنى من الخجل ما لم يصبنى فى
حياتى من قبل .. ووجدتنى أنقل البصر بين الرجل والمرأة وحلة البيض المشمش
وصينية الموز وهمست لنفسى :
— ليس الذنب ذنبى .. إنه ذنب الذى سكب النفاق والغش والخديعة فى
النهر .. ماذا يفعل ذو مروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق ؟

من ولم
لها أن

كسبر

لوقت

كونون

حتى تم
بالدور

رجل

:

الست

ير -

سطح

طاً من

أشياء

جنون المروءة

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .
 كيف تحزنون على شيء . وأنتم لا شيء ؟
 فيم حزنكم .. وبعد لحظة أو لحظات
 ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟
 أيها الناس ، لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم
 أنفسكم ضائعون .. كيف يحزن ضائع على
 ضائع ؟ .. وهالك على هالك ؟ .. وزائل على
 زائل ؟ ..

جلست أمام الرجل وامراته وقد تملكني خجل شديد . وأحسست أنه ليس
 على وجه الأرض من هو أشد مني خيبة وأكثر غفلة .. وحز في نفسي أن أجد أول
 دفعة من دفعات مروءتي تذهب بدداً .. بفضل بلاهتي ولؤم أهل الغش
 والخداع .

وتذكرت المثل الذي عودتني والدتي أن تلقاني به عندما أدخل عليها بهدية
 تافهة وهو — ياما جاب الغراب لأمه — ووجدت أني ما استحققت ذلك المثل
 كما أستحقه في هذه اللحظة .

ولم تكن فجيعتي في مجرد حزني على النقود التي ذهبت سدى ، أو في غيظي
 من أن أكون صيداً سهلاً وأحمق مأفوناً مخدوعاً يضحك عليه بائع جاهل وربني
 ساذج وحماتان بريقتان ، بل كانت فجيعتي في إحساسي بأنني قد سببت للرجل

المسكين فجيلة .. وأن إحسانى إليه قد قلب إساءة ، ومحاولتى إسعاده قد جلبت له الشقاء . فقد لوحث له بهدية براقة خاوية فردته وأولاده وامرأته حرمانًا فوق حرمان .. ونكبتة فى سبت بيض وأربع أقات موز ، فهو لا شك يشعر أنه هو المخدوع الخاسر وأن المال الضائع ماله .. وأنه — لولا خيبتى — لتمتع وأهله بالبيض والحمام والموز .. ولوفر على نفسه طعام يومين .

ولم أشك فى أن المرأة وأولادها يلعنوننى فى سرهم .. وأنهم يعتبرون زيارتى مصائبًا حل بهم .

ومضت برهة والسكون سائد والصمت مخيم .. وصينية الموز التالف ... وحلة البيض الممشى .. قد تمددتا أماننا كأنهما « قتيل » .. وعلامات الحزن قد كست وجوهنا كأننا فى محزنة .

وأخيرًا اتهد الرجل وقال فى صوت خافت ونبرات ممدودة :

— وحدوه .

فعلت أصواتنا تتبعه قائلة :

— لا إله إلا الله .

وبدأت أعود لنفسى ملقيًا عن كاهلى عبء ذلك الحزن الذى بعثته فى الخديعة التى أصبت بها .. مقتنًا نفسى بأن — قضا أخف من قضا — ولقد كانت تلك هى خير وسيلة أستعين بها على طرد ما يتتابنى من الحزن أو الندم أو الضيق وأجعل بها نفسى فى حالة رضاء تام .. فما نزل لى من مصاب إلا ورأيت فيه خيرًا مما كان يمكن أن يكون .

ما أحق الإنسان ! يجعل من حياته سلسلة مسببات للحزن . يحزن لأوهى الأسباب وأنفه العللات .. فى دنيا ليس بها ما يستحق الحزن .. إنسان تافه فى دنيا تافهة .. يحزن المرء لأن بقعة حبر قد سقطت على ثوبه الأبيض فأثقلتته ، ولو تذكر عندما أصابه الحزن على ثوبه أنه ليس أسهل من أن يطوى هو وثوبه الأبيض تحت عجلات الترام ، ليغرق ثوبه بالخير وهو هائى سعيد .

يحزن المرء لأنه غلب في صفقة وأن البائع قد خدعه في بضعة قروش ، ولو علم أن جرثومة صغيرة قد تسلبه عشرات الجنيهات لكي ينجو من مرضها لما أحزنه قروشه الضائعة .

يحزن المرء إذا فقد متعة من المتع ، ولو درى أنه في غمضة عين قد يفقد نفسه .. لما أسف على متعة زالت .

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .

كيف تحزنون على شيء ، وأنتم لا شيء ، فيم حزنكم وبعد لحظة أو لحظات ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟

أيها الناس لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم أنفسكم ضائعون . كيف يحزن ضائع على ضائع ؟

وهالك على هالك ؟ وزائل على زائل ؟

وهكذا لم يكن هناك أسهل عليّ من أن أقنع نفسي بأن « قضا أخف من قضا » وأن أهون الشرور وأخف النكبات هو ما حدث لي .. وحمدت الله على أني ما زلت سليماً معافى متمتعاً بكامل صحتي .. وحمدت الله على أنه لم يسقط عليّ بيت ولم تصدمني عربة أو ترام ، وأقنعت نفسي كذلك بأنه حتى الخديعة لم تصبني بخسارة كبيرة .. ألا يجوز أن يكون بائع الموز الذي غشني في حاجة شديدة إلى النقود التي احتال على أخذها مني ؟! ألا يجوز أن يكون الريفي صاحب البيض سيفك بنقودي ضيقاً ويقضى حاجة ؟! علام حزني إذا وكل ما فعلت لم يعد أن يكون داخلا في باب المروءة !

ثم إنني أستطيع أن أعوض الرجل عن البيض والموز بالنقود فيكون بذلك لم يخسر شيئاً .. بل ربما استطاع أن يبتاع بالنقود أشياء هي ألزم له من البيض والموز .

وهكذا سرى عني في لمح البصر ولم يبق عليّ إلا أن أسرى عن الرجل وزوجته ، وأولاده .. وهذا ما لم يكن عليّ بالشيء العسير ، إذ سرعان ما دفعت يدي في جيبي فأخرجت المحفظة وأشرت للأولاد باسمًا أن اقتربوا .

وأقبل الأولاد فأخذت أنقد كل واحد منهم نصف ريال — على الماشي — طالباً منهم أن « يشربوا » به أنفسهم ، وإن لم يداخلني شك في أن الأم ستجمع منهم النقود بمجرد مغادرتي الدار .

وأخذ الصبية النقود عدا واحد منهم بدت عليه مظاهر الخبث ، وجدته يرن القطعة الفضية جيداً ويعضها بأسنانه فنظرت إليه مستفسراً :

— مالها ؟

— أخشى أن تكون هي الأخرى ممشقة .

وضحكت مقهقهة .. وأجبت قائلاً :

— لا تخف .. إنها القطعة الوحيدة الكويسة .

ومضت برهة وأنا ألاعب الأولاد وأضاحكهم .. حتى انفرجت أسارير الأم والأب ، ولم يعد لدي شك في أن أثر كارثة البيض والموز قد زال تماماً .

وانصرف الأولاد .. وسادت الحجرة فترة صمت .. لم أشك خلالها في أن

الرجل وامرأته كانا يقصدان زناد أفكارهما لعلهما يتوصلان إلى سبب زيارتي ..

وعلة ذلك الكرم الحاتمي الفجائي الذي لا مبرر له .. ترى ما وراء كل ذلك !!

وجمعت أطراف مروءتي ، وبدأت أتجه إلى الغرض رأساً ، فسألت عن ابنهما الأكبر ، وأجابتنى الأم في تنهيدة :

— ييذاكر .

— وكيف حاله في الكلية ؟

— والله يا خويا الجدد عامل الى عليه .. حا يعمل إيه أكثر من كده ؟ لكن

الدور علينا احنا الى مش قادرين ندفع له المصاريف .

وتهد الأب وأطرق قائلاً :

— حا نعمل إيه .. العين بصيره واليد قصيره .

وأحسست بما في قول الرجل من مرارة وألم لأنه لا يستطيع أن يتيح لابنه

المجتهد الناجح فرصة إتمام دراسته ولأنه يراه يطرد من الكلية لا لإخفاقه بل لعجزه

(أرض النفاق)

هو عن أن يدفع المصروفات :

وسألت الرجل مترقفاً :

— وكم يلزمك من نقود لسداد المصروفات ؟

— عشرون جنيهاً .

ووجدتني أردد في صوت خافت « عشرون جنيهاً » .

واعجباً من هذه الدنيا ! عشرون جنيهاً هي ما يلزم الرجل لكي يؤدي بها واجباً مقدساً نحو ابنه .. بل واجباً نحو وطنه .. عشرون جنيهاً هي ما يلزمه لكي يتناع بها علماً في بلد يأبى إلا أن يبيع العلم .. عشرون جنيهاً هي ما يلزمه لكي ينتج للأمة رجلاً نافعاً .. ومع ذلك لا يستطيع الحصول عليها .

إن العشرين جنيهاً .. مبلغ كبير بالنسبة لكثيرين غيره ، ولكننا لو بحثنا عما تعنيه العشرون جنيهاً للبعض الآخر ، وعن الوجوه التي يمكن أن يصرفوا فيها العشرين جنيهاً لملكتنا العجب كل العجب .

هذه عشرون جنيهاً تمد بها الحسنة يدها في كبرياء لتدفعها ثمناً لحقية يد تمسكها يوماً أو بعض يوم ، ثم تضيفها إلى عشرات الحقايب المروضة في الصناديق . رغم أنه ليس هناك أية فائدة لحقايب اليد أو لغيرها من التوافه التي يضيع النساء فيها نقودهن .. أعني نقود أزواجهن .

وهذه عشرون جنيهاً يدفعها آخر ثمناً لبضع زجاجات من الويسكي يحرق بها

جوفه وجوف أصحابه في سهرتهم البريئة !!

وهذه — ليست فقط عشرون جنيهاً — بل مائة جنيه أي — خمسة

عشرينات — يدفعها آخر لراقصة ثمناً لبضع هزات للخصر والبطن .

وتلك .. مائة عشرين .. أي ألفان من الجنيهات دفعها صاحبها بمنتهى

السهولة على مائدة القمار .

ومالنا نذهب بعيداً .. وآلاف العشرينات تجلس قابعة في الخزائن تغطى لى

نومها .. حتى يثوى أصحابها في أجدانهم ، دون أن يفيدوا منها أية فائدة .

هذه هي العشرون جنيهاً التي يحتاج إليها الرجل لكي يعلم ابنه ، ولكي يمنع الكلية من طرده .. لشدة ما عزت عليه وهانت على الآخرين .

واعجباً !.. من هذه الدنيا ومن متناقضاتها .. أيتساوى فيها تعليم الصبي بحقيبة يد !! أيتساوى مستقبله مع بضع زجاجات من الويسكي ؟ أيفتدى خمسة منه .. بهزات من الخصر والبطن .. ومائة منه بلبلة قمار خاسرة ؟! أيكتر هذا الكهل الأحقر نقوده .. ويطرد الصبية من المدارس لحاجتهم إلى النقود ؟ تلك والله سخرية .. وأية سخرية !!

ولكن ما الفائدة من كل هذا ولو بكينا أمام الحسنة على حد قولهم « من كل عين جفان » .. واستعطفناها أن تنازل عن الحقيبة وتكتفى بالعشر التي لديها .. في سبيل أن يعود الفتى إلى كليته .. لما كان يصيبنا منها غير نظرات دهش وازدراء واحتقار .. ثم تقلب شفقتها ، وتقول من أنفها : « وأنا مالى » .

ما الفائدة .. ولو سألنا صاحب زجاجات الخمر .. أو صاحب الراقصة . أن يتنازل عن متعة ليلة .. في سبيل إنقاذ مستقبل الفتى .. لكان نصيبنا السب والطرده ؟

ما الفائدة .. ولو قلنا لصاحب الكنوز .. أخرج كنوزك ، ولو حتى لكي — تشم نفسها — لاتبهنا بالجنون .

هذه تمنيات عديمة الجدوى ، وأفكار لن تفيد الرجل بشيء .. إن المهم هو أن أفعل أنا شيئاً ، وأن أعجل بإعطائه النقود لكي يعيد ابنه إلى الكلية .

وتحسست المحفظة فشعرت بالغبطة .. إذ كان بها ما يكفي لمعونة الرجل . كان بها عشرون جنيهاً أخذتها من الدولا ب من النقود التي حجزتها للتصيف . أترى التصيف أهم من مستقبل الفتى ؟! طبعاً لا .. إن زوجتى ستفزع في مبدأ الأمر ، ولكنها بلا شك ستقتنع في النهاية وستشكرنى على ما فعلت من مروءة .

وفتحمت المحفظة وبدأت أعد ما بها من نقود .. والرجل وامرأته ينظران إليّ في

دهش شديد .. فوجدت بها عشرين جنيهاً ، وبضعة قروش .. فحمدت الله ..
إذ كانت القروش تكفى أجر الركوب لعودتي إلى الدار .
ومددت يدي إلى الرجل بالنقود وقلت ببساطة ، وقد تملكني شيء من
الحياء :

— هذا المبلغ قد يكون فيه الكفاية لإعادة محمود إلى الكلية .
وارتج على الرجل من فرط الدهش ، وبدأ لي كأنه غير مصدق ، ثم قال في
صوت خافت :

— ولكنني أخشى ألا تسمح لي الظروف برده بسرعة ؟

— لا عليك .. لا ضرورة لرده أبداً .. كان الله في عونك .

ووجدت الرجل قد اغرورقت عيناه وأطرق برأسه ، ولحت امرأته ترفع
كفها فتمسح به عينها ، ثم ترفع يديها وعينها إلى السماء وتهمس في لهجة
ملؤها الإيمان :

— يارب .. يا ما انت كريم يارب .

هل أستطيع أن أصف تلك المتعة التي أحسست بها وقتذاك ؟

لقد أحسست — من فرط المتعة التي أصابتنى — أن ما فعلته لم يكن من
المروءة في شيء .. إن ما فعلته لا يعدو أن يكون صفقة رابحة .. كل ربح .

لقد دفعت للرجل عشرين جنيهاً .. اشتريت بها من المتعة ما لا يقدر بمئات
الجنهيات .. لا تظنوا بقولي مبالغاً كاتب .. ولا تحسبوه من باب التسرويح
للفضيلة .. فأنا لا أكره في حياتي شيئاً كالنصح والوعظ .. وتأكدوا عندما أقول
إني حصلت على متعة تساوي مئات الجنيهات أنني لم أجاوز الواقع .. وأن متعتي
كانت أكثر من متعة صاحب الراقصة التي دفع لها مائة جنيه ، أو متعة المقامر الذي
دفع مئات الجنيهات .. إن متعة المروءة لا تعادلها متعة ، ولذة الإحسان ومعاونة
الغير لا تساويها لذة .. بشرط أن يكون الإنسان واثقاً من أنه قد وضع الفضل في
موضعه .

وتركت المرأة الحجرة ، وقد تهلل وجهها بشراً وفاضت من نفسها السعادة وأقبل على الرجل يشد يدي .. قائلاً :

— كيف أستطيع أن أرد لك الجميل .. إنك لم تعطيني عشرين جنيهاً .. إنك أعطيتني سعادة ابني ومستقبله .

وبعد لحظة عادت المرأة ، وقد اصططبت معها ابنا الأكبر .. محمود .. الذى لم أكن قد رأيته حتى تلك اللحظة .. فقد كان منهمكاً فى الاستذكار ، رغم علمه أن الكلية قد طردته .. وأن أباه لا يملك ما يستطيع به إعادته إليها .

وأقبل على الفتى .. نحيل الجسد ، شاحب الوجه .. وتناول يدي فطبع عليها قبلة حارة ملؤها الإخلاص وعرفان الجميل ، وقال فى صوت خافت :

— أشكرك يا سيدى .. هذا دين لن أنساه فى حياتي أبداً .

ثم جلس الفتى بجوار أبيه ، ومضت فترة سكون .. ملأني فيها إحساس بالخلج والتواضع ، وأنا لا أكره شيئاً كهذا الإحساس ، فسرعان ما حاولت إخراج نفسى منه قائلاً للصبي بصوت ضاحك :

— إذا نجحت بتفوق فسأتنازل لك عن الدين .. ما رأيك ؟

— سأتفوق إن شاء الله .. ولكن لن أنسى الدين ..

— هل ستذهب فى الغد إلى الكلية ؟

وكان سؤالى .. مجرد الحديث .. فما كان لدى أقل شك فى أن الفتى سيذهب

إلى الكلية ، إذ لم يعد هناك ما يمنعه من الذهاب ، بعد أن حصل أبوه على المصروفات .

ولكننى وجدت وجهه قد علتة سحابة هم .. وبدأ كأنما قد تذكر فجأة ما أقلقته وأزعجه ، وظهرت عليه علامات الحيرة والتردد وسمعتة يهمس إلى أمه فى صوت ملتاغ :

— البدلة !

ووجدت الأم تضرب صدرها بيدها وتحملق بعينها .. ثم تقول فى لهجة يائسة

— آه .. البدلة .

أما الأب فقد أطرق ، ثم قال في شبه تعزية :

— لا بأس .. البدلة يمكن تدبيرها .

وهزرت رأسى مستفسراً عن جلية الأمر ، فأجابتنى الأم :

— لقد بعنا بدلتك الوحيدة التى يذهب بها إلى الكلية إلى بائع الروبايكيا

في هذا الصباح .. فقد احتجنا إلى نقود .. وكنا قد ضربنا صفحاً عن عودته إلى

الكلية .. فبعنا البدلة .. أو الشئ الوحيد الذى لم يعد إليه حاجة .. يا خسارة

لقد راحت بنصف الثمن !

ونظرت إلى الفتى فوجدت حجمه لا يختلف كثيراً عن حجم أبيه فقلت مقترحاً

أحد الحلول :

— لا بأس .. يمكنه أن يرتدى بدلة أبيه .. حتى ندبر له بدلة .

وهز أبوه رأسه وتساءل :

— وأنا ؟ كيف أذهب إلى الديوان ؟

ونجست من نفسى .. فقد أخرجت الرجل .. إذ لم يكن هناك شك في أن

كل ما لديه من ثياب هو بدلة واحدة .

وهنا ظهر تأثير جرعة المروءة ، التأثير الجنونى الحاد .. الذى جعل كل ما في

من صفات قد تضاعف وانكمش إلا شيئاً واحداً هو المروءة .

لقد نهضت من مقعدى في سكون .. وبدأت في خلع الجاكطة ، ثم البنطلون

والقميص ، ووقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة واللباس والطربوش

والخذاء ماداً يدي إلى الفتى بالبدلة والقميص .

وبهت القوم .. وفغروا من الدهش أفواههم .. لقد كان كل ما فعلته بهم من

أنواع المروءة ، رغم ما به من شذوذ وغرابة — شيئاً معقولاً .. محتملاً .. قد

يفعله الإنسان وهو ما زال بعقله .. أما أن تبلغ إلى حد أن أخلع ثيابى

وأدفع إليهم بالبدلة تاركاً نفسى بالفانلة واللباس .. فهذا أمر .. لا أظن أن

الإنسان يقدم على فعله .. وهو يتمتع بقواه العقلية .
ونظر إلى الرجل وزوجته وابنه في حذر دون أن يجسر أحد منهم على أن يمد
يده ليأخذ البدلة .. وبدأوا يرقبوننى فى ذعر وخشية كما يرقبون ذا جنة !!
ولم أفهم لدهشهم سبباً ؟

أى شىء فيما فعلت يستحق العجب !!؟
إن الفتى لا بد له من الذهاب إلى الكلية .. ولا بد للذهاب إلى الكلية من بدلة
يرتديها .. إذ ليس عنده بدلة .. فقد باعوا بدلته .. وهو لا يستطيع أن يرتدى
إحدى بدل أبيه .. لأن أباه لا يملك سوى بدلة واحدة .
أما أنا فلدى عدة بدل .. فلم لا أعطيه بدلة يذهب بها إلى الكلية !!؟ هل فى
فعلى هذا أمر عجيب ؟

هل تراهم قد دهشوا لأنى خلعت البدلة فى التو والحين وأعطيها إياهم ؟ ألا
يعلمون أن خير البر عاجله ..؟
أم تراهم قد دهشوا لأنى وقفت أمامهم هكذا بالفانلة واللباس ؟ .. أجل ..
هذا هو لا شك سبب دهشتهم .

ولكننى مع ذلك لا أرى فيه ما يستحق العجب .
ترى أى فارق هناك بين أن أكون بالبدلة .. أو بالفانلة واللباس ، أو حتى
عريان ملط ؟

ما هذا الاعتبار الذى يقيمه الإنسان للملابس !!
هل هناك أدل على سخف الإنسان من مسألة الملابس ؟
لقد خلقه الله ، بلا ملابس لأنه لا حاجة به إلى الملابس ، ولو كان به إليها
حاجة .. لخلقها الله معه .. كما خلق الفراء للحيوان والريش للطيور .. فيولد
الإنسان من بطن أمه وفى قدمه حذاء .. وعلى رأسه طربوش أو برنيطة .. ولكن
الله وهو العليم الحكيم .. وجد أنه — كويس كده — .. وأن — كفايه عليه —
الجلد والشعر .. اللذين وهبهما له .. فتركه يهبط من بطن أمه عريان ملط ..

فماذا فعل الإنسان الأحمق الغبي ؟ .. هل رضى بما خلقه الله عليه ؟ .. وهل قنع بحاله كبقية المخلوقات ؟!

أبداً .. إنه لم يرض عن شكله .. الشكل الذى خلقه الله عليه .. وأبى إلا أن يضيف من عنده الخواشى .. ويضع الرتوش .. فغطى رأسه بطربوش أو قبة زاعماً أنها تزينه وتقيه لعلشة الشمس .. ولست أدري والله ماذا تفعل الشمس مع سواه من الحيوانات التى لا تغطى رءوسها .. هل تراها تصيبها بلطشة أم أنها لا تخص بلطشها إلا الإنسان ؟!

ثم حشر بعد ذلك بين ساقيه سروالا .. حتى يستر عورته .. ولو تركها عارية .. لما شعر أحد قط أنها عورة .. بل لتساوت مع غيرها من أعضاء الجسم .. ولاعتادها البصر حتى لم تعد تثير أقل اهتمام .. وليس أدل على ذلك .. من أنه كلما ازدادت النساء عرياً كلما قل تأثيرهن .

ثم بدأ الإنسان يفتن بعد ذلك وينقل كاهله بالثياب المختلفة أشكالها وألوانها .. ويخفق نفسه بالياقات والكرافات .. بلا أى سبب ولا داع ، ويصنع الفراك والأتموكن والاستامبولينا .. وغيرها من السخافات المضحكات ، ويضع على صدره القصب والنياشين .. ويحيط نفسه بالقيود والجلود .. متخيلاً أن فى كل هذا التبرج أبهة وعظمة ، موحياً إلى نفسه .. أن كل هذا يزيده قيمة .

أما الإناث ، فكان الله فى عونهن ، فقد عصين بطونهن ، وشددن صدورهن ، ومشين على أطراف أصابعهن ، رافعات كعوبهن كأنهن مصلوبات أو مشنوقات ، ملاقيات فى سبيل ملاسهن عذاباً أليماً يحتملنه بنفس صابرة .
لِمَ كل هذا أيها الإنسان الغبي ؟ لِمَ تضعي عمرك فى أوهام الملابس ؟

تصوّر لو أن أى حيوان .. فعل ما فعلت .. وارتنى من الملابس ما ارتديت ، وصنع لنفسه من ألوان المعاجين والمساحيق والروائح مثل ما صنعت .. ترى كيف كنا نضحك عليه ونستسخفه ؟!

وبهذه الأفكار عن الملابس .. وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة

واللباس بمتهى البساطة .. وقد مددت يدى بالبدلة إلى الفتى .
وكان الرجل أول من تكلم فقد استطاع التخلص من دهشه وقال لى :
— لا يا سيدى .. لا .. أوصلت بنا الأنانية إلى حد أن نخرجك من منزلنا
عارياً .. إننا نستطيع أن ندبر أمر البدلة !!
ثم قالت المرأة :

— يا ندامة .. يا عيب الشوم .. نقلعك هدومك !
وهزرت رأسى قائلاً فى هدوء :
— وماذا فى ذلك .. إن لى بدلاً أخرى كثيرة .
وهنا تكلم الفتى لأول مرة ، فقال فى لهجة ملؤها الأدب والاحترام :
— كثر خيرك يا سيدى .. إننا عاجزون عن شكرك .. ولكننا لا نستطيع أن
نأخذ بدلتك ونتركك هكذا تخرج عارياً فى الطريق .. إذا كان لا بد أن تهب لنا
البدلة فيمكنك أن تذهب إلى دارك ثم ترسلها لنا مع خادم ، أو أذهب أنا معك
لأخذها .

ووجدت قول الفتى أقرب إلى العقل .. بل هذا هو الذى كان يجب فعله ..
لولا .. همو المروعة فى جوفى وإشعاعها فى رأسى .. ولولا أنى كنت فى ذلك
الوقت مجنون مروعة .

ولم أقبل قول الفتى .. بل أصررت على أن أعطيه البدلة فى التو .. وألا أغادر
دارهم ، إلا وقد فارقت جسدى .

وبدأ القوم يتوسلون لى ويحاولون إقناعى .. وأنا مصر على رأى .. وأخيراً
لم أجد بداً من أن ألين معهم قليلاً فقلت لهم :

— إذا كنتم تصرون على ألا أخرج من بينكم عارياً ، فإنى على استعداد لأن
أستعير منكم جلباباً أذهب به إلى البيت ثم أعيده إليكم .

ووافق الرجل إزاء إصرارى .. ولكن سقط فى يده .. وبدأ عليه حيرة
شديدة .. لم يصعب على أن أدرك سببها !

إن الرجل ليس لديه جلاباب ، فلقد رأيته عند دخولى مرتدياً أحد قمصان زوجته كما سبق لى القول .. فماذا يفعل ؟
ومضت فترة والرجل حائر خجل .. فلم أجد بداً من أن أهوّن عليه وأخرجه من حيرته فقلت له :

— إذا كانت جلابيك فى الغسيل فهات أى جلاباب .. هات القميص الذى كنت ترتديه عند دخولى .. إنه لا بأس به .. فهذا يقضى .
ونفض الرجل ، وهو فى شبه ذهول ، والمرأة وابنها ينظران إلى وكأتهما ينظران إلى حيوان غريب .

وبعد برهة أحضر الرجل القميص الحرمى الذى كان يرتديه عند دخولى .
وسرعان ما ارتديت القميص .. ولحمت الفتى يحاول جهده أن يخفى ضحكة تحاول أن تنطلق من صدره .

ونظرت إلى نفسى فى مرآة قديمة بالحجرة .. فوجدت نفسى — مش بطل — حقيقة أن القميص كان قصيراً ، يصل إلى ما فوق الركبة ، ويكشف عن الشراب والحالة .. وحقيقة أن فتحة الصدر كانت — مقورة — جداً .
وأن القميص كان بلا أكمام . إلا أن منظرى — على بعضه — كان مقبولا .. عدا ذلك الطربوش الذى كان يبدو على رأسى كأنه شيء نشاز .

والواقع أن القميص كان مريحاً جداً .. إلى الحد الذى جعلنى أصبر وقتذاك على ألا أرتدى البدلة قط ، وأن أحاول جهدى حث الناس على مقاطعتها .
وهكذا وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه ، وقد ارتديت قميص النوم والطربوش والحذاء والشراب وحالة الشراب وببدي المحفظة لا تحتوى إلا بضعة قروش تمكنتنى من العودة إلى البيت راكباً الترام .

ومددت يدى مودعاً القوم ، وقد بدت على وجوههم الحيرة والأسف والذهول ، وخرجنا إلى القاعة ، وهنا سمعت زوبعة من الضحك .. صادرة من بقية الأبناء الذين لم يكونوا قد رأوا فى بعد وأنا على حالى تلك .

فنهزم الأب .. وزجزتهم الأم .. وهبطت على السلا لم محاطًا بخليط من ألفاظ الترحيب والاعتذار وصدى الضحكات .

وتركت الدار وذلفت إلى الطريق .. وسرت برهة دون أن أحس بأية غربة .. بل كأنى ارتديت إحدى بدلات التشريفة .

وكان الطريق أمام الدار خاليًا إلا من بضعة أشخاص منهمكين في أعمالهم .. فلم يثر منظرى في نفوسهم اهتمامًا .. واستمرت في السير على هذه الحال حتى وصلت إلى شارع الحسين .. وهنا أحسست أن الناس بدعوا يتغامزون على ويشيرون إلى كأنى أعجوبة .. ولكنى لم ألق إليهم بالا .. وسرت في طريقي دون أن ألتفت يمنة ولا يسرة .

ولكن التغامز زاد .. حتى أضحي — تلقيحًا — وبدأت التكات تنهال على من الجانبين ، وبدأت أسمع — انت يا باشا — .. و — يا أبو القميص الشفتشى — وأخذ الأمر يزداد حرجًا .. وبدأ الضحية يتكأكون على حتى سقط في يدي .. ووجدت أنى لا أستطيع أن أواصل السير على هذه الحال .

ولمحت أحد التاكسيات مقبلاً فوجدت فيه خير منقذ .. فأشرت إليه وسرعان ما اختفيت في داخله ، وطلبت من السائق أن ينطلق إلى مسرعًا إلى البيت .

وهكذا انطلق إلى التاكسي مخترفًا قلب القاهرة ، والسائق ينظر إلى في دهشة بين آونة وأخرى .. وقد تملكته حيرة شديدة من منظرى حتى وصل أخيرًا إلى باب البيت .

وهبطت من التاكسي ، فإذا بى أجد أخى أمامى وجهًا لوجه .

هو نظر إلى وفرك عينيه كأنه غير مصدق .. ثم سألنى في ذهول :

— إيه الحكاية ! مالك المره دى .. لسه مصاب بالشجاعة !!

وهزرت رأسى وقلت مؤكداً :

— لا .. المره دى .. مجنون مروءة !!!

بلا نفاق

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة ، وأفاع
 رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم
 إحسانًا فاقدف به إليهم ثم اجر من أمامهم ..
 اعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد
 الشكر .. انج بنفسك .. واذكر المثل .. اتق
 شر من أحسنت إليه ..

وقفت بباب الدار مرتديًا قميص النوم الحريري والطربوش ، وقد أخذ أخى
 يحملق في وجهي في دهشة شديدة .. ويفحصني ببصره من أسفل إلى أعلى ،
 ومن أعلى إلى أسفل . وطالت به الحملقة ، وهو واقف في مكانه كالصنم حتى
 ضقت ذرعًا فصحت به :

— ما لك تحملق في ؟ كأنك لم تر بنى آدم من قبل
 وهز أخى رأسه بشدة كأنه يحاول أن يوقظ نفسه .. ثم لمس عينيه بأصبعه
 ليتأكد من أنه في حالة يقظة ، ثم نقل بصره بيني وبين سائق التاكسي وسألني
 هامسًا :

— أسار بك التاكسي في الشوارع وأنت بحالك هذه ؟
 — بل لقد سرت أنا بنفسى على قدمى بين الناس بحالى هذه !! ماذا بها ؟
 عيب !؟

— أبدًا .. عيب ازاي .. ما عيب إلا العيب .. والعيب من أهل العيب مش

عيب .. من قال إن السرير بقميص نوم حريمي في وسط البلد عيب ؟
وتبينت في قوله رنة سخرية ، فقلت له مغيظاً :

— أيها الغبي الأحمق .. ماذا يضيرني أن أسير بقميص النوم أو بسواه ؟ ماذا
يمكن أن يغير مني هذا الكساء البالي ؟ إني أنا ، هو أنا .. سواء ارتديت قميص
نوم .. أم بدلة تشريفة .. أم ملاية لف .. هذه مجرد قشور .. لا علاقة لها بجوهر
الإنسان .. فاهم ؟

وأطرق أخى ، وقال في يأس :

— فاهم .

وأشرت إلى التاكسي ، وقلت له آمراً :

— ادفع أجرة التاكسي .

ودفع أخى أجرة التاكسي ، ودلفت وإياه إلى داخل الدار وسألنى
مستفسراً :

— وأين بدلتك ؟ هل تنوى الدخول عليهم بهذا المنظر ؟

— أما عن البدلة فقد تصدقت بها .. وأما عن سؤالك عما إذا كنت أنوى
الدخول عليهم بهذا المنظر .. فأني لا أجد له معنى .. لأنك ترائي داخلا معك
فعلاً .. ثم تظننى أخشى ؟

هل تجد فيما فعلت جرماً ؟ إني رجل صاحب مروءة .. هذا كل ما في
الأمر . فإذا كانت المروءة تهمة يحجل الإنسان من ارتكابها .. فأني موافقك على
أننى مجرم خاطئ .. وأنه يجب أن أخشى عاقبة كل ما فعلت .. وأن أخجل من
منظرى هذا .. الذى سببته لى جريمة المروءة .. لا .. لا .. إن منظرى هذا
يستحق الفخر .. إني لا أخشى ..

ولم أتم حديثي فقد وجدتنى وجهاً لوجه أمام امرأتى .. وقد تطاير من عينيها
شرر مخيف .. وبدت كأنه قدر كبتها مائة عفريت .. أو كأنها عاصفة على وشك
الهبوب .. أو حيوان مفترس سيتحفز للانقضاض علقى .

وأدهشني غضبها .. وعجبت لتلك الثورة التي نوسك أن تلقاني بها .. إذ لم أذكر أنني قد فعلت شيئاً أستحق عليه ذلك الاستقبال الرائع .. وكسوت وجهي بابتسامة هادئة ، وهزرت رأسي مستفهماً :

— إيه الحكاية .. كفى الله الشر ؟

ولكنها لم تجبني ، بل انطلقت منها صيحة كالرعد ، استطعت أن أميز منها :

— كنت فين ؟

— عند محمد أفندي .

ورأيتها تضغط على أسنانها ، وقد زوت ما بين حاجبيها .. ونظرت إلي نظرة مفترسة ملؤها السخرية والاثام :

— محمد أفندي ؟ .. محمد أفندي دا يبقى مين ؟

— محمد أفندي الباجوري .. ابن ابن خال زوجة عم أُمِّي .

وبدأ لي كأن إجابتي زادتها لهيباً .. وأنه لم يبق سوى سؤال آخر ، ثم تنفجر ، وتملكني من تلك الحالة دهش شديد .. فقد وجدتني أقف أمامها موقف المتهم وأى متهم ؟ منهم بشر أنواع الجرائم التي يمكن أن يفكر فيها إنسان ، واقتربت منها لتهدئتها .. محاولاً أن أفهم سر ثورتها .. وسر تلك الأسئلة المحققة التي تلقينا على .

ولكنني لم أكد أقرب منها حتى دفعت يدي بشدة ، ثم انفجرت باكية وارتمت على الأريكة ، ونظرت إلى أخي ، وقد تملكنتي الحيرة وسألته :

— ماذا حدث .. هل أصابتها جنة ؟

وأجابني الأخ العزيز في سخرية :

— هي التي أصابتها جنة ؟ سبحان الله !

وأجابتنني « حماق » التي دخلت الحجرة على صوت بكاء ابتها بنظرة معناها : « جن لما يلخبطك » .

ثم نظرت إلي وقد رفعت حاجبيها في دهش شديد :

— ودا أصله إيه دا كان ؟

ولم أجبها .. بل أجابتها زوجتي وهى تشج باكية :

— كان عند محمد أفندى .. محمد أفندى ابن خال مرات عم أبوه ، تصدق

الكلام ده يا ماما ؟

وقالت الحماة .. حماها الله :

— محمد أفندى دا بيخرج الناس بقمصان نوم حريمى ؟ حقا بطلوا ده ..

واسمعوا ده .

وهنا بدأ يتكشف لى الأمر .. ويدا لى أننى متهم بتهمة خطيرة ، فإن قميص

النوم الحريمى قد وجه شكوكهم إلى ناحية لم تخطر لى قط على بال .

أجل .. إن امرأتى ظنت أننى لا بد مقبل فى النو من بيت امرأة .. عشيقه أو

رفيقة أو من بنات الهوى .

وفعلا بدأت الموجة الغاضبة تفصح عن شكوكها وتدل بتهمتها :

— دى؟ معقولة !! تخرج من بيت محمد أفندى بقميص نوم حريمى !! أنا مش

حاستنى معاك ولا ثانية .. اتفضل روح عند اللى كنت عندها .. اللى ادتك

قميص النوم بتاعها .

— يا شيخه ما يصحش الكلام ده .. عيب .. إهدى شويه وخليتنى أشرح

لك الحكاية .

— حكاية إيه وهباب إيه .. هو انت خليت حكاية . واحدة داخل من بره

بقميص نوم حريمى .. عايز إيه أكثر من كده .. أبدا .. ما اقعدش معاك أبدا .

— يا ستى حلمك .

وهنا تدخلت الحماة العزيزة :

— حلمها ازاي ؟! دا انت خليتها خل . دا حتى المثل يقول .. إذا ابتليتكم

فاستروا .. والا لازم تبقى حاجة على البهلى .. هو كل من رافق له واحده ..

يقوم يجى البيت بقميص نومها ؟

وهنا لم أطق صبراً، وأحسست أنى أوشك أن أجن فعلاً وصحت بهم صارخاً :
— يا ناس يا هوه .. حاتجنونى .. رفيقة إيه وبتاع إيه .. هى المروءة دى ما
تنفesch أبداً فى البلد دى .. هو يعنى حرام لما الواحد يعمل مروءة .. ويحسن
ببدلته على واحد محتاج .

ونظرت إالى امرأتى فى غيظ شديد :

— يحسن ببدلته على واحد محتاج !! طب وقميص النوم جيته منين ؟

وأجابتها حماق متهمكة :

— لازم قميص المحتاج .. أصل محتاجين اليومين دول ما يلبسوش إلا قمصان

نوم !!

وقلت أنا ببساطة :

— لا .. دا بتاع أمه !!

وهنا تدخل أخى فأمسك بذراعى وحاول أن يخرجنى إلى حجرى قائلا :

— يا أخى إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ محتاج مين اللى ديتة بدلتك واداك قميص

نوم أمه ؟ . يا أخى عيب .. خليك عاقل .. انت جرى لعقلك إيه ؟

ونظرت إلى أخى فى حق قائلا :

— انت كمان مش مصدق ؟ .. لا .. دى حاجة تجن ..

وبدأت أضرب كفأ بكف مردفاً القول :

— يا ناس .. يا هوه .. هى عجيبه إن الواحد يعمل مروءة فى الزمن ده ؟ بقى ده

جزاى علشان الراجل محمد أفندى الغليان صعب على .. رحت أساعده بكام

جنه يسدد بهم مصاريه ابنه ١٩ ده جزاى علشان إديت الولد بدلتى يروح بيها

الكلية ١ . ده جزاى علشان مرضتش أكسفهم وأخرج عريان وخذت منهم

القميص أستريه جتتى ١٩ سبحان الله ١ بقى بعد ده كله يتقال على رجل خياص

ومرافق .. اخص عليكم .

ونظرت إلى زوجتى فبدلى أن غضبها قد اشتد .. وأنها لم تفهم من قول

(أرض النفاق)

إلا شيئاً واحداً هو الذى اخترق أذنها واستقر فى رأسها ليزيدها اشتعالاً وهو
قولى : « رحت أساعده بكام جنيه يسدد مصاريف ابنه » فقد نظرت إلى محملقة
وسألتنى :

— انت خدت فلوس من الدولاب ؟

وهزئت رأسى ببساطة وقلت :

— عشرين جنيهاً .

— وضيعتهم ؟

— ادبتهم للراجل الغلبان يفك بيهم ضيقته .. مش أحسن ما نضيعهم احنا فى
التصنيف .

وهنا بلغ السيل الزرى ، وخيل إلى أنها توشك أن تلطم خديها ، وترقع
بالصوت .

ووجدت أخى قد بدأ يتدخل تدخلًا جدياً ، فاقترب منها ثم همس فى أذنها
ببضع كلمات .. لم أستطع تمييزها .

ووجدت امرأتى قد كفت عن البكاء فجأة .. ونظرت إلى نظرة فزع
وذعر .

وبدا عليها حذر شديد .. ووجدت « حماق » تتراجع ببطء متفهقرة بانتظام
من الحجرة .

فلم أشك عند ذاك . فيما قاله الأخ لهما .. إنه لا ريب قد عاد إلى اتهامى
بالجنون ، ولقد همس فى أذنها مذكرًا إياها بما سبق أن قال لها عن حاله الجنون التى
أصابتنى أول مرة عندما طلبت منه أن يذهب ليحضر لى جرعة جبن ، وهو يؤكد
لهما الآن أن التوبة قد عاودتنى وأن قميص النوم الذى أرتديه .. لا يمكن أن يكون
دليلاً على أنى عائد من عند امرأة .. فما من رجل يذهب إلى عشيقته ويعود إلى
داره بقميص نومها .

إن المسألة كلها ليست أكثر من حالة جنون .

هذا هو ما همس به الأخ لزوجتى وحماق ، وهذا هو ما استطعت أن أقرأه فى

غينهما .. وفي حر كاتهما .. وفي مغادرتهما للحجرة في خوف وحذر .
وأقبل على الأخ وقد كست وجهه ابتسامة مصطنعة .. تمامًا كما يقبل المرء على
مجنون يحاول تهديته .. وأخذته على عقله .

وتذكرت ما فعله بي في المرة السابقة .. عندما طلبت منه أن يغيشني من
الشجاعة بجرعة جين ، وكيف خدعني وغرر بي وأفهمني أنه سيحضر لي كل ما
أطلب ، ثم خرج من الحجرة وأغلق بابها بالمفتاح محاولاً حبسي حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وتذكرت أنه لولا شجاعتي التي دفعتني إلى القفز من
النافذة لكنت الآن نزيرل المستشفى .

ولم أشك في أن الأخ المحترم ينوى الآن أن يكرر معي ما حدث في المرة
السابقة ، وأنه سيوافقني على ما أقول ، ثم يحاول حبسي بعد ذلك . وسيكون
بالطبع أشد حذرًا ، فلا يترك لي فرصة الهرب من النافذة .. وحتى لو ترك لي هذه
الفرصة فما أظنني أستطيع الاستفادة منها .. فما دفعني إلى القفز في المرة السابقة
إلا تلك الشجاعة الطارئة التي كانت لي .. أما هذه المرة فلا أظن المروءة
ستجدني نفعًا في الهرب من الحبس الذي ينوى الأخ أن يضعني فيه حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وعلى ذلك فيجب علي أن أكون حذرًا ولا أمكنه من
خداعي .. بل أحاول جهدي أن أفر من الدار بأسرع من لمح البصر .

ووجدت أخي يربت على كتفي برفق ويقول محاولاً التفرير لي :

— لا تغضب منهم .. فهم معذورون .. لا يفهمون معنى للبر أو المروءة ..
إنهم أنانيون لا يقدرون المعروف . نعم ما فعلت في الرجل وابنه .. إنك إنسان
كامل الخلق .

ووجدته يسحبني من يدي إلى حجرتي . ففهمت ما يقصد . وقلت :

— عن إذنك .. دقيقة واحدة .

وسحب ذراعي من يده ، وانجهت إلى دورة المياه .. وفتحت باب المطبخ
المؤدي إلى سلم الخدم .. ثم هبطت السلم على أطراف أصابعي حتى وصلت إلى

الحديقة ، والأخ ما زال واقفاً في الحجرة ينتظرني ويدبر خطة حبسى .
ووصلت إلى الباب وخرجت منه متسللاً ، وبعد لحظة احتوانى الطريق مرة
أخرى .. ووجدت نفسى محراً طليقاً . فاندفعت أعدو بأقصى ما أملك من
سرعة بالطربوش وقميص النوم الباتستا المقور المشغول بالأجور .
اندفعت فى الطريق أسابق الريح .. والريح — سامعها الله — تندفع داخل
القميص فتنفخه وتملؤه بالهواء .. فكأنى أعدو لابساً باراشوت .. والطربوش قد
انكبس على أذنى ، وبدأ العرق ينز من أسفله ، وحالة الشراب قد سقطت فتدلى
الشراب على قدمى وأخذت الحمالة تفرع ساقى والأرض .. وأنا لا آبه
ولا أتوقف .. فما كنت أفكر إلا فى شيء واحد .. هو الوصول إلى حانوت
الأخلاق .

أجل .. إنى لم أعد أحتمل !!
لقد استجرت من الشجاعة بالمروءة . فكنت كالمستجير من الرمضاء
بالتار .. إذ أصابتنى المروءة بشر مما أصابتنى به الشجاعة .
صدق تاجر الأخلاق فى كل ما قال .. لقد حذرنى من المروءة فلم أزد جر ولم
أرتدع .

اندفعت بين الناس حاملاً مروءتى بين جنبى أبحث بينهم عمن يستحق المروءة
فأعياى البحث .. ووجدت أن النفاق والخداع والغش قد حجب حقيقتهم ..
حتى استحال على أن أعرف من يستحق ومن لا يستحق .. وأن الطلاء زائف ،
والمظهر غرار خداع .. إن الشحاذين أصحاب ثراء .. وأصحاب الثراء
شحاذون .. وما من فارق هناك بين مجمع الشحاذين .. ومجمع أصحاب
الملايين .

وعثرت على من يستحق المروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق .. فأعطيته
مما أعطانى الله ، وعدت إلى الدار قرير العين ناعم البال .. منتظراً أن أقابل
بالإعجاب والتقدير . فماذا كان مصيرى !؟

لقد اتهمت بأننى خائن أثيم .. ولم ينقذنى من التهمة .. إلا تهمة شر منها هى الخيل والجنون .

لا .. لا .. مالى أنا وللشجاعة والمروءة ؟! مالى أنا ولهذه البلايا والمصائب !! مالى أنا وللبضاعة البائرة .. أجلس بها الشقاء لنفسى ؟! لقد صدق التاجر والله حين قال إنها بضاعة عفى عليها الزمن فلم تعد تلائم أهل هذا الجيل . وتذكرت صاحبنا شديداً الطيبة جم المروءة .. جلسنا معاً ذات مرة فى مجمع من الأصدقاء .. وسمع من أحدهم أنه يحس أحياناً بضيق فى التنفس وزفير متتابع .. وبرودة فى الأطراف ، وأنه عرض نفسه على بضعة أطباء فأعياهم علاجه .. وهنا تطوع صاحبى ذو المروءة .. فأنبأ صاحبنا بأنه يعرف قريباً له كان مصاباً بنفس العلة ، وأنه قد شفى منها تماماً بفضل أحد الأدوية ، ثم ذكر له اسم الدواء شكره صاحبنا وأنبأه أنه سيحاول تجربته .

وتفرقنا بعد ذلك وذهب كل منا إلى داره .. ونسى صاحبى ذو المروءة كل ما كان من أمر الرجل المريض .. حتى استيقظ فى منتصف الليل على صوت ضجة بالباب وطرق شديد .. ففتح الباب مذعوراً .. فإذا به يجد اثنين من رجال البوليس ، يسألانه هل هو فلان أفندى ؟ فأجابهما بالإيجاب ، فسحبا من عنقه .. وجراه إلى النيابة .. فإن الرجل المريض .. قد أعانه الدواء الذى وصفه له .. على الموت ، فمات لساعته .

وحدث الله أن مروءتى لم تزج بى إلى مثل ذلك المأزق .

من يدرى !؟ ربما لو طال بى الأمر معها .. لفعلت بى شراً من ذلك . وهنا كنت قد وصلت إلى حانوت الرجل وقد بلغ بى التعب أشده ، فارتميت على أحد الشوالات وأنا ألثت من فرط التعب وقد تصيب منى العرق .

ونظر لى الرجل وقد انطرحت أمامه كجثة هامدة .. وبدا عليه أنه لم يميزنى لأول وهلة ، فقد علت أساريه دهشة وأخذ يرمقنى بنظرة فاحصة .. محاولاً أن يعرف حقيقة موضعى بين الجنسين : الخشن واللطيف .. فمارأى من قبل رجلاً

يرتدى قميص نوم بنتنة .. وما رأى كذلك امرأة ترتدى طريشا وشرابا بحمالة
وتبدو ساقاها عجفاء كساقى .

وأخيرا عرفنى الرجل فزادت دهشته وهتف لى :
— أنت !!

وأجبتة وأنا أخرج من صدرى زفيرا طويلا :
— أجل أنا .

— وماذا جعلك على هذه الحال ؟ وفيم ارتداؤك ذلك الثوب النسائى ؟

— مروءتك يا سيدى .. هى التى فعلت لى كل هذا .

— وكيف ؟ وما دخل المروءة بهذا القميص الذى ترتديه ؟

— لقد أحسنت ببدلتى .. ولم يكن لدى القوم شئ أرثديه بدلها .. سوى
هذا القميص فارتديته .

— آه .. فهمت .. هذه مروءة من النوع الحاد .. أو ما تسميه حمى
المروءة .. ماذا فعلت بك أيضا سوى ذلك ؟

وبدأت أقص كل ما حدث لى منذ تناولت جرعة المروءة ، وكيف وضعت
له النقود بين الشوالات — وكانت النقود وما زالت فى موضعها لم يمسه
الرجل — ثم شرحت له مروءتى مع الكلب وكيف عض الأهل واحدا واحدا ..
وقصصت له قصتى مع الشحات وما رأيته فى مجمع الشحاذين ، ثم ذهبت إلى
محمد أفندى وشرأتى الموز التالف والبيض المشش وذهاب الحمامتين .. ثم
إحسانى إليه بالبدلة والعشرين جنيها ، وعودتى إلى الدار بالقميص ، والعاصفة
التي استقبلنى بها الأهل .. وما فعله معى أخى .. ثم فرارى منهم وعودتى إليه .
وانتهيت من قصتى ووجدت الرجل يهز رأسه ويقول :
— احمد الله .

— علام ؟! وماذا يمكن أن يصيننى شر من هذا ؟! اللهم إلا إذا كنت تعنى أن

أحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

— بل احمد الله لأنه لم يصيبك بشر من هذا .. إن للمروءة مصائب شراً بكثير مما أصبت به .. احمد الله على أنك نجوت بجلدك .

— كيف ؟

— كان يمكن مثلاً .. أن تحسن بكل بدلك بدلاً من أن تحسن ببذلة واحدة .. أم أنت تعتقد أنه ليس هناك من يستحقون الإحسان سوى ذلك الفتى الذي أحسنت إليه ١٩ وكان يمكن أيضاً أن تعطى كل مالك للمحتاجين .. حتى تستحق أنت المروءة .. فلا تجد من يحسن إليك .. بل تجد من أحسنت إليهم بمالك قد تنكروا لك .. بل ربما كانوا أكثر الناس تسابقاً إلى إيذائك والذيل منك . هل تعرف المثل القائل : « اتق شر من أحسنت إليه » إنه مثل صحيح مائة في المائة .. فإن الناس قد انطخوا على الخبث والسفالة والدناءة ، فليس أسهل على البشر من نسيان الإحسان .. وإنكار الفضل .. واعتباره بمضى المدة حقاً لهم وواجباً عليك نحوهم لا بد لك من تأديته .. فإذا أرغمتك الظروف على منعه عنهم ملأ نفوسهم السخط عليك والتبرم منك .. واتهموك بأنك ظالم قاس . أجل يا سيدى .. إن شر ما فى النفس البشرية هى أنها تعتاد الفضل من صاحب الفضل ، فلا تعود تحس به فضلاً .. بل تراه أمراً طبيعياً .. ويدفعها ما جبلت عليه من طمع إلى أن تستزيد منه .. وإلى أن تكون أول من تحسد صاحب الفضل على ما أعطاه الله وحياه .

هذه هى مصيبة المروءة .. بذرة طيبة فى أرض جدداء .. تبذر الحب لتحصد الشوك .. وتطعم الفم فيعضك الفم ويمتص منك دماءك التى يستكرها عليك ويستخسرها فيك !

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة وأفاع رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيم إحساناً فاقدف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. أعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك . واذكر المثل .. اتق شر من أحسنت إليه .

وصمت الرجل .. وفكرت فيما قال ، فوجدته لم يعد جادة الحق ..
وذكرت ذلك الرجل الطيب الكريم الذى دفعت الظروف فى طريقه بامرأة
خاططة قد حملت سفاحًا .. فبكت على قدميه وتوسلت إليه أن يعطيها إحسانًا
يعينها على الحياة هى وطفلها .. فرق قلب الرجل ، وأعطى المرأة مبلغًا من
المال .. وتعود بعد ذلك أن يحسن إليها كلما لجأت إليه ، وبمر الأيام .. أضحى
الإحسان راتبًا شهريًا ، ولم تعد تجد المرأة فيه إحسانًا بل حقًا ، واستمر الرجل
يدفع المبلغ عن طيب خاطر .. حتى أصيب بضيق مالى .. ووجد نفسه عاجزًا
عن الاستمرار فى أن يهب للمرأة ما تعود أن يهبه .

وطالبت المرأة بالنقود .. وألحت عليه وأثقلت .. تمامًا كأنما تطالب بدين
لها .. ولم يستطع الرجل أن يدفع .. فقد كان هو نفسه فى عسر شديد .
هل تدرون ماذا حدث ؟

هل تدرون ماذا فعلت المرأة التى أنقذها الرجل وابنها من الموت جوعًا ؟ لقد
اشتكت الرجل ١١ اشتكته أمام المحاكم والقضاء .. زاعمة أن الطفل هو ابن الرجل
منها .. وأنه تعود أن يدفع لها مبلغًا من المال لتربيته ، والتكفل به لكى يبعدها عنه
ويتقى الفضيحة .

وهكذا ردّت المرأة جميل الرجل .. تمامًا كما تفعل الحية الرقطاء والكلب
المسعور .

قاتل الله المروءة فى أرض الأفامى ومسعور الكلاب ١١
ونظرت إلى تاجر الأخلاق .. ثم نظرت إلى نفسى وأخذت أفكر فيما أنا
فيه .

ترى كيف أستطيع أن أقضى الأيام الباقية بتلك المروءة التى تصطخب فى
نفسى ١٢ لقد فعل لى يوم منها كل هذه المصائب والبلايا التى لا يرى فيها التاجر
إلا أمرًا هيئًا بالنسبة لما كان يمكن حدوثه .. فما بالكم إذا بكل الأيام الباقية ١٣
وأطرقت فى يأس ولوعة .. وقلت للتاجر فى صوت خفيض :

— ما العمل ؟

— فيم ؟

— في مصيبتى !! فى المروءة الحامية التى أثقلت بها جوفى .. كيف أستطيع

التخلص منها ؟

وهز الرجل كتفيه وقلب شفتيه وأجاب :

— ليس أمامنا سوى نفس الطريقة .

— أية طريقة ؟

— التى نخلصنا بها من الشجاعة .. خذ جرعة أخرى من أى شوال يعجبك .

الصدق . الوفاء . الشهامة . الصراحة .. انتق من الأخلاق المرصوفة ما

يعجبك .. وخذ منها جرعة تضيع ما بك من مروءة .. وتحل هى محلها .

وهزرت رأسى بشدة :

— لا .. لا .. هذه طريقة غير مجدية . طريقة الاستجارة من الرمضاء

بالتار .. ليس هناك شىء خير من سواه ، ولا نوع أخف من غيره .. كلها ستلقى

بى إلى نفس المصير ، وتودى بى إلى التهلكة .. ما الفائدة فى أن أستبدل بالمروءة

شهامه .. ثم بالشهامه صراحة . لا . لا داعى لأن نضحك على أنفسنا . هذا

حل لا فائدة فيه .

— ليس هناك حل سواه .. هذا هو كل ما عندى .

— فكر يا سيدى .. فكر .. ابحث هنا أو هناك . مالك تسدها فى وجهنا !

— الدكان أمامك .. ابحث كما تشاء !!

— ابحث أنت .. فأنت تعرف خبايا حانوتك .. قد تجد فتات بخل .. أو بقايا

حرص . وجشع . لا بد أن يكون لديك شىء مضاد لهذه المروءة التى ملأت بها

معدنى .. ابحث أرجوك ..

— قلت لك .. لا فائدة .. لا تضع وقتك فى كلام لا يجديك نفعاً .

— إذًا فما العمل ؟

وهز الرجل كتفه وأجاب :

— ليس هذا من شأنى ، لقد حذرتك كثيراً .. فأبيت استماع النصيحة ..
يجب أن تتحمل عبء ما فعلت ، وأن تصبر بضعة الأيام الباقية .
— أنا أصبر بضعة الأيام الباقية ؟ أنا أعود مرة أخرى فأنتطلق بين الناس بتلك
المروءة الحادة الجنونية ؟ لا .. لا .. لا . إن هذا هو الانتحار .. ولخير لى أن أوفر
على نفسى جهد العودة .. فأقتل نفسى هنا .. أمامك .

ثم رفعت يدي وأحطت بهما عنقى ، وبدأت بالضغط عليه ، وأخذ وجهى
فى الاحمرار شيئاً فشيئاً ، وهنا رأيت الرجل يثب من مكانه فيمسك بذراعى
ويأخذ فى فك يدي من حول عنقى صائحاً بى :

— أيها الأحمق ماذا تفعل !! أية مصيبة هذه التى تنوى أن تجلبها على .. مالى
أنا بك .. لقد كان يوماً أسود يوم حضرت إلى .. مادمت تعرف أنك لا قبل لك
على ما تحمل الأخلاق الفاضلة .. ماذا دفعتك إلى تناولها ؟ ولكن الذنب ذنبى فقد
كان يجب أن أعرف أنك طفل صغير .

وأخذ الرجل يحرق فى غيظ وحنق .. ومضت فترة صمت قصيرة قطعها
بقولى :

— ماذا تنوى أن تفعل بى ؟

وبدت الحيرة على وجه الرجل وأجاب وهو يهز رأسه :

— وماذا أستطيع أن أفعل .. ابق معى بضعة الأيام الباقية .. حتى يذهب
مفعول المروءة .. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك ، وهو أن أعمل بقلبك معى
حتى تعود إلى ما كنت عليه من سوء الخلق .

وفكرت قليلاً .. فلم أجد هناك حلاً سوى ذلك .. فليس أمامى سوى أن
أحبس نفسى فى حانوت الرجل حتى ينتهى أجل مروءتى .. فأعود بعد ذلك من
حيث أتيت .

وخيل إلى أن المسألة لن تكون أمراً سهلاً .. فإن بقائى فى حانوت الرجل قابلاً

بين الشوالات ثمانية أيام لا شك سيقطننى مللا .. فليس لدى الرجل أن نوع من أنواع التسلية .. لا طاولة .. ولا دومينو ، ولا كتشينة ، ولا حتى نساء .. أتسلى بمغازلتهم وسماع سخافاتهن .. ومع ذلك فقد كان هذا خيرا من انطلاق بين الناس أوزع المروءة ذات اليمين وذات اليسار إذ كان أسلم عاقبة وآمن شرا .

وقلت للرجل من باب الاعتذار :

— ولكنى أخشى أن أثقل عليك .

— عبء لا بد منه .. سأستطيع أن أتحملك .. على ألا تكثر من الثثرة .

— والأكل ؟

— ماله الأكل .

— هل عندكم طعام يكفينى ؟

— سنقتسم طعامى .. هل عندك أسئلة أخرى ؟

وقبل أن أجيبه .. رأيت فأرا قد قفز من أحد الشوالات فهبط فى حجرى فوثبت من مكافئ فرعا .. وقذفت الفأر بعنف من حجرى فقد كنت لا أكره شيئا كالفيران ، ثم خلعت حدائق وهممت بأن أهجم على الفأر لقتله . ١١ . ولكن الرجل أمسك يدي ، ثم أخذ الحذاء منى وقذف به بعيدا ، ووجدته يقترب من الفأر الذى كان يقف فى صمت واستسلام دون أن يحاول الهرب وحمله فى يديه برفق وأخذ يربت عليه محاولا طمأنته .

وتملكتنى الدهشة من تلك الصداقة البادية بين الاثنين ، وصحت بالرجل متسائلا :

— ما هذا ؟

— فأر .

— أنا أعلم أنه فأر .. ولكن ما حكايته ؟

— فأر .. حمار .. مثلك تماما !

ورفعت حاجبى فى دهش من هذا السباب الذى يطلقه على الرجل ببساطة

وقلت له :

— أشكرك ..

وهز الرجل رأسه بمعنى « العفو » وعدت أسأله :

— هل لك أن تخبرني كيف كان الفأر .. حمارًا .. وكيف كان مثلي تمامًا ؟

— المسألة بسيطة .. لقد فعل كما فعلت .. ألقت به الظروف السيئة إلى

حانوتي ، وكما فعلت أنت .. أتبل على الشوالوات يقرضها بغاوة ويلتهم مما بها ..

ولم تمض بضعة دقائق حتى كان الفأر المسكين .. على خلق عظيم .. أجل . لقد

أضحى فأرًا مثاليًا ، بلا خبث ولا مكر ولا جبن ، ولا سرقة . وجدته يقترب

منى في أدب وشجاعة كأنه يعتذر عما أكله من حانوتي . ثم انصرف بعد ذلك

إلى سبيله .. ولم تمض بضعة أيام .. حتى عاد إلى أمره مرة أخرى .. تمامًا كما

عدت .. هزيلة نحيلة .. تعسا بائسًا .. كيف لا .. وقد أضحى يسير أمام الناس

كأى مخلوق له حرية الظهور والسير ؛ وأخيرًا انتهى به الأمر إلى أنه تعرض

للتهلكة ، ووجد أنه لا يستطيع العيش بهذه الأخلاق .. وأن الفأر .. يجب عليه

أن يكون لصًا .. خبيثًا . جبانًا . وإلا فكيف يعيش ؟ أجل . إن الحياة هي التي

تجبرنا على سوء الخلق .. فإما أن نعيش سعي الخلق .. وإما أن نموت مثاليين .

وهكذا ضم الحانوت ثلاثتا .. من منكوبي الخلق الطيب .. الذين لا

يجسرون على الظهور في الحياة .

وتناولنا الطعام أنا والرجل والفأر ، خبز جاف وماء قراح .. ووجدت في

ذلك بداية لا تبشر بالخير .. هل أستطيع أن أعيش ثمانية أيام على الخبز الجاف والماء

القراح ؟ لا أظن .

وجلسنا عقب الطعام نسمر بالحديث ، وأخذ الرجل يشرح لى محتويات

حانوته بالتفصيل .. ويريني إياها شوالا شوالا .. حتى انتهينا منها جميعًا .. عدا

كيس صغير قد أحكم غلقه جيدًا .. فأشرت إليه متسائلًا :

— وما هذا ؟

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب ، ثم قال أخيرًا :

— هذا هو خلاصة كل ما بالخانوت .. هذا هو مسحوق الأخلاق المركز ..
إن بضع ذرات منه كافية لأن تجعل الإنسان على أحسن خلق مدى الحياة ، أما ما
بالكيس فهو يكفي لو صب في نهر لأن يجعل البشر كلهم على خير خلق .. يكفي
لإبادة ما في الأرض من نفاق ، وغش ، وخداع ، ورياء ، وجبن ، ولؤم ،
ودناءة ، وسفالة .. يكفي لأن يجعل أرضنا أرضًا نموذجية .. إن ما به روح
« الأخلاق » .

وفكرت برهة فيما قال الرجل ، فخطر لي خاطر عجيب .. إن الأخلاق
الطيبة لا تنفع رجلاً يعيش وسط أناس كلهم من ذوى الأخلاق الرديئة .. فهي
تجعل الإنسان كالعاقل وسط المجانين ، يبدو كأنه هو المجنون .. والباقي عقلاء .
إن ما أصابني من ضرر عندما تناولت جرعة الشجاعة والمروءة .. حدث لأنى
كنت إنسانًا شاذًا .. كنت شجاعًا بين الجبناء .. وكريمًا بين البخلاء .. وطيبًا
بين السفلة الأشقياء .

ولكن هب أننى قد ألقى ما بالكيس في النهر .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ كلهم
سيصبحون .. كرماء شجعانًا أفاضل أتقياء .. وستصبح الدنيا مثالية .
ولم أشك في أن الرجل لن يقبل منى أن آخذ الكيس لألقى به في النهر ، وأنه
لن يستطيع أن يتحمل مسئولية ذلك العمل .. فعزمت أن أنتهز منه فرصة
فأسرقه ، ثم أنطلق إلى النهر فأصبه فيه وأغير ما بالناس من سوء وشر .. وأجعل
أرض النفاق .. بلا نفاق .

في جنازة

لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع ،
فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم .. الذي وطنت نفسك على قبوله
والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تركب برهة ،
وإلا ذاقك قدماك نعمة الركوب والراحة وكرهت السير الذي طالما
اعتدته .

وهكذا عقدت النية على أن أسرق من الرجل الكيس الذي وضع فيه خلاصة
الأخلاق .. أو على حد قوله .. روح الأخلاق .. وأن أتسلل من الحانوت ،
وأسكبه في النهر فأغير بذلك وجه الكون ، وأبدل طباع الناس ، وأذهب
بشرورهم .. وأبدل خبيثهم طيبة .. وجبنهم شجاعة .. وبخلهم كرمًا ..
وخيانتهم وفاء .. ونفاقهم ورياءهم وغشهم ، صراحة وصدقًا وأمانة .
أجل .. هذه المرة لن أكون وحدي المصاب بالخلق الطيب . ولن أكون عاقلا
وسط مجانين ، بل سأصيهم أجمعين ، لن يسلم منهم أحد .. ولن يفر إنسان ..
ولن تصبح أرضهم بعد ذلك أرض النفاق .
وأمسكت بالكيس أقبله في يدي .. ثم أعدته مكانه بين الأكياس وعدت إلى
مجلسي بجوار الرجل .

وسرت الظلمة في الحانوت شيئا فشيئا فأوقد الرجل مصباحا من الصفيح يدد به
الظلمة ، ثم افترش أحد الأكياس الفارغة في ركن من الأركان ووقد عليه قائلا :

لأخلاق المركز ..
لدى الحياة ، أما ما
يحير خلق .. يكفي
، وجبن ، ولوم ،
.. إن ما به روح

ب .. إن الأخلاق
الرديفة .. فهي
.. والباقي عقلاء ..
و .. حدث لأني
، البخلاء .. وطيبًا

أن يحدث ؟ كلهم
دنيا مثالية .

س به في النهر ، وأنه
ن أنتهز منه فرصة
و شر .. وأجعل

إلى أستطيع أن آخذ كيسًا آخر فأفترشه لأرقد عليه حيث أشاء .
ولم تكن لي رغبة في الرقاد .. ولكنى كنت لا أريد أن أطيل الحديث مع
الرجل حتى ينام بسرعة فأسرق الكيس وأفر من الحانوت .
وأمسكت بأحد الشوالات الفارغة وفترسته على الأرض بجوار الرجل
واستلقيت عليه متظاهرا بالنوم .. وسمعت الرجل يقول لي وهو يتشاءب :
— لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث للناس لو ألقينا بذلك الكيس الذى حوى
روح الأخلاق فى النهر ؟! وماذا يمكن أن يحدث للأرض لو خلت من النفاق ؟!
وخيل لى أن الرجل قد قرأ ما مر بذهنى ، وأنه يريد أن يستدرجنى فقلت له
بتحفظ :

— من يدرى ؟

وصمت الرجل برهة ثم استطرد قائلا :

— هل تعلم أننى كثيرا ما نتشابى نوبات ضيق وتبرم .. أهم فيها بأن ألقى بما
فى الكيس فى النهر ؟
ونظرت إليه بطرف عيني نظرة فاحصة على أستبين ما يرمى إليه الرجل بقوله
هذا .
وأخيرا قلت له :

— وما يمنعك أن تفعل ؟

وبدا لى كأن هذا السؤال هو ما يترقبه .. وأنه لم يقل ما قال إلا ليستدرجنى
إلى سؤاله حتى يحذرني من مغبة ما أو شك أن أفعله ، ويشرح لى .. ماذا يمكن أن
يصيب أرض النفاق ، لو خلت من النفاق :

— تقول ماذا يمنعنى أن ألقى بالكيس فى النهر ؟؟ بقية شفقة بالناس وعطف
عليهم .. وخوف مما يمكن أن يصيبهم لو عريت نفوسهم من طلاء النفاق .. إلى
أخشى أن يموتوا فرغا .. لو أبصروا حقيقة نفوسهم وقد خلت من بريق النفاق
الزائف وستار الغش المزركش المنمق . إلى أخشى لو اطلعوا على سوء مخبرهم

لولوا من نفوسهم فرارًا وملقوا منها رعبًا .. ما أعظم النفاق يا صاحبي وأجزل فوائده ! إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خباياها .. إن النفاق يعين الناس على تحمل ويلاتها .. إنه يريهم ترابها تبرًا ، وشرها خيرًا ، ويغمض أعينهم عن خطاياهم وشرورهم .. ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعًا .
وصمت الرجل وأردف متسائلًا :

— ما رأيك ؟

— رأيي أنك لم تعد جادة الحق في كل ما قلت ، ولكني أجد بك كثير شبه بالنعامة التي تخفى رأسها في الرمال حتى لا تواجه الحقائق فترى ما تكره .. لقد قلت إن النفاق يستر عورات الحياة ويزخرف خباياها .. فهل معنى ذلك أن الخبايا قد احمى والعورات قد زالت .

— وما الفارق بين أن تستر وبين أن تمحى ؟

— فرق شاسع .

— لا أظن .. إن الإنسان صنعة الأوهام .. إنه يعيش على الأوهام وبالأوهام ، سعادته وهم ، وشقاؤه وهم ، وفرحه وهم ، وحزنه وهم .. هو لا يهيمه أن يتعدى الشر بقدر ما يهيمه ألا يرى الشر .. إنه يفضل أن يخدع مائة مرة على أن يعلم أنه خدع مرة واحدة .. ولا أظن هناك فارقًا كبيرًا عنده بين أن تزول خبايا الحياة .. أو تستر عنه .

— لا . لا . لا . إن مقاومة الخبايا ليست بمحبها وسترها بل بمواجهتها وإزالتها .. خير للإنسان أن يرى عوراته ونقائصه حتى يعرف قدر نفسه ويقوم فيها ما اعوج ويصلح ما فسد .. إنك تخشى أن تنكشف له حقيقة وحقيقة الحياة فيتتحر جزعًا ويأسًا .. ولكني أؤكد لك أن شيئًا مما تخشاه لن يحدث .. إنه سيجزع ويفزع ، ولكنه لن يئس ولن يتتحر .. إن مشاعره محدودة الطاقة .. إنه يحزن إلى حد محدود .. ويفرح إلى درجة معينة ، فلا يمكن أن يتناسب حزنه وفرحه مع مسببات ذلك الحزن أو الفرح ، أعني أنه لا يمكن أن يتزايد حزنه كلما

زادت مسببات الحزن .. بل لا بد لحزنه أن يقف عند حد لا يتجاوزه مهما زادت
مسببات الحزن ، وإلا لمات معظم الناس حزناً أو قضوا فرحاً .

إني أعرف امرأة كانت تتركب هي وأولادها وزوجها عربية وكانوا عائدين إلى
القاهرة من الطريق الزراعى فى جوف الليل فانقلبت بهم العربية فى إحدى الترع
وغرق الزوج وأولاده ، ونجت المرأة بعد أن رأت بعينها مصرع كل من لها فى
الحياة .. وبلغنى النبأ فقلت مسكينة كيف سيمكنها أن تعيش بعد ذلك ؟
وتوقعت لها إما أن تجن أو تموت حزناً . ثم مرت الأيام وسألت عنها ذات مرة فقيل
لى إنها على وشك الزواج ؟ تصوّر يا سيدى .. المرأة التى كنت أخشى عليها من
الموت حزناً .. لم تمت ولم تجن .. بل هى توشك أن تزف ؟!

والى لا أنتقدها ، ولكنى أستدل بها على طبيعة الإنسان وعلى أن حزنه
محدود ، فالذى يفقد ثلاثة أولاد لا أظنه يحزن ثلاثة أضعاف الذى يفقد ولداً ،
والذى يربح ألف جنيه لا تظنه يفرح عشرة أمثال من يربح مائة .. إنها رحمة من
الله أن جعله يحزن بقدر .. وأن جعل مشاعره — كما قلت لك — محدودة
الطاقة ، وإلا قضت عليه .. فانتحر كما تزعم حزناً ويأساً أو مات فرحاً وهناء ..
وعلى ذلك يا سيدى أستطيع أن أجزم لك أن انكشاف الحقيقة لن يقضى عليه بل
سيفزعه ويروعه .. ثم يفتق من الصدمة .. ويملك نفسه ويبدأ فى مواجهة
الحقائق الموجهة محاولاً جهده أن يصلح أمره وأن يزيل خبائثه ونقائصه ويجعل من
نفسه ومن دنياه خيراً مما هو عليه .

وصمت ، ونظرت إلى الرجل ، لأرى وقع حديثى فى نفسه .. ومرت فترة
سكون دون أن يتكلم الرجل .. حتى خيل لى أنه قد استغرق فى النوم ، وسألت
ألا أسمع رأيه فيما قلت .

وفجأة .. رأيت الرجل قد وثب من مكانه .. وقال لى رأيه فيما قلت بطريقة
عملية وبدون أن ينبس ببنت شفة .. وذلك بأن اتجه إلى الرف الذى وضع عليه
كيس الخلاصة .. خلاصة الأخلاق ، فأمسك به ، ثم عاد فرقد حيث كان ،

واضعًا الكيس تحت رأسه .

يالى من غر أحمق .. لقد استدرجنى الرجل حتى أفضيت إليه بدخيلة نفسى وأبنت له أنى أستصوب أن يزول النفاق من الدنيا ، وأن تضحى الأرض بلا نفاق .. وأريته أنى لا أرى خطورة فى إلقاء الكيس فى النهر .. على النقيض أرى فى ذلك فائدة كبرى .. وبذلك أيقظت شكوك الرجل ووساوسه ، وجعلته يقطع على كل محاولة لسرقة الكيس ، ويزيل من نفسى كل أمل فى إنقاذ الأرض من النفاق وسوء الخلق .

وأغمض الرجل عينيه وسمعته يتم قائلًا :

— إن فى رأيك يا بنى كثيرًا من صواب ، ولكنه رأى شائك خطر ، وأخشى أن تدفعك حماقتك وطيشك إلى محاولة تنفيذه .. فتحدث بذلك فى الأرض ضجة كبرى وانقلابًا خطيرًا ، يعلم الله كيف يمكن أن ينتهى ، وأى مصير يمكن أن تسوق إليه الناس وتسوق إليه نفسك وتسوقنى معك : فلست أشك أنه لو اكتشف أمرك .. فسيكون عقابك شديدًا ، وسيشملنى العقاب لتعاونى معك . — ولكن أى عقاب هذا الذى تخشى أن يعاقبونا به ؟ وما هى التهمة التى

يمكن أن يوجهوها إلينا ؟

— التهمة التى يمكن أن يوجهوها لى ، هى تهمة إحراز أشياء ممنوعة أو الاتجار فى المخدرات ، فالأخلاق الطيبة فى هذا الزمن قد أضحت تمامًا كالممنوعات والمخدرات .. أما التهمة التى يمكن أن يوجهوها إليك فمن يدري ؟ وربما اتهمت بالقتل مع سبق الإصرار فقد يعتبرون تلويث النهر بالأخلاق الطيبة كتلويثه بميكروبات الأمراض الخطيرة .

— ولكننا سنحاول أن نشرح للحكام حسن نيتنا وسلامة مقصدنا .

— أيها الغبى .. إن الحكام سيكونون أشد الناس غضبًا علينا ، فهم أكثر الناس انتفاعًا بالنفاق .. فما ستر زيفهم سواه .. وما حجب خداعهم غيره .. إن بطشهم بنا سيكون شديدًا .. فإننا سنحرّمهم من خير بضاعتهم ، البضاعة التى (أرض النفاق)

استطاعوا بفضلها أن يكونوا حكامًا . هل يمكن أن تتصور حكامًا بلا نفاق ؟ هل يمكن أن تتصور رأيهم عند ذاك في الرعية ، ورأى الرعية فيهم ؟ لا .. لا .. يجب أن نكون أكثر عقلًا وحكمة !!

وساد الصمت فترة ، ثم أردف الرجل منسائلًا :

— هل اقتنعت ؟

ولم أجد هناك معنى للمناقشة ، بل وجدت من الخير أن أفهمه أنى اقتنعت برأيه . حتى يكون أقل حرصًا على الكيس فأستطيع سرقته ، وقلت له بجيأس :

— أجل اقتنعت .. أسعد الله مساك .

وأجاب الرجل تحيتي وتظاهرت بالاستغراق في النوم . وبعد برهة سمعت شخير الرجل ، وأخذت أنقلب على جنبى في حيرة وقلق ، وقد تشردنى الذهن .. واستبدى التفكير دون أن أستقر على رأى .

ماذا أفعل ؟

هذه فرصة عجيبة لا أظنها قد أتيت لإنسان من قبل .. فرصة لو أقدمت على انتهازها لأحدثت فى البشر تطورًا لا يستطيع أحد مجرد تصوره ، ولغيرت بها وجه التاريخ .

ولكن من يدرى ؟ .. ربما كان تطورًا إلى أسوأ ، وربما أنكب البشر بفعلى هذه .

ثم إن هناك أمرًا آخر ، وهو أنى سأرتكب السرقة وأنخون من ائتمنى وآوانى .. وحتى لو استقرى الأمر على انتهاز الفرصة ! فكيف سأستطيع سرقة الكيس .. والرجل قد وضعه تحت رأسه ؟

وهكذا استبدى التردد والحيرة .. حتى هاجمنى النوم فاستسلمت له . وقبيل الفجر فتحت عيني على صوت همهمة وتمتمة ودققت النظر فيما حولى ، فوجدت الرجل منهمكًا فى الصلاة .. وبدأ الى الكيس ملقى على الأرض فى تناول يدي !!

ومددت يدي في سكون فأمسكت بالكيس وسحبته ببطء إلى جوارى .
من يصدق هذا ؟ إن الكيس قد أضحى في يدي وأنى أستطيع في غمضة عين
أن أقفز من مكاني إلى خارج الحانوت ثم أفر بالكيس وألقي به في النهر .
وأخذت أتقلب على جنبي .. متظاهراً بالنوم ، مخفياً الكيس في ثيابي ، حتى
اقتربت من باب الحانوت وانتهزت فرصة سجود الرجل ثم انطلقت هارباً أسابق
الريح .

وهكذا وجدتني مرة أخرى أنطلق بقميص النوم النسائي .. ولكني كنت في
هذه المرة عارى القدمين ، وأخذت أخوض وسط المزارع التي على جانبي
الطريق الذي قام عليه حانوت الرجل ، وأحسست بوقع أقدام تتبعني ، فالتفت
خلفي فإذا بالرجل يعدو ورأى مبهور الأنفاس ، فأمعت في العدو محاولاً تضليله
والفرار منه ..

ووصلت أخيراً إلى شاطئ النيل والرجل في أثرى ، وانحدرت على الساحل
الطيني المتحدر حتى وقفت على حافة الماء .

وتوقفت برهة أحاول فك الرباط الذي ربط به الكيس كي أفرغ ما به في
الماء .. ووجدت الرباط محكمًا ، وأخذت أبحث حولي عن شيء أثقب به الكيس
أو أقطع الرباط .. وفجأة أحسست بالرجل قد هبط عليّ وأحاطني بذرعيه .
وبدأت المعركة بيني وبين الرجل . هو يحاول أن يأخذ مني الكيس ، وأنا
أحاول الفرار منه .. وطالت بيننا المعركة فقد كان الرجل على كهولته .. صلب
العود قوى العضل .. من النوع الذي نسميه « عرق » .

وأخذ الرجل ينصحنى بأن « أعقل » وأن أكف عن هذا الحمق الذي أحاول
أن أفعله ، وأخذت أنا أجاهد محاولاً التخلص منه .. عندما أحسست فجأة بأن
الكيس قد أفلت من يدي وسقط في الماء .

واستمر العراك بيننا برهة .. دون أن يحس الرجل بسقوط الكيس في الماء ..
حتى تنبه إلى ذلك أخيراً فتركني وهبط في الماء وأخذ يخوض فيه بقدميه محاولاً

الإمساك بالكيس الذي أبعدته التيار بعض الشيء .

وأخيرًا أمسك الرجل بالكيس ، ولكنه كان كيسًا فارغًا .. فقد نفد المقلود .. وذاب كل ما فيه في الماء .

وخرج الرجل والماء يقطر من ثيابه وقد أمسك بالكيس الفارغ في يده ، وبدت على وجهه علامات من أبصر أمرًا خطيرًا وحادثًا جليلاً .

ونظر إلى في حلق شديد وهز رأسه قائلاً :

— أيها الأحق ! ماذا أفدت من تلك الفعلة الشنعاء التي ليس لها من علاج ؟!

كيف نستطيع أن نعيد إلى الأرض نفاقها بعد أن أضعت النفاق ؟

وصمت برهة ثم أردف قائلاً .. كمن يحاول أن يزيح عبثًا أثقل كاهله :

— أنا لست مسئولاً .. لقد حاولت جهدى أن أمنعك ولكنى لم أستطع ..

سأذكر لهم أنك السبب في كل ما يمكن أن يحدث !!

— خير لك ألا تذكر لهم شيئاً .. فستؤدى بنفسك إلى التهلكة .. لأنك أنت

السبب لا أنا .

— أنا السبب ؟. أيها الكذاب المفترى !

— أجل .. أنت السبب .. فإن البضاعة بضاعتك ، وأنت تاجر الأخلاق

المحرمة الممنوعة ، وكذلك أنت السبب في إلقاءها في النهر .. فلولا عراكك معي

ومحاولتى التخلص منك لما سقط الكيس في النهر .

واصفر وجه الرجل وبدأ على وجهه خوف شديد مما جعلنى أرى له .. فأقول

ملاطفًا :

— على أية حال .. إنى لا أجد في المسألة أية خطورة .. وأؤكد لك أنى أستطيع

أن أحمل عبثها وحدى .. هيا بنا واطرد عنك هذا الخوف .. وليحدث ما

يحدث .

وسحبته من يده وتركنا الشاطئ عائدين إلى الحانوت .

ووصلنا إلى الحانوت ، وقد بدأ الصبح يتنفس وأرسلت الشمس مقدماتها من

النور دون أن تبدو من المشرق .. ووقف الرجل وسط الحانوت .. وقد بدت عليه علامات الحيرة والقلق والخوف . فأخذت أسرى عن نفسه .. مخففاً عنه وقع ما يتصور حدوثه بين الناس إذا سرت في أجسادهم المياه الجديدة الحالية من النفاق ، وغيره من الأخلاق الرديئة .

وسألنى الرجل :

— وماذا سنعمل الآن ؟

— لا شيء .. تجلس أنت في حانوتك وأنطلق أنا لأرى أثر المياه الجديدة في الناس .. وأشاهد التطورات التى ستحدثها فيهم ، ثم آتيك بالنتيجة أولاً بأول . وأخذ الرجل يفكر برهة ، ثم قال :

— وماذا يجدينى أن أجلس في الحانوت .. لِمَ لا أصطحبك حتى أشاهد العالم الجديد .. وأبصر الناس الجدد ، وأرى أرض النفاق .. وقد تبدد منها النفاق . — ولكن كيف تغلق حانوتك .. وبضاعتك على وشك أن تلقى رواجاً بين أهل الأرض .. ألا ترى معى أن التطور الذى ستحدثه المياه الجديدة فيهم سيجعلهم يقبلون على بضاعتك ويتلهفون عليها .. وأنهم سيندفعون إليك ليزيدوا خلقهم طيبة فوق طيبة .. ويستزيدوا من الشجاعة والمروءة والوفاء والإخلاص كيف تغلق حانوتك .. وأنت مقبل على موسم ؟

— لا أظنهم سيقبلون علىّ بمثل هذه السرعة .. لا بد أن ننتظر حتى ينتهى رد الفعل .. وحتى تنتهى المآسى والكوارث التى ستصيبهم بها الأخلاق الطيبة .. لا تظن أنهم سيقبلونها بالرضا والسرور .. لا بد لهم من وقت طويل .. حتى يستطيعوا استساغتها والعود عليها .. إنها ستبدو لهم فى أول الأمر .. شيئاً مزعجاً .. ومرضاً خطيراً .. أصيب به مجتمعهم .. سيرون شجاعتهم تهورا .. ومروءتهم إسرافاً .. وصراحتهم وصدقهم حمقاً وبلها .. وسيظنون ما بهم الجنون المطبق .. ويحاولون التخلص منه والثورة عليه .. فإما أن يفلحوا .. وتتغلب سفالتهم المتأصلة وسوء خلقهم المستحكم ، على الطيبة الطارئة وحسن الخلق

المستجد ، ويعودون بذلك إلى ما كانوا عليه .. بل شرًّا مما كانوا عليه ، وإما أن تغلب عليهم الطيبة وجمال الخلق .. فتطرد السفالة من نفوسهم نهائياً .. ويتعودوا على أن يكونوا شجعاناً كرماء مخلصين أوفياء ، ويروا في كل ذلك أمراً طبيعياً .. ويحسوا أن نفوسهم كانت مريضة فبرئت من دائها ، ويحمدوا الله أن منّ عليهم بما طال حرمانهم منه .. ألا وهو الخلق الطيب .

وعلى ذلك ، فإننى أرى من الخير أن أغلق الحانوت وأنطلق معك لأشاهد الناس خلال تلك الفترة التي سيحدث فيها الصراع .. بين الخير والشر والحق والباطل .. والطيبة والسوء .. فإن انتصرت الطيبة عدت إلى الحانوت ففتحته على مصراعيه .. وإن انتصر السوء .. فيعلم الله ماذا يمكن أن يكون مصيرى ومصيرك !

وهكذا استقر رأى على أن يغلّق الرجل حانوته وينطلق معى .. وبدأت أعاونه على إدخال الشوالات المرصوفة في مواجهة الحانوت إلى داخله .. ثم أغلقنا باب الحانوت .. وهمنا بالسير عندما رأيت الرجل قد توقف فجأة وصاح :

— يالى من أحمق مأفون .. لقد كدت أنسى شولخ .

— شولخ ١٩

ولكن الرجل لم يجب على تساؤلى ، بل أقبل على الحانوت يفتحه مرة أخرى .. ولم يكد يفتح الباب حتى هبط الفأر من فوق أحد الأكياس ، فتناوله الرجل وربت عليه برفق .. ثم وضعه في جيبه في رفق قائلاً :

— لا تخش شيئاً يا شولخ .. إن صاحبك الأحمق قد وضع كيس الأخلاق في النهر .. ولن تمضى برهة .. حتى يصيب الناس كلهم ما أصابك من خلق عظيم .. وحينئذ تستطيع أن تنطلق بينهم دون أن تخشى شيئاً .

وسرنا ثلاثتنا .. أنا بالقميص إياه .. وصاحبى بجلبابه ومركوبه وعمامته . و « شولخ » قابع في جيبه في هدوء وسكينة .

ورغم أن رأيي في قيمة الملابس لم يتغير بعد .. ورغم أني كنت لا أهتم كثيراً بأن أبدل ثيائي .. إلا أني وجدت أن القميص الذي أرتديه سيلفت إلى الأنظار .. وأنه سيسبب لي من المشكلات والارتباكات ما أنا في غنى عنه ، وعلى ذلك فقد استقر بي الرأي على أن أتسلل إلى البيت فأبدل ثيائي .

ووصلت إلى البيت والشمس تكاد تطل برأسها من أسفل الأفق .. وبدأ لي أن الأهل لم يستيقظوا بعد .. فطلبت من صاحبي (الذي لم أكن قد عرفت اسمه حتى وقتذاك .. وإن كنت قد بدأت أناديه بأني شولخ) أن ينتظري أمام الباب ، وأخذت أسترق الخطأ إلى سلم الخدم . حتى وصلت إلى باب المطبخ فوجدته لحسن الحظ مفتوحاً ، إذ هبطت الخادمة منه لتسرق بعض ثمار الجوافة من الحديقة قبل أن يستيقظ الأهل .

وتسللت إلى حجرتي .. وارتديت ملابسى على عجل ، ووضعت ما تبقى من نقود التصييف (التي ما زالت في موضعها في الدولاب) في المحفظة ، ثم هبطت إلى صاحبي ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا في الطريق .

كنت أحس بالجووع ينهش أحشائي .. عقب العيش الحاف والماء القراح الذي أنعم به الرجل على في عشاء الأمس ، فالتجھت رأساً إلى مطعم قريب للقول والطعمية . وذهبت إلى المطعم .. واتخذنا مجلساً حول إحدى المناضد الرخامية ذات الأرجل الحديدية .. وطلبت من الرجل اثنين فول واثنين طعمية واثنين سلطة طحينة .

وأحضر الصبي ما طلبت ، وقلت لأني شولخ :
— باسم الله تفضل .

وتفضل الرجل .. ولكن تفضله لم يكن كاملاً .. فإنه لم يتفضل إلا بأكل الرغيف حاف وشرب كوب الماء ، ولم ينس أن يرمى بعض الفتات إلى « شولخ » القابع في جيبه .

وأدهشني إصرار الرجل على أكل العيش الحاف وأفهمته أن القول « زى

الزبدة « وأن الطعمية مدهشة .. فوجدته يهز رأسه موافقاً ويقول :
— ولهذا لم آكل منها .

— ولم ؟

— حتى لا أعود فأبطر على العيش الخاف .. لقد تعودت أن أعيش على العيش الخاف .. وأصبحت أجد فيه كفايتي .. فلم أفسد نفسي بإعطائها نعمة طارئة ؟ .. سيصينى فقدتها بألم أكثر من المتعة التى أصبتها من الحصول عليها . خذها منى نصيحة يا صاحبى .. لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع .. فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم الذى وطنت نفسك على قبوله والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تركب برهة .. وإلا ذقت قدماك نعمة الركوب والراحة ، وكرهت السير الذى طالما اعتدته .. إن الإنسان يظل قائماً بما وهبه الله له .. مهما قل .. راضياً سعيداً بما منحه إياه .. مهما ضؤل وحقر .. حتى يذوق ما فى يد غيره .. ويحس بما أنعم الله به على سواه .. فإذا به قد كفر وبطر وأحس بالشقاء والتعاسة .. أجل يا صاحبى .. إن مبعث شقائنا فى الحياة هو المقارنة بين النعم .. هل علمت لِمَ لا آكل الفول والطعمية .. حتى لا أكتشف مرارة العيش الخاف ؟!

ورأيت فى قول الرجل حكمة بالغة .. وذكرت أن كل إنسان فى هذه الحياة يحس بالشقاء والحرمان .. لأنه ينظر إلى أعلى ، كلنا ننظر إلى أعلى فنحس أننا فى أسفل ، ولو علمنا أنفسنا أن ننظر دائماً إلى من هم أسفل لحمدنا الله على العلو الذى وضعنا فيه .

وانتهينا من الطعام ، وتركنا المطعم ، واقترب منى أحد باعة الجرائد منادياً بأعلى صوته على جرائد الصباح فابتعت منه « الأهرام » وأخذت أقطبه بين يدي وأنا أسير بجوار الرجل على رصيف الشارع .

ووقع بصرى على صفحة الوفيات فألقت عليها نظرة عابرة ، ولكن بصرى علق بركن فيها قد كتب فيه اسم أعرفه خير المعرفة .

وبدأت أقرأ محققاً .. لعل هناك خطأ في الاسم ، ولكنى عندما انتهيت من قراءة النعى .. تأكدت أنه هو « إبراهيم أفندى عبد المتعال » ، رئيس القلم الذى أعمل به .. وتملكنى دهش وحزن وأسف .. رغم كل ما سبق أن وصفت به الرجل .. من أنه جبان تافه حمار .. ورغم أن آخر علاقتى به كانت معركة حامية بفضل جرعة الشجاعة .

لقد حزنت على الرجل .. فقد كان طيباً .. ابن حلال رغم ما به من سيئات ، وكان ممثلاً صريحاً وعافياً .. رغم إدمانه الشرب ، ولم يكن الرجل قد بلغ بعد من الكبر عتياً .. بل إنه يعتبر فى منتصف أو فى ثلثى العمر . وتوقفت برهة .. وقد بدت على مظاهر الحزن ، ورفعت منديلى أكفكف به دموعاً قرت من عيني .. وبهت صاحبى وسألنى :

— ما بك ؟

وأنبأته بالخبر .. وقلت له : إني لا بد أن أذهب للعزاء وأشارك فى تشييع الجنازة .. التى سبداً من دار الفقيد فى الساعة العاشرة .

وسألنى الرجل عما إذا كان هناك ما يمنع من اصطحابى إياه .. فنظرت إليه فاحصاً ، وأجبت :

— أبداً .. إن العزاء والجنازات هى الشيء الوحيد فى هذا البلد ، الذى يستطيع أن يشترك فيه الإنسان دون أن يمنعه أحد .

ونظرت إلى جيب الرجل .. وقد رأيت الفأر يتلاعب فيه .. وأردفت قائلاً :

— ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— شولخ .

— ماله شولخ ؟

— أخشى أن يخرج من جيبيك .. فيقفز على المعزين والمشييعين ويحدث فى

الجنائز مهزلة كبرى .

— عيب لا تنهم شولخ بهذا العيب .. هل نسيت كل ما أكله من شوات
الأخلاق .. إنه لم يترك شوالا إلا وقرضه .. إنه فأر جد يكره العيب .
وهكذا اتفقنا على أن أصطحب الزميلين العزيزين : شولخ ، وأبو شولخ ..
ليشيعا الجنائز ويقوما بواجب العزاء .

وكان اليوم .. يوم الجمعة ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وما زال
أماننا ما يقرب من الساعة حتى يحين وقت ذهابنا للعزاء .
وكان بيت المرحوم يقع فى حى المنيرة ، وكانت الساعة تكفى لوصولنا إلى
هناك .

وركبت الترام وصاحبى .. وأخذنا نفحص الناس جيّداً مسنصتين إلى
أقوالهم ، مراقبين بدقة كل ما يفعلونه كما يفحص الطبيب مريضاً حقنه بمخدر
ليرى مفعول المخدر فيه .

ولم نر فى الناس شيئاً غير عادى .. فقد كانوا كما تعودنا أن نراهم دائماً ..
الكمسارى .. هو الكمسارى .. بقلة أدبه ووقاحته مع الفقراء والضعفاء ..
وجبنه وتواضعه أمام المفتش والأقوياء وذوى الجاه من الركاب .. نفس
السفالة .. ونفس النفاق .. والسائق هو السائق .. يقف بالترام بعنف فيقع
الركاب فوق بعضهم .. ويتحرك بالترام قبل أن يركبوا .. ويسب الدين لأتفه
الأسباب .. والصبية كما تعودت أن أبصرهم يقفزون من يسار الترام .. والباعة
والشحاذون يهاجمونك بلا رحمة ولا شفقة .. وكل شيء كما هو .. لم يطرأ عليه
أى تغير أو تبدل .

ونظرت إلى صاحبى متسائلاً :

— إن مفعول الماء لم يظهر بعد .. إنهم ما زالوا كما هم .

— صبراً .. فلا بد أن يمضى وقت .. حتى يظهر التأثير وحتى يسرى مفعول
الكيس من النهر إلى مواسير المياه ، إلى الصنابير ، إلى أجواف الناس .. هؤلاء

الذين تبصرهم لا شك لم يغيرو ريقهم بعد .
وأخذ الترام يتهادى بنا .. حتى وصل إلى العتية .. فاستبدلنا به تراماً آخر
يحملنا إلى شارع قصر العيني ، وهناك نزلنا عند محطة المنيرة .
وقصدنا إلى الشارع الذى يقع فيه بيت الفقيد الراحل .
ولم يصعب علينا الاستدلال على البيت .. فقد قادنا إليه الصراخ الذى انبعث
من حناجر النساء .. والسرايق الذى شيد أمام الدار .

وبدا لى أننا قد حضرنا مبكرين بعض الشيء .. فقد رأيت السرايق خالياً ،
والفراشين لم ينتهوا بعد من إقامة السرايق .. فما زال أحدهم يتسلى قمته ..
ويربط أحد العمد بجبل فى يده .. وما زال خدام السرايق بالفانلات والسراويل
لم يرددوا بعد الملابس المزركشة الفضفاضة المطرزة بالقصب ، والثلاجة وسلاح
القهوة والفناجين قد وصلت فى التو وأخذوا فى إنزالها من عربة القراش .

ووجدت بعض أهل الفقيد قد تكأكؤا فى باب الدار وهم يتهايمسون
ويتشاورون وقد وقف بينهم رجل بقفطان وعمامة لم أشك فى أنه الخانوقى .. فقد
بدت عليه سيماء الحزن أكثر من أهل الفقيد ، ولحمت بجواره رجلا تعهدت أن
أراه دائماً فى الجنازات .. يسير فى بعض الأحيان وراء النعش وفى البعض الآخر
أمامه مع حملة المحامير .. ولم أشك فى أن الرجل متعهد جنازات .. يقوم بتوريد
حملة المحامير والموسيقىات والمشييعين والندابات وكل ما يلزم لشئون الجنازات .

ودخلنا السرايق ، وجلست وصاحبى فى أحد الأركان وقد كسونا وجهينا
مظاهر حزن شديد ، وأخذنا نتهايمس ، ومن حين لآخر يقطع تهايمسنا الصوات
المنطلق من الدار .. والولولة والنهنية .

وسألنى صاحبى هامساً :

— كيف كان المرحوم ؟

— كان يا سيدى من خير الرجال .. وأكرمهم خلقاً ، وأرجحهم عقلاً
وأشدهم شجاعة .

واندفعت بلا مناسبة ألصق بالفقيد كل ما ينظر بيالى من جميل الصفات ، وبدأ المعزون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، وأنا أرمقهم جيداً .. وأرى من بينهم زملاى فى المكتب مطأطئى الرؤوس .. محنىى الهامات ، بطيئى الخطا .. كأن الفقيد عليه رحمة الله .. كان أباهم ، وكأنهم لم يكونوا يدعون عليه بالموت فى كل لحظة .

وامتلاً السرادق بالمعزين ، وما من أحد منهم إلا وقد بدت على وجهه أبلغ علامات الحزن .. وقد سرت بينهم همسات لا تكاد تجد فيها إلا :

« الله يرحمه ويحسن إليه » أو « كان يهرق نفسه نفى الشغل زيادة عن اللزوم » أو « ده راح شهيد الواجب » ، أو « كان لسانه حلو عمره ما ذم فى حد ولا جاب سيرة حد » .

وهكذا كانت تسرى الهمسات كلها مدح فى مدح ، وكلها تلصق بالفقيد صفات .. لو تجمعت فى إنسان لكان نبياً .

ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت العاشرة والربع .. وبدأنا نحس بوطأة الحر ، ونفذ إلينا طيب الشمس من خلال فتحات السرادق ، فجفت حلقونا وتصبب العرق من وجوهنا .

ودخل أحد الخدم بملابسه المزركشة يحمل بين يديه صينية قد ملئت بأكواب الماء المثلج وقد بدا الضباب على خارجها فأعطاها منظرًا مغريًا .. وبدأت الأيدي تتخاطف الأكواب .

وخرج الخدام بالأكواب الفارغة ليعيد ملأها ، وأخذ الخدم يرون على المعزين ليرووا عطشهم بالماء المثلج .. والمعزون يتخاطفون الأكواب .. حتى مر بى أحد الخدم فتناول كوبًا وتناول صاحبى كوبًا آخر .

وعبيت ما بالكوب لأطفئ به همو الفول والطعمية ولهب الحر .. ولم أكد أعيد الكوب إلى الصينية حتى وجدت صاحبى يغمزنى بقدمه .

وهزرت رأسى متسائلا عما به .. فأجابنى :

— ما رأيك في الماء ؟ .

— مثليج جدًا .

— لست أقصد هذا .. ما رأيك في طعمه ؟ .

— لا أفهم .

— ألم تجد به طعمًا غريبًا ؟ .

— لا .

— أنت غبي . لقد وصل .

— ما هو الذي وصل ؟ .

— مفعول الكيس الذي ألقيت به في الماء .. لقد ميزت طعمه في الكوب .

— متأكد ؟ .

— أنا لا أخطئ قط طعم « روح الأخلاق » .. أجزم لك أن الماء مشبع بها .

وسرت في جسدي رجفة ، وأحسست بقلق واضطراب شديدين ،
وأخذت أنقل البصر بين الناس وأنا أتأمل عيونهم وحركاتهم ، وأتربص ما سوف
يفعلونه في جزع وخشية .

كيف لا وقد أضحوا جميعًا بلا نفاق يستر نفوسهم ؟

وأين ؟ !

في أشد المواقف حرجًا . وأكثرها حاجة للنفاق ، والتصنع والمداهنة

والرياء .

كيف لا .. وأنا أجلس في جنازة .. أي في مجمع نفاق ، بلا نفاق ؟ .

وجلست أرقب المعزين في حذر ، كأني أراقب كومة من الديناميت على

وشك الانفجار ، وأخذت أقلب البصر في وجوههم .. حتى أرى ما سيطرأ

عليهم بعد أن تجرع كل منهم كوبًا مترعة من خلاصة الأخلاق .

ومضت برهة وأنا لا أحس هنالك أي تغير ، حتى ظننت أن صاحبي كان

واهمًا في تخيل وجود روح الأخلاق في المياه . أو أنها كانت موجودة فعلا ،

ولكن أثرها كان أضعف من أن يبدل ما بنفوس المعزين من نفاق مستحكم .
ووصل إلى أذنى من مدخل السرادق مهمة وحركة كأن القوم يستقبلون أمراً
ذا مكانة وحيثية .. وتطلعت ببصرى فلمحت صاحب الضجة والحركة وقد
أقبل تحيطه هالة من أهل الفقيده وقد بدا عليهم احترام شديد ، وتقدم واحد منهم
يفسح الطريق ويقود القادم الكريم إلى أكبر وأفخم كرسي وضع في السرادق .
كيف لا ، وقد كان المعزى الكبير .. هو الوزير نفسه !!

وأخذت أرقب الوزير المنتفخ الأوداج وقد أقبل يتهاذى فى عظمة حزينه
وكبرياء بها لحة من أسى مصطنع ، وقد أمسك عصاه يمينه ووضع طرف إبهامه
اليسرى فى جيب الصدري الذى تدلت منه سلسلة ذهبية وضع طرفها فى الجيب
الآخر .

واستقر الوزير أخيراً فى كرسىه أو فى عرشه ، وتفرق من حوله الموكب ..
إلا رجلاً استمر يحوم حوله وينحنى أمامه مبالغاً فى إظهار آيات الترحيب
والولاء .

ونظرت إلى المعزين فإذا بأبصارهم قد علققت بالوزير المحترم ، وسرى بينهم
التهامس فأنبأ من يعرف من لا يعرف .. أن هذا هو فلان باشا .. واستمر القوم
يحملقون فى وجه الرجل .. كأن به شيئاً ليس بهم .. رأسين مثلاً .. أو رجلاً
ثالثاً .. أو أربع أعين .

ولم يكن هناك شك فى أن صاحبنا الوزير قد أحس بما أثاره فى السرادق من
حركة وهمس وحلقمة ، فقد أصابه بعض الارتباك الذى سرعان ما ستره بزيادة
فى مظاهر العظمة والكبرياء .

ونظرت إلى صاحبى ألى شولخ .. وهزرت رأسى وسألته هامساً :
— أما زلت تصر على أنك ميزت طعم روح الأخلاق فى المياه ١٢ .
— بالطبع .

— بعد كل الذى ترى أمامك .. تصر على هذا ؟ .

— ما هذا الذى أراه أمامى ؟ .

— هل تظن أن هذا المتكبر المتعظيم .. قد خلا من النفاق ؟ هل تظن أن هذا الموكب الذى تلقاه ، وذلك الرجل الذى يحوم حوله .. وهؤلاء الموظفين الكبار الذين يتطلعون إليه بأعينهم والذين يتسللون إلى المقاعد المحيطة به .. هل تظن أن هذا المشهد التمثيلى الذى تراه .. ليس به أثر للنفاق ؟ .. ماذا يكون النفاق إذا ؟ .
— صبراً يا أخى .. صبراً .. لا بد أن تمنح للجرعة بعض الوقت حتى يظهر مفعولها .. ثم إن صاحبك الوزير لم يشرب بعد .

وشرب الوزير .. ومضت برهة .. وأنا أقلب البصر بين الناس فى حذر وقلق .

وعلا الصراخ يشق أجواز الفضاء إيذاناً بخروج النعش من الدار ، وإيذاناً ببداية الجنازة .

وتقدم واحد من أهل الفقيد ليقود الوزير إلى مكانه فى مقدمة المشيعين .
وخرجنا من السراى متكاثمين فى رجة أمام الدار ورأيت النعش يحملونه إلى الخارج متقدمين به جمهرة من المعزين .

ورفعت عيني أسترق النظر إلى أعلا فلمحت جمعاً من السيدات احتشدن فى إحدى الشرفات وقد انطلقت من حناجرهن أبلغ أنواع الأصوات « الحياتى » وبدت بينهن واحدة كانت أعلاهن صوتاً وأكثرهن صياحاً لما لم يدع فى نفسى شكاً فى أنها زوجة الفقيد أو كما كان يصفها « المره الدون الشلق » التى طالما سوّدت عيشه ، والتى طالما قضى الساعات الطوال يشكو إلى منها مر الشكوى ، ويصف لى مهارتها فى خلق النكد وقدرتها على جر الشكل وسلطة لسانها وسفالتها وخستها وميلها إلى الشر والأذى .

وبدا لى أن الفقيد كان متحاملاً على المرأة .. وأنها ليست بمثل ما وصفها من سوء وشر .. وخيل لى أنها ستقضى جزعاً أن فجيعتها فى زوجها قد أضاعت صوابها .

وانطلق صراخ المرأة مدويًا ، وهي تكاد تقذف بنفسها من فوق الشرفة لتلحق بالنعش .. ووصل إلينا صوتها وهي تقول في نغم ملحن :
 — يا خويا .. آه يا خويا .. ساينى لمن بعدك .. ماكانش يومك يا خويا .
 وفجأة وجدت المرأة قد كفت عن الصراخ .. وتحول بصرها عن النعش إلى ناحية في فناء الدار .. وقف بها جزار يمسك يده سكينًا تقطر منه الدماء وتمدد أمامه الخروف الذى ذبح أمام النعش .. وسمعتها تصيح بالرجل في لهجة آمرة وصوت محدد :

— انت يا راجل انت يا جزار . خد بالك من الفروة وانت بتسلخ الخروف .. اوعى السكينة تمسها .. والا تعورها لحسن عايزة أفرشها في الدهليز .. سامع ولا لأ .

وصمتت برهة قصيرة ثم أردفت صائحة مخدرة منذرة :
 — والعفشة حاسب عليها اوعى تنقص منها حاجة .. والا تروح كده والا كده .. حاكم انا عرفاكم إيدكم طويلة ولا فيش حاجة تملأ عينكم .. حاسب على الكرشة والطحال والكبد والكلاوى .. حاستلمهم بالواحدة .. ونضف لى المصارين لحسن نفسى فى السجق .. كان محرمة علينا المرحوم جته نصيبة مطرح ما راح .

وهنا أحسست بصاحبى يغمزنى بقرصة فى يدى .. وسمعته يهمس :
 — ابتدا الشغل .. وتطايير النفاق .. اللهم ارحنا وإياهم .. هذا أول الغيث .
 وأنت السيدة أوامرها إلى الجزار ثم التفتت مرة أخرى إلى ناحية النعش ، وكان القوم قد أذهلهم صياح المرأة ، فتسمروا فى أماكنهم ومضت بضع ثوان ، والقوم فى سكون من فرط الدهشة كأن على رؤوسهم الطير .
 ونظرت المرأة إلى القوم الذاهلين ، وإلى حملة النعش المتسمرين فى أماكنهم ، وبدت عليها أمارات التعجب وصاحت بالقوم ناهرة :

— واقفين ليه ؟ .. مستنيين إيه ؟ .. يا الله اقلبوه القلبية .. الى ما يرجعش منها

أهلاً .. يا ما ورائى المر .. وسقانى الصديد .. وصديد الصديد .. أهو رينا ورائى فيه .. لكن برضه .. ما ورائيش زى مانا عايزه .. كان نفسى ينشل .. ويرقد سطيحة .. ويبقى يطلب نقطة المية ما يلاقيش حد يديها له .. كان نفسى اشوف قوته تنهد وحيله ينقطع .. يا ما اتمرد ويا ما اتفرعن .. يا ما خدت الصبغة من دماغه راقات .. كان عامل نفسه ابن العشرين .. ودائر يجرى ورا النسوان فى الشارع ، وفى الصالات .. يصبص للجيران وبنات الجيران .. لما فضحنا وسط الى يسوى والى ما يسواش .. وأقول له يا « ابراهيم » عيب .. يهب فيه ويقول لى .. إنت مالكيش عندى حاجة .. من يوم ما اجوزته ما شفتش منه راحة أبداً .. إلهى يحملك « يا أم محمود » يا خاطبة إنتى الى كنت السبب .. لولاك كنت زمانى اجوزت « عم شيهه » العطار .. راجل أمير زى السكره .. يا لله . مستنين إيه احدفوه فى الترية ، واقفلوا عليه كويس لحسن يرجع تانى .. داصنف لعيم ما يجيش إلا بالدق . يا ما نكد على .. وفرج على الناس .. يا ما قاللى يا عجوزة يا كركوبة ، وانا قد بنته .. كان راجل دنى عينه فارغة .. هو انا كنت أقدر اخلى عندنا خدامة .. من خوفى منه ، ومن لودانه .. يا ما اشتكىته منه لطلوب الأرض .. هو كان عنده دم ولا إحساس .. أنا عارفه كانوا يبهبوا بيه إيه فى الشغل .. آل وعاملينه رئيس قلم ، وهو تور الله فى برسيمه .. لازم كلهم تيران زيه .. هو كان له الا فى النسوان والشرب .. آل رئيس قلم آل ، والله ما كان يسوى حتى ساعى والا فراش .

وصمعت المرأة برهة تتألك فيها أنفاسها ، فانبرت امرأة بجوارها كانت منذ لحظات تشاركها الصراخ والبكاء ، وقالت مؤمنة على لهجتها الجديدة مخاطبة من حولها من النسوة :

— يا ختى والنبي لها حق .. كان راجل بصباص وفلاقي .. دانا فاكهه مرة مشى ورايا من شيكوريل لغاية بنزا يون ، وهو لسانه ما دخلش بقه ، ودخلت اشتريت حنة موريللا وكام متر باتستا ، وجيت اخرج من المحل لقيته .

(أرض النفاق)

وهنا قاطعتها سيدة أخرى متسائلة :

— الحنة الموريلا البمبة اللي وديتها عند لويس الخياطة ؟

— أبوه هي .

— وبتأخذ كام دلوقت مدام لويس في الفستان ؟

— خمسة جنيه .

— يا ختي غاليه أوى .. داحنا بنجيب واحدة غلبانه تيجي تقعد عندنا طول

اليوم تفصل فستان ونص وتأخذ مائة وثمانين قرش ولا تفرقش شغلها عن مدام لويس أبداً .

وهنا نبرت ثالثة فتدخلت متسائلة :

— اسمها إيه يا ختي دى ؟

— أم عبده .

— ما تقدرش تبعيتها لى يوم الجمعة ؟

— من عنيه .

وصاحت أخرى موجهة القول إلى زوجة الفقيد :

— والنبي يا ختي حوشى لى حنتين سجع من اللي حاتعمليه .

وصاحت خامسة تقول إنها لا تحب أكل المأثم ، واختلطت أحاديث السيدات

الحزينات المتشحات بالسواد ، عن السجع والطحال والموريلا والخياطات

والمودات ، وعن كل شيء إلا عن المرحوم .

ولحت واحدة منهن تتجه ببصرها إلى حيث وقف الوزير مأخوذاً مشدوهاً ،

إذ لم تكن الجرعة قد أثرت فيه بعد ، ثم أشارت إليه بأصبعها وتساءلت بصوت

عال :

— ودامين يا ختي اللي واقف نافش وعامل زى الديك الرومى !؟

وانطلقت الضحكات من صدور المعزين ضحكات رنانة خالية من أى أثر

للحزن أو الأسى الذى كان يكسو وجوههم منذ برهة ، وبدأ كأن الاحترام

والخشية التي كانوا يحسونها للوزير قد نظائرت وتبددت .
وسمعت صوتًا جديدًا يصيح بالقوم غاضبًا نائرا :

— وبعدين يا جماعة في العطلة دي .. هو احنا فاضيين لكم . احنا ورانا
أموات تانية .. دي الحكاية مش مستاهله . جايب لكم ثمان رجاله يمشوا قدام
الميت ومش عاوزين تدفعوا غير اثنين جنيه ، ورضينا وقلنا معلش نعوضها في
ميت تاني .. أهى برضه الست يومها قريب ، وبعد دا كله تطلعونا اللطعة
دي ؟ .. انتو فاكرينا عواظليه ، والا خاليين شغل .. ياللا يا رجاله بلاش مسخرة
ولعب عيال .

ووجدت المتحدث هو الرجل الذي سبق أن وصفته بأنه متعهد جنازات ،
وأنه قد ضاق ذرعًا بوقفة النعش .. وأخذ يسحب رجاله حملة الحجارة الذين
رصهم على جانبي الطريق لكي يتقدموا النعش .
وجمع الرجل أعوانه وانصرفوا ساخطين .. يلعنون أبا الميت وأبا أهله ،
محدثين في الشارع شبه مظاهرة .

وهنا تحت الحانوتى .. الذى كانت تبدو على وجهه أبلغ آيات الحزن ، وقد
انطلق مقهقهًا وهو يصفق بيديه طربًا ويصيح :
— يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. يا ميت نجف .. الفاتحة على روح
الأموات اللي بيوكلونا عيش .

ثم رأيته يرفع كفيه إلى السماء ويتمم بالفاتحة . ثم يدعو بصوت عال :
— خمس أموات كمان يارب بس تكون منهم حماق . ندرن على لاشيعها
بالطبل البلدى ، وأرقص وراها عشرة .
ثم بدأ يقرن القول بالفعل ، فبهز بطنه الأكرش ويتبختر بجسده السمين
المترهل .. وهو يصيح طربًا :

— خمس أموات يارب ، والا خليهم عشرة .. مش بترزق من تشاء بغير
حساب ؟ . خلىنى مرة واحدة في العمر .. من تشاء .. مرة واحدة بس ..

خلينى من تشاء ، وابعت فيهم قره ، والا شوطه .. وسيب الباقي على .
واستمر الرجل فى رقصه وطربه حتى وصل إلى التعش فأخذ ينقر عليه بيديه
منشدًا :

— يا نور العيون آنست .

ونظرت إلى الوزير ، فوجدته غارقًا فى عرقه ورأيته ينظر حوله فى سخط
وغضب ويقول :

— إيه البهله دى والقرف ده .. هو لازم يتعبنا فى موته زى ما تعبنا فى
حياته .. كان راجل حمار وغبى .. جاته القرف .. هو لازم يعملوا له جنازة ..
ما كانوا حدفوه فى عرية وانتبهنا .. والا لازم تعب القلب ؟

وتلفت الوزير حوله وتطلع ببصره كأنما يبحث عن شيء .
ولم يهتم به أحد ولم يتسابق كبار المعزين ليسأله عما يريد . فقد كانوا هم
أنفسهم فى حالة ضيق وملل ، واضطر الوزير إلى أن يفصح عما يريد ، فيصيح
بأحدهم طالبًا منه أن يحضر له العربة .

وينظر إليه الموظف فى تبرم ويقول له فى أنفة :

— العرية عندك هناك .. إذا كنت عايزها روح لغاية عندها .. أنا مش خدام
أبوك .

ويبدأ الوزير انسحابه من وراء التعش دون أن يهتم به إنسان ، ويذهب إلى
العربة فلا يقفز له السائق ولا يفتح الباب بل يدلف هو فى داخلها .

وتتحرك العربة والتعش ما زال موضوعًا على الرصيف لا يحاول أحد التقدم
لحملة .. وبدأ بقية المعزين يعلنون آراءهم فى الفقيد الكريم « كان طويل
اللسان » .. « كان مؤذى .. الله لا يوربه نصفه » .. « كان أغبى خلق الله » .
« كان مغرور » « كان يستاهل ضرب الجزم » .

وأخذ كل منهم يقص كل ما يعلمه عن سيئات الفقيد .. ثم بدأوا ينصرفون
تباعًا .

وشيثاً فشيئاً أخذ المكان يخلو حتى لم يبق هناك سوى وصاحبي ، والنعش الملقى على الرصيف .

وتلفتنا حولنا في حيرة ، وكانت الشرفة قد دخلت من السيدات .. ولم ندر ماذا يمكن أن يكون مصير الفقيد العزيز ، وهل سيقضى نهايته على قارعة الطريق .

ورأينا الزوجة تخرج إلى الشرفة لتطمئن على مصير الخروف .. وعلى الفروة والطحالب والمصارين ، فقوجت برؤية النعش على الرصيف في موضعه .. فضربت بيدها على صدرها وصاحت فزعة :

— يا دى النايه .. دا الرجل لسه على الرصيف .

ثم صاحت تطلب النجدة من الداخل .. ليعدوا النعش عن البيت خشية أن يفكر ابراهيم افندى فى العودة إلى الدار .

وأخيراً حمل النعش على أكتاف الخدم والبواب بعد أن أعطت السيدة كلا منهم نصف جنيه .

ووقفت وصاحبي أرقب الجنازة تتحرك بمنتهى السرعة وقد سار حاملو النعش خبيئاً ولو استطاعوا الساروا عدواً .

وهكذا سار الفقيد بلا عبء تسكب وراءه .. أو مخلوق يشيعه ، اللهم إلا مخلوق واحد وهو الفأر شولخ الذى أحس بالثناء للفقيد ، فقفز من جيب صاحبي وسار وراء النعش .

ولكن — حتى الفأر — لم يسر إلا خطوات ثم عاد إلينا فزعاً مرتاعاً .. بعد أن رآه صوت انفجار بجواره .

والتفتنا لتبين سبب الانفجار ، فإذا به « قلة » قذفت بها الزوجة وراء النعش .

ونظر إلّى صاحبي وقال فى حيرة :

— حيا الله النفاق .. لقد كان يستمر خباثتهم ، ويحجب
شروعهم .
— صبراً .. هذا رد فعل لا بد من حدوثه .. لا بد لليلة أن تكشف
حتى يمكن استئصالها ، ولا يد للناس أن يروا ما بهم .. حتى يستطيعوا
علاجه .

(١٣)

في صلاة الجمعة

ألا تدري أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا
طليقة مغلصة ، تجعلنا أشد إيماناً بالله ، وأكثر
حمداً له ، وقرّباً منه .. ألا تدري أنه رب أغنية
جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر ..
تظهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى
السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة
وسجدة !!

هز صاحبي رأسه وبدأنا نتحرك من الميدان .. ميدان الصراع الذي شاهد
أول معركة أحدثها التطور الجديد .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ووجدت صاحبي يسألني :

— أين ستصلي الجمعة ؟

— الجمعة !

— أجل الجمعة .. ألم يسبق لك أن صليت الجمعة ؟

— والله صليتها فيما مضى من الزمن .. أما الآن فلا !

— ولم ؟

— فلة عقل .. وشقاوة وشيطنة .. وكسل وصهينة .

— إذا أين أستطيع أن أصليها أنا ؟

— ولكنى لأجد هناك ما يمنع من أن أصليها معك .. ولتكن هذه بداية العودة إلى الصلاة وبداية الهداية .

— وأين نصليها ؟

وفكرت برهة .. وهممت بأن أقول : نصليها في أية زاوية قريبة .. ولكن دار بخلدى فجأة خاطر عجيب .

لَمْ لا نذهب إلى أحد الجوامع الكبيرة .. حيث يحتشد جمع غفير لتأدية الصلاة وحيث نستطيع أن نجد مرتعاً نرقب منه أثر المياه الجديدة المترجة بالأخلاق .

وهكذا سحبت الرجل من يده ، واخترقنا شارع المنيرة متجهين إلى الكوبري الحديدي القائم في ناحية الماوردي والموصل بين حى المنيرة وجنيئة ناميش ، وعبرنا الكوبري ، ثم اخترقنا جنيئة ناميش إلى شارع السد ، وسرنا في شارع السد حتى وصلنا إلى حارة باب الميضة .. ودلفنا إلى داخل الميضة حيث خلعتنا أحدىتنا وجلسنا القرفصاء أمام الحنفيات وبدأنا الوضوء .

وانتهينا من الوضوء وسط عاصفة من التمخط والتنخم ، والتمتمة والبسملة .. وقمنا نلمس طريقنا ذاكرين قول الشاعر :

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

ودخلنا الجامع فوجدناه على سعته احتشد بالمصلين ، وقد بدت على وجوههم الطيبة والمسكنة والتذلل .. وأخذ البعض يركع ويسجد .. والبعض يستمع إلى المقرئ يتلو القرآن .. وقد أغمضوا عيونهم ، وأخذوا يهزّون رعوسهم ، وكأنهم في نشوة .

ووجدت رجلاً من الأولياء يخترق صفوفهم ، وقد أمسك بسلسلة تدلى منها جمرة يحرق بها البخور ، ويطوّح بها ذات اليمين وذات الشمال .

ورأيت آخر يحمل على ظهره إبريقاً ، وفي يده طاسة نحاسية .. وقد أخذ

يوزع المياه على العطشى المصلين ..
 وصليت وصاحبي بضع ركعات تحية المسجد ، ثم جلسنا في ركن نسمع
 تلاوة آى الذكر الحكيم .
 وأخيراً .. انتهى المقرئ .. وبدأ الأذان : مؤذن في أعلا المفذنة ، ومؤذن في
 رجة الجامع .
 وانتهى الأذان .. ولحت شيخاً وقوراً قد قام بين المصلين ، واتجه إلى المنبر ،
 ورفع ستاراً فوق الباب ، ثم دلف إلى الداخل ، وصعد الدرجات .. ممسكاً
 بسيف خشبي .
 ووقف الشيخ الخطيب ، وقد بدت عليه أمارات الجسد والتقوى وعلامات
 الإيمان والصلاح .

ونظر في جموع المصلين نظرة شاملة ، ثم سعل وتنخم .
 ووجدتني أرهف السمع لما ينوى قوله .. رغم أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي
 من السرحان في خطبة الجمعة ، ورغم أنى لا أذكر قط أنني وعيت كلمة
 واحدة ، قبلت في إحداها ، ولم يكن سبب إرهاقي السمع في هذه المرة هو رغبتى
 في الحصول على النصائح والمواعظ .. بل كانت لهفتى على معرفة ما إذا كانت المياه
 الجديدة قد أثرت في الرجل ، وسماع ما يمكن أن يقوله في خطبة الجمعة بعد أن
 زال منه النفاق .. وبدأ الرجل خطبته .. وأنا أنصت إليه جيداً . فقال :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه ،
 ومن والاه ، حتى يلقى الله في حبه . وأشهد أن لا إله إلا الله ﴿ رفع السموات
 بغير عمد ترونها ﴾ ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم ﴾ وأشهد أن محمداً
 عبده ورسوله ، كان أقوى الناس إيماناً ، وأعظمهم يقيناً وأحسنهم خلقاً .
 أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى .. هدى سيدنا
 محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أما بعد .. فيا أيها المسلمون :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ .

أيها المسلمون : ها هو شهر رمضان يطالعكم ، وعمّا قليل يهل هلاله عليكم ، فهل أعددتُم له العدة ، وجردتم أنفسكم من شهواتها ، وطهرتم قلوبكم من ضغائنها ، فلا تتركوا فضل هذا الشهر يفوتكم ، واعلموا أن الصوم ليس امتناعاً عن شهوات الفم والفرج من الفجر الصادق إلى غروب الشمس فحسب ، وإنما هو صوم السمع والبصر واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الشر والآثام : إذا لم يكن في السمع منى تصام .

وفي مقلتي غص وفي منطقى صمت

فحظي إذن من صومي الجوع والظما

وإن قلت إني صمت يوماً فما صمت

وقد يرتقى الصوم بالعبد إلى رتبة أن يصوم بقلبه عن الدنيا ، ويسمو بفكره عن ماديّاتها حتى تصبح حياته تفسيراً عملياً ، لقوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

والصوم الصحيح الكامل بعد كل هذا .. حاجز حصين بين الصائم وبين الرفث والإثم والعصيان ، والحصن المتين .. بين النفس الأمارّة بالسوء وبين المنكر والتمرد والطغيان ، وأن التحكم في كف النفس عن لذاتها ومنعائها كفيل بتقوية الإرادة ، وتعويد النفس على الصبر ، واحتمال الشدائد ، وعلى خوض غمار الحياة ، وملاقاة نوائبها بلا جزع ولا فزع ، فيخرج المرء من شهر الصوم ، وقد ازدهرت في نفسه خصال تضيء له حلّة الحياة وتعبّد له سبلها بما يجعله أهلاً لاستخلاف الله له في أرضه ، ويظهر فيه سر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي

ادم ﴿
والع
البؤساء
كان ر
استطاع
يق ش
فيا
الباقيات
إخوانك
محبوب
وعمل
وص
(ا
والشهر
فيشفع
نوى)
اد
وس
وأ
شيقاً
وع
—
العقاد

آدم ﷺ .

والصوم الصحيح كذلك يجعل الصائم بحس إحساساً عميقاً بما يتجشمه
البؤساء من شظف العيش وألم الحرمان ، فيحفزهم على الجود والسخاء .. ولقد
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في شهر رمضان ، فإذا
استطاع الإنسان بالصوم أن يبحث جذور الشح من نفسه لقول الله تعالى ﴿ ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سعد وسعدت به أمته .

فيامعشر المسلمين : حاولوا أن تستفيدوا من رمضان ، واجعلوه سوقاً لربح
الباقات الصالحات ، وافهموا فريضة الصوم على وجهها الصحيح ، واعلموا أن
إخوانكم المسلمين الأول كانوا يتهجون لرمضان ويفرحون به فرح المحب
بمحبوب طالت غيبته ، فما يكاد ينزل بهم حتى يهتوا له من صنوف الطاعات
وعمل الصالحات ، ما يوجب شفاعته فيهم شهادته لهم .

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال :

(الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، فيقول الصيام إني منعتك الطعام
والشهوة فشفعني فيه) ويقول القرآن منعتك النوم فشفعني فيه ، قال
فيشفعان) . قال رسول الله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما
نوى) ، وعنه ﷺ قال : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .
ادعوا الله ...

وسرت بين المصلين موجة همهمة ودمدمة .. ورفعوا أكفهم إلى الله يدعونه .
وأخذت أنا أحملق فيهم وفي الخطيب ، علني أستبين تغيراً طراً عليهم فلم أجد
شيئاً .

وعاد الخطيب يتمم خطبته قائلاً :

— الحمد لله لا يشرك في حكمه أحداً .. غافر الذنب وقابل التوب شديد
العقاب ذى الطول ، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير .. عباد الله اتقوا الله

فقد كفى ما كان .. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان ، ثم توبوا إلى الله جميعاً
لعلكم تفلحون .

« اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم
والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين . اللهم إنا نسألك
أن تنصر الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، كما نسألك
أن تشمل برعايتك عبدك المخلص في طاعتك الملك فاروق الأول نصره الله (وهنا
سمعت صوت المقرئ يعلو في صوت أشبه بالغناء فيقول : أيده الله بنصره
وأعانه) .. اللهم انصره نصرًا مبينًا وحقق على يديه جميع الآمال يا رب العالمين .
واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، وآمنًا في أوطاننا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء
منا ، وول أمورنا خيارنا ، ولا تول أمورنا شرارنا .

« اللهم إنا نضرع إليك أن تنصر المجاهدين ، وأن ترفع راية الإسلام ، وتعز
الإسلام والمسلمين ، وأن نخذل الكفرة والكافرين أعداءك وأعداء الدين يا رب
العالمين . » اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا (٣ مرات)

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يغفر لي ولكم ولسائر المسلمين ، وأن
يجازي المحسنين أحسن الجزاء . عباد الله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء
ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أقم
الصلاة .

وانتهى الخطيب من خطبته وهمّ بالنزول .. وبدأ المؤذن بإقامة الصلاة ..
عندما وقعت الواقعة .. وظهر تأثير المياه المترجة في الخطيب المسكين
وأحسست بصاحبي يغمرني ويهمس في أذني :

— انظر .. لقد بدت عليه الأعراض .. انظر إلى عينيه لقد بدأ يشع منها
الصدق والإخلاص .. لقد ذهب عنه النفاق .

ونظرت إلى الرجل فوجدته قد توقف في مكانه وأشار للمؤذن أن يكف عن
إقامة الصلاة فما زال هناك لخطبته بقية لم يتم قولها بعد .

ونظر الرجل إلى الورقة التي كان يتلو منها الخطبة كأنه يبغاء ، ثم كورها بين يديه وقذف بها من أعلى المنبر وأخذ نفساً طويلاً ، وبدأ عليه كأنه مقبل على أمر جلل ، وخفق قلبه بشدة ، وأحسست بخطورة ما يوشك أن يحدث .
ووصل إلى صوته وملأه الإخلاص والصدق :
— يا عباد الله .

ونلاحقت أنفاسي وأنا أنصت إليه أنا وغيري من عباد الله .
ساد الجامع سكون عجيب وأرهف المصلون أسماعهم وقد بدت على سبامهم دهشة شديدة وأخذوا يحملقون في الخطيب ، وقد عاود اعتلاء المنبر مرة أخرى بعد أن انتهى من خطبته وهم بالنزول ، وارتسمت على وجوههم علامة استفهام فتساءل .. ترى ماذا نسي الخطيب ؟! وماذا ينوي أن يقول ؟! وأي شيء خطير دفعه إلى معاودة الحديث بعد أن أتم خطبته ؟!
ولم يكن هناك سواي وصاحبي من يعلم سر عودة الخطيب .. ويستطيع التنبؤ بما يوشك أن يقول ، ونظرت إلى صاحبي فوجدته مطرقاً في صمت واستسلام .. كأنه ينتظر عاصفة على وشك الهبوب .
وعاد صوت الخطيب يدوي بين أرجاء الجامع بلهجة طويلة ممدودة :
— عباد الله .

وصمت لحظة — وبدأ لي أن القول الطبيعي الذي يجب أن يلي ذلك .. هو قوله — وحيوا الله — ثم يأخذ في سرد بقية الأقوال التي يحفظها الخطباء عن ظهر قلب .

ولكن الخطيب لم يقل وحيوا الله .. بل تلفت يمنة ويسره وعاد يكرر :
— عباد الله .. هل تعرفون نكتة الخطيب بين مدمني الحشيش ؟
وسرى بين المصلين همس ولفظ .. وهممة . وأخذ بعضهم من سؤال الخطيب ، وعلت أصوات بعضهم قائلين :
— لا .

والبعض الآخر قائلين :

— نعم .

وأسكتهم الخطيب بإشارة من يده قائلا :

— لا بأس سأقصها عليكم .. حتى يعرفها من لم يعرفها فإنى أراها خير تشبيه لما نحن فيه .

وأنصت القوم .

وبدا الخطيب يقص النكتة قائلا :

— زعموا أن بلدة شاع فيها تناول الحشيش وأدمن أهلها على تعاطيه ، وحدث ذات يوم أن ذهب القوم إلى الجامع لتأدية فريضة صلاة الجمعة .. واحتشدوا في رحبة الجامع حتى أذن للصلاة فاعتلى الخطيب المنبر .. وبدأ في إلقاء خطبته .. وأخذ في وعظ القوم وإرشادهم ، وحثهم على ترك الحشيش ، مبيِّنا لهم أضراره .. معددا مساوئه وأخطاره .. ذاكرا ما أعدده الله من عقاب للمدمنين في الدنيا والآخرة .. لاعتنا كل من تعاطاه أو ساعد على تعاطيه .. محذرا كل من اتجر فيه أو حمله أو نقله .. وهكذا استمر في وعظه حتى بح منه الصوت ، ولم يكد ينتهى من خطبته .. حتى علا من بين المستمعين صوت يسأله في تخابث واستعباط :

— الحشيش أنهو يا سيدنا ؟ .. حشيش الأرناب ؟!

ونظر إليه الخطيب في غيظ واستنكار ، ثم مديده إلى عمامته فأخرج من بين طبقات الشال الأبيض . « فص حشيش » ، وأجاب السائل ببساطة متناهية : — لا .. الحشيش ده .. يا روح أملك !!

وهنا ضج المصلون بالضحك .. وصمت الخطيب لحظة ثم أشار بيده محاولا إسكات المصلين .. وهم بمعاودة الحديث .. عندما انبرى من أقصى الجامع صوت غاضب يصيح بالمصلين وبالخطيب :

— ما هذا العبث ؟! أتضحكون وتمزحون في بيت الله ؟! هذا حرام .. هذا

حرام .

والفتت إليه الخطيب في دهش وقال متسائلا :

— حرام ؟ .. هل حرم الله الضحك في بيته أيها النبي ؟! الله الكريم الغفور

يحرم علينا الضحك في بيته !

— إن بيت الله .. قد جعل للخشوع والسجود والعبادة .. فإن ذلك يجعل

عباد الله في بيت الله أقرب إلى الله .

— أو تظن أن التقرب إلى الله لا يكون إلا بالخشوع والسجود والتسبيح

وتسبيل العينين !! ألا تدري أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا طليقة مخلصة ،

تجعلنا أشد إيمانًا بالله وأكثر حمداً له وقرباً منه ؟! ألا تدري أنه رب أغنية جميلة

أرهفت منا الحس ورققت المشاعر .. تطهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى

السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة سجدة ؟! إن الإيمان في الصدور ..

والحمد في الصدور .. ماذا يضربنا لو أخرجناه في ضحكة راضية شاكرة

حامدة .. أم لا بد لذكره وحمده من حلقة ذكر تبع فيها الأصوات وتأرجح

الأجساد ؟!

وصمت الخطيب . فأجابه الرجل من أقصى الجامع صاخباً غاضباً :

— هذا كفر .. هذا إلحاد .. هذه دسيسة !!

ونظرت إلى صاحبي « أبا شولخ » ثم إلى الرجل الثائر الغاضب ، وهزرت رأسي

متسائلا :

— ما رأيك في هذا ؟

وأجابني « أبو شولخ » هامساً :

— لا شك أنه لم يذق الماء بعد .. من يدري قد يكون صائماً .

ولم يجب الخطيب على الرجل ، وتجاوز عنه كأن به لومة .. ووجه حديثه إلى

بقية المصلين الذين كانوا يتطلعون إليه بأعين راضية .. وبدأ أن كل ما قاله قد وافق

هوى في نفوسهم .

قال الخطيب :

— عباد الله .. لقد أضحككم قصة هذا الخطيب .. ولست والله بلائكمكم على ضحككم ولا بمحاول زجركم ونهركم كما فعل هذا الغبي الذي اتهمنا بالكفر والإلحاد .. اضحكوا ما حلا لكم الضحك .. فأني لا أرى في ضحككم عجباً .

أجل .. ما من عجب هناك من أن تضحكوا على الخطيب الذي حدثكم عنه .

ولكن العجب كل العجب .. في أنكم تحصونه وحده بالضحك ، وأنكم لم تضحكوا على كل خطيب سمعته ، على أنه ما من أحد منهم يختلف في قليل ولا كثير عن صاحبنا .. كلهم في الهوى سوا !!

إن هذا الخطيب ينهى الناس عن الحشيش .. ويقضى الساعات يتلو عليهم الأقوال الفضيحة والكلام البليغ .. وفي نهاية الخطبة .. يخرج لهم من طى عمامته .. فصاً من الحشيش .

لِمَ لا تضحكون على الخطباء الذين يهونكم عن الكذب .. وأنتم لا تزيدون قيد أثملة على الحشاشين الذين كان الخطيب ينههم عن تناول الحشيش ويضع الحشيش في عمامته .. فلاهم كفوا عن الحشيش ولا أنتم كفتم عن الكذب . هل تصدقون أنه قد مضت على عشرات السنين وأنا أنهى الناس عن المنكر وهم يستمعون إلى مطأطئي الرعوس مسبلي الأعين .. يهزون رعوهم إعجاباً وندماً ، واستغفاراً ؟!

ترى هل كفوا بعد ذلك عن إتيان المنكر الذي نهيتهم عنه ؟! أبداً والله .. ولو كانوا قد كفوا عنه .. لما كان بهم من حاجة إلى الاستماع إليّ بعد ذلك .. ولكففت أنا عن النهي عن المنكر منذ عشرات السنين .. إذ ما حاجتى إليهم وما حاجتهم إليّ وقد كفوا عن المنكر . عشرات السنين وأنا أنهى عن المنكر وأتلو الخطب تلو الخطب .. هذه تنهى

عن الفحشاء والبغى .. وهذه عن الخمر .. وتلك عن الميسر .. أتلوها الواحدة بعد الأخرى كالبيغاء .

يا للغباء ويا للحمق !! كيف هيا لي البله أن أتلو كل تلك الخطب المسجوعة الرنانة عن الميسر .. وأنا أعلم أن أهل الميسر .. آخر من يقربون الصلاة أو يستمعون لخطبة في مسجد ؟ كيف هيا لي الحمق أن أبج صوتي في النهي عن الميسر وأنا أعلم أن من أنهامم .. يغطون في نومهم عقب سهرة إلى الصباح في نوادي الميسر ١٩ .

كيف هيا لي الغباء .. أن أظن أنه حتى لو دفع النفاق واحدا منهم إلى الصلاة .. وإلى سماع خطبتي .. أن يكف عن الميسر لمجرد أتي نهيبته عنه ١٩ .

يا عباد الله .. من منكم لا يعرف أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب والقيمة والغش وأكل أموال اليتامى !! من منكم لا يعرف أن أكرمكم عند الله أتقاكم وأن الله يأمر بالعدل والإحسان والصدق ؟

يا عباد الله .. أيها الأشقياء المنافقون .. من منكم لا يعرف كل هذا !! عشرات السنين .. وأنا أتلوه عليكم ، وأنتم لا تستمعون إلي .. فلا أنتم عملتم بما أقول ولا أنتم كففت عن الاستماع إلي .

عشرات السنين وأذانكم من طين ومن عجين .. تخالون أن واجبك ينتهى عند حد السماع ، تماما كما أحال أنا أن واجبي ينتهى عند حد التلاوة .. وأنا أتلو وأنتم تسمعون .. ولا شيء أكثر من ذلك .. أنا أقول لكم إن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب .. إلخ . وأنتم تستمعون ، إلى أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب إلخ .

وهذا كل ما في الأمر .. أما أن تنتهى فعلا عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب ، فهذا ما لم يخطر ببالنا قط .

عباد الله .. لشد ما ضللتكم وضللنا السبيل .. لقد جعلنا من العبادة غاية .. وهى الوسيلة إلى الغاية .. فاستغينا عن الغاية بالوسيلة ، وعن الغرض بمجرد (أرض النفاق)

التسكع في الطريق .. فما وصلنا إلى غرض وما اهتمدنا إلى غاية .
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ما قيمة الصلاة إذا ركعنا وسجدنا
وبسملنا .. ويعد كل ذلك ارتكبنا الفحشاء واتبعنا المنكر ١١٩
ما فائدة أن نحشد في المساجد .. فتمسح بأرضها جباهنا ونخشع وتذلل
ونستغفر ونطاطئ الرؤوس ونخني الهامات ونسمع إلى الخطب الرادعة ..
الزاجرة ، ثم ننطلق بعد ذلك في ربوع الأرض فنعيث فيها الفساد .. ونرتكب
الآثام ، ونطغى وتكبر ونتجبر ؟

ما فائدة أن نفعل الوسيلة .. ولا نصل إلى الغاية ؟
ما فائدة أن نسلك الطريق ونعرض عن الغرض ١٢٠

إن الغاية من كل هذه العبادات والصلوات والخشوع والخطب .. هي أن نرحم
أنفسنا .. إن الذي خلقنا ليس به من حاجة إلى تلك المظاهر والشعائر .. ولكنه
أمرنا بها ، حتى يصلح ما فسد فينا .. ويزيل عنا الشوائب ويبعد الشرور ،
فتصفو دنيانا .. وتجميل حياتنا .. فيحب بعضنا البعض ، ويعين بعضنا
البعض .. وتزول الكراهية وتبدد الضغينة والحقد .
تلك هي الغاية من كل هذه المظاهر والشعائر .
أفهل وصلنا إلى الغاية ؟

لا والله .. إن كل ما نفعله عبث في عبث .. نضحك به على أنفسنا ونخدع
به بعضنا ..

هل تصدقون أن هذه الخطبة التي ألقيتها عليكم .. قد نقلتها عن خطبة قلتها
قبل ذلك خمس مرات ؟

لا تلوموني .. فأنا منكم .. منافق بين منافقين .. أو هكذا كنت .. حتى
أحسست فجأة بعد أن انتهيت من خطبتي أن كل ما بي من نفاق قد تطاير وتبدد .
عباد الله .. إن في عمامتي وفي لمبدي .. فصوصاً من السخائم سأقذف بها
قبل أن أقيم الصلاة .

عباد الله .. كونوا مخلصين في صلاتكم ، واذكروا الله فيها ، وفي غيرها .
اذكروا الله دائماً .. اسجدوا بقلوبكم وأرواحكم .. لا بأجسادكم ، واجعلوا
مياه الوضوء تغسل أفئدتكم ونفوسكم قبل وجوهكم وأقدامكم .
عباد الله .. كونوا دائماً طاهرين .. إن الطهارة طهارة النفس .. لا طهارة
الجسد .

عباد الله .. صلوا بأذهانكم في كل غدوة وروحة .. اجعلوا الصلاة وسيلة ،
ولا تجعلوها غاية .

عباد الله .. هذا عهد بيني وبينكم .. أقسم ألا أخطب فيكم وفي عمامتي أى
فص من الشر .. أقسم ألا أنها كم عن السوء قبل أن أنهى نفسى .
عباد الله .. أقسم .. أن ..

ولكن الرجل لم يتم حديثه فقد وصلت إلينا من باب المسجد ضجة .. ولحنا
رجال الشرطة يقفون بالباب ويخلع بعضهم أحذيتهم ، ولحنا بينهم الرجل الذى
سبق أن صاح بالخطيب يتهمه بالكفر والإلحاد ، ووجدته يشير إلى الخطيب ،
ويقول لضابط بجواره صائحاً مهتاجاً :

— هل سمعت .. إنه يقول إنه لن يخطب وفي عمامته أى فص .. هل رأيت
بعينيك ؟! إن الرجل قد جن .. لقد أضحى يهذى بالكفر والإلحاد وسط آلاف
المصلين .. الذين يصغون إليه ليهديهم سواء السبيل .

أجل .. هذا هو المجنون الكافر .. لا بد من حمله إلى مستشفى المجاذيب .
واتجه رجال الشرطة إلى الخطيب ليلقوا القبض عليه ، ووجدت الخطيب ينظر
إليهم شزراً ويصيح بهم :

— ويحكم أيها اللئام الكفرة .. تعتدون على الآمنين في بيت الله .. أتصدقون
هذا الأحمق الغبى الذى يتهمنى بالجنون .. افرنقوا أيها الزناديق .
ولكن الزناديق لم يفرنقوا ، بل زادهم غضب الخطيب اقتناعاً بأن الرجل
مجنون ، وأن من الخطورة تركه طليقاً وسط المصلين .

وأمسك الشرطة بتلابيب الرجل وأخذوا يجرونه إلى الخارج والرجل يقاوم ويحاول التخلص منهم .. وكلما ازداد مقاومة ازدادوا معه عنفاً .. وأصابته يده وجه أحدهم بلكمة غير مقصودة فردّها له مضاعفة .

فصرخ الرجل وازداد هياجاً .. فانهالوا عليه باللكمات ، والرفسات .. وهاج المصلون وهجموا على الشرطة لينقذوا الخطيب المسكين .. وبدأت المعركة حامية الوطيس واختلط الحابل بالنابل ، وعلا الصراخ ، وتطايرت اللعنات وألفاظ السباب .. وازداد الصخب والصياح وانقلبت المعركة إلى مظاهرة ثائرة جامحة .

ونظرت إلى صاحبي « أبى شولخ » قابلاً في مكانه ورأيته ينظر إلّى بطرف عينيه ويهمس قائلاً في لهجة شامته :

— مبسوط ؟

— م ؟

— من كل ما حدث .. هذه المعركة في بيت الله .. وهذا الهياج والصياح .
— ومالى أنا ! إن السبب الأول في كل ما حدث هو ذلك الرجل الأحمق الغبى .. الذى استدعى الشرطة .. والسبب الثانى . هم الشرطة وتهوّرهم .. ماذا عليهم لو تركوا الخطيب يقول ما يشاء ؟ ثم إن الرجل لم يقل سوى الحق .. ولو اتبع الناس قوله لصلح حالهم .. وذهبت شرورهم ، ولست أشك في أنهم كانوا سيتبعونه .. فقد كانوا مقتنعين بقوله تمام الاقتناع ، لولا تدخل الشرطة .. على أية حال .. إني سعيد بكل ما حدث .. حقيقة أن هذا الهياج والصراخ في حرمة المسجد شيء يبعث على الأسف ، ولكنى أعتبره بداية تطور وانقلاب .. ولا بد لكل انقلاب من بعض أعمال العنف ، ولا بد له من ضحايا وخسائر .. وأؤكد لك أن ما حدث من خسائر يعتبر ثمناً زهيداً جداً .. لما سيحدث من انقلاب وتطور .. تخيل ما قاله الخطيب يضحى حقيقة واقعة ، وأن الناس ستعمر بالإيمان قلوبهم وتطهر نفوسهم .. ويخلصون في حب بعضهم البعض .. وتطايّر

منهم الضعيفة ويتبدد الحقد .. تصوّر أنهم سيصلون بقلوبهم في كل لحظة ..
وتصوّر أن ماء الوضوء سيزيل سخائم النفوس كما يزيل الأتربة عن الوجوه .
ألا ترى معي .. أن هذا يهون من أجله كل شيء .. حتى المعركة في بيت
الله ؟!

وهز صاحبي رأسه وتغم قائلًا :

— من يدري ؟

وبدأت أمواج المصلين تندفع إلى خارج الجامع .. وانتقلت المعركة والهياج
من رحبة الجامع إلى رحبة الميدان .. وتحركت الأفواج إلى مركز الشرطة .
وتسللت وصاحبي من المسجد بعد أن خلا من المصلين .. قبل أن تتم
الصلاة .. واتخذنا طريقنا من ميدان السيدة إلى شارع خيرت .. وقد تملكني
إحساس خفي بالندم ، ولكنني أخذت أعزى نفسي وأقنعها كما أقنعت
صاحبي .. بأن سلامة الغاية تبرر عتف الواسطة ، وأنه « لا بد دون الشهيد من
إبر التحل ».

في حفلة انتخائية

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لي من
تعلقكم وخطب ودم ورشوتكم بالطعام
والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلوني
نائبًا .. فإذا ما جعلتموني .. فاغربوا عن
وجهي فما عادت بي إليكم حاجة .. إياكم أن
تكونوا حسنى النية فتسألوني الوفاء
بالوعود .

سرنا في شارع خيرت حتى لاظوغل ، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى شارع قوله
قاصدين إلى ميدان عابدين .

وتوقفنا في شارع قوله أمام سراق كبير علق على مدخله مكبر للصوت ،
ونظر إلّى صاحبي متحيرًا .. ثم سألتني قائلاً :
— ميت .. أم فرح ؟

وتحيرت أنا الآخر .. إذ لم يك مظهر السراق ينبىء عن شيء من هذا ، فما
وجدت من الأعلام والتعليق والبطيخ الزجاجى الملون ما يقتضى بأنه « فرح »
وما سمعت صراخًا ولا بكاء ولا حتى مجرد نهبة .. حتى أجزم بأنه ميت .
ونظرت إلى صاحبي وقلت : — الظاهر أنه ميت .

وهز صاحبي رأسه متشككاً وقال :

— ميت !! لا أظن .. ميت « سادة » بلا نواح ولا صياح !!

— وماذا في ذلك ؟! ميت .. قد شرب أهله من المياه الجديدة .

— يجوز .

وممننا بالسير .. ولكننا توقفنا عندما وجدنا رجلاً يتسلق سلمًا وضع على مدخله ، وقد أمسك بيده قطعة كبيرة من القماش أشبه بلافتة فعلقها من أحد أطرافها ثم تقل السلم فعلق الطرف الآخر .

ونظرت إلى اللافتة .. فوضع لي ما خفي ، ووجدت أنني كنت مخطئاً في ظني ، وأنه فعلاً لا هو بفرح ولا ميت .. بل حفلة انتخائية . فقد قرأت في اللافتة :

« انتخابوا مرشحكم الحر الأمين .. ابن الدائرة .. عبد الواحد بك أمين »
ونظر إلي صاحبي متسائلاً في دهش شديد :

— ما هذا ؟

ولم أجبه .. فقد بدأ صوت المكبر يعلو صوتنا ، وسمعناه يدوي قائلاً :
— واحد .. اثنين .. ثلاثة ... أربعة .. ألو .. ألو . الصوت كويس كده ؟!

ووجدتني أجيب على الصوت :

— كويس جداً .. تستطيع أن تعلق الجن في مضاجعها . اطمئن .

وعاد الصوت يضح قائلاً :

— ألو .. ألو .. مرشحكم الوحيد .. عبد الواحد بك أمين .. انتخابوا ..
عبد الواحد بك أمين .. السياسي الحر على مبادئ مصطفى كامل ومصطفى
النحاس ومصطفى أمين .. انتخابوا مرشحكم النزية المستقل .
وسألني صاحبي :

— إيه الحكاية ؟

وهممت بأن أجيبه عندما علا صوت مكبر آخر ، الظاهر أنه كان موجوداً في الشارع المجاور وسمعناه يدوى قائلاً :

— مرشحكم الأوحيد زينهم باشا حتحت .. الرجل العصامي .. رجل البر والتقوى .. رجل الاستقامة والجد ، زينهم باشا حتحت .. لا نائب لكم سواه .
وعاد صاحبي يسأل في دهشة :

— وما كل هذا ؟

وأجبتة مفسراً :

— معركة انتخابية .. لقد خلت دائرة عابدين بوفاة نائبها ، وهم يتطاحنون الآن على المقعد بدون فائدة .

— ولِمَ ؟

— لأن الفائز معروف .

— كيف ؟

— مرشح الحكومة .

— ولِمَ إذا يتعبون أنفسهم ؟

— تسأل .

وهممتا بالسير مرة أخرى عندما استوقفنا صوت يصيح بنا « اتفضل » ، ورأيت رجلاً يطل علينا من الداخل وأمامه سطل نحاسي كبير قد تندى خارجه بالماء ، وأخذ الرجل يقلب ما به بمفرقة في يده ، وعاد صوته يصيح بنا :
— تفضل .. خش .

وترددنا برهة .. ولكن لسعة الشمس ولفحة الحر ، والجفاف الذي كنت أحس به في حلقي ، دفعني إلى « التفضل والخششان » فدخلت وصاح بنا الرجل مرحباً :

— أهلاً وسهلاً .

ثم بدأ يفرغ لنا من السطل « شربات أحمر مثلج » في كوبين أمامه ، وتقدم

إلينا بهما صائحا :

— في صحة عبد الواحد بك أمين .. مرشحكم الأوحـد ، وعلى روح زينهم
باشا تحت .. مرشح الأموات .
وانطلق الرجل مقهقهة .

وتناولنا كوى الشرابات ... وتجنأنا ، ومسحنا ما تصب من وجوهنا من
عرق ، وقادنا الرجل إلى مقعدين داخل السراـدق وسألنا الانتظار لأن « اليه »
سيشرف حالا بمجرد الانتهاء من صلاة الجمعة .

وجلسنا برهة ، وقد تعالت من حولنا أصوات المكبرات تتبادل السباب
والشتائم .. ويعلن كل عن صاحبه ، كأنه أوكازيون ، أو سيرك .. حتى لقد
خشيت أن يخطئ أحدهما فيعلن عن صاحبه قائلا : « انتخبوا مرشحكم
الأوحد ، قبل ما يلعب » أو « مرشحكم الأوحـد بنص فرنك يا بلاش » .

واستمر الضجيج يتعالى مسببا من الإقلاق والإزعاج ما لا يمكن تصوره ..
وبدأت أحس بوطأة الحر داخل السراـدق ، وجف حلقى مرة أخرى ..
فانتبهزت فرصة غفلة من الرجل الواقف على باب السراـدق ، ثم تسلسلت
وصاحبي من فتحة في نهايته ، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى طليقين في الشوارع .
وسألني صاحبي :

— إلى أين ؟

— إلى الطرف الآخر .

وهز صاحبي رأسه متسائلا عما أعنى فقلت مفسرا :

— إلى خطوط العدو .

— أى عدو ؟

— المرشح الآخر تحت باشا .

— ولم ؟

— نشرب كوين آخرين من الشراب .. ألدك مانع ؟

— أبداً .. ليس لدى ما يمنع .. من أن نمر على جميع المرشحين .. ما دامت المسألة فيها شربات .

ودخلنا في الشارع المجاور فواجهنا السرادق الآخر وقد علق عليه الميكروفون والافتة .. تماماً كالسرادق الأول لا يفترق عنه في شيء سوى الاسم .

وقفنا أمام مدخل السرادق متظاهرين بقراءة اللافتة منتظرين أن ندعى إلى الداخل كما سبق أن دعينا في السرادق الأول ، وأن نشرب الشربات في صحة حجت وعلى روح عبد الواحد .. كما سبق أن شربنا في صحة عبد الواحد وعلى روح حجت .

ولكن أحداً لم ينادنا ولم يدعنا للتفضل .. وطال بنا الانتظار والتلكؤ حتى أصابنا الملل ، ولم أجد بداً من أن أسحب صاحبي من يده وأقتحم السرادق بلا دعوة .

ودلفنا إلى الداخل ، وتلفت حولي .. فلم أجد أثراً للشربات .. ووجدنا السرادق خالياً . ولكنني استطعت أن أميز بعد برهة رجلاً قد جلس في أحد الأركان مستغرقاً في النوم .

واقتربت منه وصحت محيياً « السلام عليكم » .. لعله يستيقظ ، ويقدم لنا الشربات .

وهب الرجل من نومه فزعاً وأجاب في خوف :

— عليكم السلام ورحمة الله .. أهلاً وسهلاً . تفضلوا .

وجلسنا على مقعدين مقابلين للرجل ، وانتظرت أن يقوم صاحبنا لإحضار الشربات .. ولكنه — لشدة الأسف — عاود الجلوس .. ولم تمض لحظة حتى علا شخيره واستغرق في النوم مرة أخرى .

وكرهت أن يخلدنا الرجل ، وأن نحرم شربات حجت ، فصحت بأعلى صوت محاولاً إيقاظ الرجل :

— وحدوه .

وهب الرجل مرة أخرى في فزع شديد وأجابني :

— لا إله إلا الله .

ثم هبط مرة أخرى على مقعده ، وهمّ بأن يغمض عينيه .. ولكنني صممت على ألا أعطيه فرصة للنوم فصحت به :

— ازاي الصحة يا عم ..

— محسوبك عوف .. الحمد لله .. رضا ..

وبدأت أستدرج الرجل إلى ناحية الشربات .. عله يكون ناسيًا فأذكره :

— هذا الحر لا يحتمل .

— ربنا يلطف .

— ألا يمكن أن أجد عندك كوب ماء ؟

— بالطبع .

وخرج الرجل من السراقد .. ولم أشك حينئذ أنه سيعود بالشربات ،

ولكنني فجعت عندما أبصرت به يعود بكوب ماء يبدو أنه أحضره من الخفية رأسًا .

وشربت من الكوب جرعة ، ثم أعدته إليه بتأفف وقلت مؤنبًا :

— لقد سمعنا أن عبد الواحد بك يسقى ضيوفه شربات !؟

وهز الرجل رأسه وقال :

— عليّ قد حاله .

ودهشت من إجابة الرجل ، ولكنه أردف مفسرًا :

— عبد الواحد بك يسقى شربات .. لكن تحت باشا يقدم غداء .. لقد

ذهبنا اليوم عجلًا .. وسنحضر صوالى الفتة ، بمجرد أن يعود الباشا من صلاة الجمعة .

ولم يكد الرجل ينتهي من قوله حتى سمعت ضجة تقترب من السراقد ، ولحنا

مظاهرة كبيرة تلوح من على بعد .

وأخيراً وصل « حنحت باشا ».. محمولاً على الأكتاف ، وقد علت من حوله الهتافات .. « يحيا نصير الحرية » ، « يحيا مرشح الاستقامة » .. « نموت ويحيا حنحت » .. « نحن فداؤك يا حنحت » .. « كرسي النيابة ينتظرك يا حنحت » .. ثم انقطعت هذه الهتافات الحماسية .. واستبدل بها هتاف .. ملحن .. أخذ الهاتفون يرقصون على نغماته .. وقد تربع المرشح في الوسط على أكتاف بعضهم .. وأخذ واحد منهم يصيح « عايزين مين ؟ » فيرد عليه الجميع « عايزين حنحت » .. « مين نائبكم ؟ » .. « فيش غير حنحت » .. « ابن الدائرة » .. « هوا حنحت » .

وذكرني هتافهم .. بمنظر كنت أراه في طفولتي عندما كان يسحب بعض الرجال أمامهم جملاً ويسيرون به في الشوارع صائحين : « بكره من ده ؟ » فيجيب الصبية الذين التفوا حولهم « بيقرشين » .

وازدهم السراشق بالهتافين الصائحين ، واقترب منا « حنحت باشا » .. وجل كل ما فيه محتمل إلا كلمة « باشا » .. لقد كان الرجل أشبه بالخنزير الذكر .. أسود أكرش .. قد علا قفاه سنم كسنم الجمال ، وبدت عليه أبلغ آيات الغباء .

وتقدم الباشا فجلس على مقعد كبير يتصدر المكان .. وبعد برهة .. رأيت ثلة من الفراشين قد أقبلوا يمدون المناضد داخل السراشق .. ويرصون عليها الصواني المليئة بالثريد الذي علته أكوام اللحم .

وبدأت المعركة الأولى .. معركة الطعام .. بين جمهور الناخبين طرف أول .. وصواني الفتة واللحم طرف ثان .. وأسفرت المعركة عن انتصار باهر للناخبين .. فقد مسحوا الفتة واللحم من الصواني مسحاً .

وانتهى القوم من الطعام .. وهجم الفراشون يحملون بقايا المعركة .. ويخلون الميدان من الأنقاض ..

وبدأت الجولة الثانية .. جولة الخطب .. واضطجع القوم على مقاعدهم وقد

انتفخت كروشهم ، واسترخت أطرافهم .. واعتلى المنصة الخطيب الأول
متخذاً مكانه وراء الميكروفون .. وبدأ خطبته قائلاً :
— أيها الناخبون الكرام .

وأصلح الخطيب منظاره وثبته جيداً فوق عينيه .. ثم تنحنح ، وعاد صوت
المكبر يردد صياحه :
— أيها الناخبون الكرام .

وقلبت البصر في الناخبين الكرام .. فبدلاً من « الفتنة » قد خدرت أعصابهم
وأنقلت أجفانهم .. ولم أشك في أن أذهانهم قد استغرقت في سبات عميق .. وأن
كلام الخطيب سيذهب أدراج الرياح .
ودوى صوت الخطيب للمرة الثالثة :

— أيها الناخبون الكرام .. كم وددت لو وهب الله لي فصاحة سحبان حتى
أعبر عما يجيش في صدري .. ولكن يعزيني عن ذلك أن من سأحدث عنه ليس
في حاجة إلى خطيب فصيح لكي يبين لكم أفضاله ومحاسنه .. فهي واضحة بيننا
وضوح الشمس . وليس هنا من ينكرها إلا كل مغرض أعشى .. إن مرشحنا
العظيم كان زاهداً في كرسي النيابة .. وما كان في نيته أن يزج بنفسه في معركة
الانتخابات .. لولا أن أولى الأمر فينا قد ألحوا عليه واستجاروا به .. حتى ينقذنا
مما نحن فيه ويقلل عمرتنا .. ويكون لنا في مجلس النواب صوت مدو .. وسيف
بتار .. ينادى بمطالبتنا ، وينود عن حياضنا ، ويرد إلينا حقوقنا الضائعة ..
ومصالحنا المسلوقة .. لقد لجأنا إليه لأنه منا .. فلو انتخبناه فإن كلامنا يكون قد
انتخب نفسه .. وإذا فاز بمقعد النيابة فكأننا كلنا قد فرنا به .

سأسرد لكم شيئاً عن تاريخ حياته .. حتى تروا أي بطل هذا الذي يجلس بيننا
جلسة التواضع .

نشأ « زينهم باشا ابن حتححت باشا » في بيت كريم المختد عريق الأصل بتفرع
نسبه من بيت رسول الله ﷺ .. ولم يحاول هو أن يعتمد على ثروة أبيه ، بل شق

طريقه بنفسه .. وبدأ يخوض غمار الحياة معتمداً على عزيمته وعلى خصاله ..
وجلده وقوته .. فأخذ يشب من نجاح إلى نجاح .. وهكذا نشأ الرجل نشأة
عصامية بحته رغم ثراء عائلته ، فجمع بذلك قوة النشأة وطيب الأصل .

وهكذا ترون أن « زينهم باشا » مفخرة الحى ، بل مفخرة الوطن .. « زينهم
باشا » ابن عابدين البكر .. الذى يمسك التراب فيضحي تبراً .. الرجل المفضل
الكريم .. الذى يفتدق على المحتاجين والفقراء ويسد حاجة المعوزين .. والذى له
علينا فى كل يوم آية فضل وإحسان .

هذا هو « زينهم باشا » .. الساحر البيان .. الفصيح اللسان .. الثابت
الجنان .. القوى الإيمان .. الشديد الحنان ، الذى لا يرد سائلاً ، ولا يخيب
مسمى .. هذا هو زينهم باشا يحط آمالنا ومعقد رجائنا .

ومد الخطيب يده فجزع كوباً من الماء .. ثم جفف عرقه بمنديل فى يده ،
وعاد يتمم خطبته :

— هذا هو زينهم باشا .. الرجل النموذجى الكامل ، الذى لم تشب سمعته
شائبة ، الرجل القويم ، النزىه الصادق الوعد .. العف اللسان .. الشديد فى غير
عنف .. اللين فى غير ضعف .

قارنوا بينه وبين هذا الأفاق الذى يحاول أن يتناول إليه .. فيزاحمه فى
دائرته .. هذا الدجال المحتال ، المتقلب ، المتلون .. يا لضبيعة الدائرة ، التى
هانت حتى أضحي أمثاله يرشحون أنفسهم لكرسى نايبتها !! كيف يجرؤ على
منافسة زينهم باشا ؟ كيف يجرؤ على أن يقارن نفسه بهذا البطل العبرى الذى
يتوقد ذكاء ونشاطاً ؟

وفجأة توقف الرجل عن الاسترسال فى خطبته فقد قاطعه صوت شخير عال
ينطلق مصحوباً بصفير طويل ، ونظر حوله يبحث عن مصدر الشخير
والصفير .. فإذا هو به نفسه البطل العبرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطاً .

وصمت الخطيب ، وran فى السرادق سكون إلا من صوت الباشا الشاخر

الصفافر .. وقد سقط رأس الخنزير على صدره وبرز سنام الجمل في قفاه وتدلّت شفّته السفلى وسالت رباته على صدره .

ونظر إليه الخطيب وأخذ يهر رأسه في صمت ودهشة .. ووجدت صاحبي « أبا شولخ » يقرصني في يدي .. وفهمت ما يعنى ، وحققت في وجه الخطيب فإذا بأعراض الأخلاق قد بدأت تظهر عليه .. وإذا بجرعة الماء قد فعلت مفعولها .. ووجدتني أرهف السمع والبصر إلى مشاهدة ما يوشك أن يقع من أحداث خطيرة .

ومضت فترة صمت والخطيب يهر رأسه وينظر إلى « زينهم باشا » دون أن يتكلم .. وأخيراً نظر إلينا ، وسألنا في لهجة يائسة ساخرة :

— بقي بالدمة دا منظر ؟! .. أهذا شكل باشاوات ؟! .. أهذا هو البطل العبقري الذى يتوقد ذكاء ونشاطاً ؟! .. أهذا الذى تسيل رباته كالمعاتيه والمجازيب هو الذى سيطالب بحقوقنا فى مجلس النواب ؟! .. والله لقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا مجلس النواب !

يا لضيعتنا وضيعة البلد التى تهب أمثالك كرسى النيابة : وأنت لا تستحق إلا كرسياً فى قهوة بلدى .. أو كرسى مطبخ !
أأنت من نسل النبى ؟! .. أستغفر الله العظيم .. أهذا الشكل الحلاليفى الزرايى من نسل النبى ؟!

أبوك حتحت باشا من بيت كريم المحتد عريق الأصل ؟! الله يرحم أبوك .. ويرحم القرد والمعزة والرق ، وجراب الحاوى .. الله يرحم المعلم حتحت .. الذى حفيت قدماه من فرط اللف فى الحوارى .

أأنت القويم ، الزيه .. الصادق الوعد ، العف اللسان .. يا من لم تر حارات عابدين أقدر منك لساناً ولا أحط خلقاً ؟! .. أأنت الرجل الكامل النموذجى .. أم الرجل النموذجى السيئات الكامل النقائص ؟!

مالك والنيابة !! هل ظننت أن المال الذى جمعته بالغش والسرقة والتجارة فى

السوق السوداء يستطيع أن يهبك كل شيء .. قم لعنة الله عليك وعلى أبيك وعلى كل من ينتخبك .

واستيقظ « زينهم باشا » على صوت الخطيب ، وقفز من مكانه فرغاً . ووقف برهة ينصت مأخوذاً إلى اللعنات التي تكال له .. ويحملك في الخطيب في ذهول شديد .. ثم أفاق لنفسه ، وصاح بخدمه يأمرهم بالقبض على الرجل المجنون وإلقائه خارج السرايق أو تسليمه للشرطة . وتكأ كالأخدم على الخطيب .. فأوسعوه ضرباً .. واختفوا به عن أبصارنا وقد علا صياحه إلى عنان السماء .

واعلى « زينهم باشا » منصة الخطابة مصراً على أن يخطب في الناحيتين بنفسه غير معتمد على أحد من الخطباء المأجورين ، ووقف أمام المكبر وقد بدا عليه ارتباك شديد ، وأخذ يتحنس الكرافة .. ثم يضع يده في جيب البنطلون ويخرجها بضع مرات .. ويتنحنع ويصق .. ثم يفرغ ما تبقى من المياه في الدورق فيملأ به الكوب ويشربه .

وأخيراً نطق الباشا .. بعد أن وضع أمامه ورقة مكتوبة :

— أبناء وطني .. لست أريد أن أثقل عليكم بالخطب الرنانة ، فإن شعاري دائماً .. العمل في صمت .. لا أقول إلا ما قل ودل ، ولا أفعل إلا ما أفاد ونفع . إياها الإخوان الكرام .. سأخلص لكم مبادئ في كلمات قلائل ، وسأبين لكم الأغراض التي أنوى تحقيقها إذا ما فزت بأصواتكم وأصبحت نائباً عنكم . إن أهدافي التي أبغى الوصول إليها تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، أو أهداف للوطن وأهداف للدائرة .

أما أهداف الوطن فهي وحدة وادي النيل تحت التاج المصري وطرد آخر جندي إنجليزي من مصر والسودان .. هذا عن الناحية الخارجية .. أما عن الإصلاح الداخلي فسيكون هدف إصلاح حال الفلاحين والعمال ورفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة .

أما أهداف الدائرة .. فأني أعاهدكم ألا يبقى بينكم عاطل .. أو مظلوم ، وأن أفتح صدرى لكم جميعاً .. وأن أكون في المجلس كأننى خلاصتكم .. أو كأنيكم في المجلس .. وأن أفعل ..

وصمت الرجل ، ثم أخذ يكرر :

— وأن أفعل .. وأن أفعل ..

ثم نظر إلى يمينه فجأة وصاح غاضباً موجهاً القول إلى رجل معمم يجلس بجواره :

— انت يا شيخ على .. الله يخرب بيتك .. ماذا كتبت يعد « أن أفعل » ؟ إن خطك لا يقرأ .

ثم كور الورقة في يده وقذف بها في وجه الشيخ « على » وبصق عليه . ولم أكن في حاجة هذه المرة إلى قرصة صاحبي حتى أدرك أن النفاق قد تبدد من نفس « زينهم باشا » ، وأن جرعة الماء قد سرى فيه مفعولها .. فقد تبينت أعراض الأخلاق على وجهه ، واضحة جليلة .

وبدا لي كأن هناك صراعاً في جوف الرجل ، وأن النفاق المتحكم في نفسه يأبى أن يتوارى وراء الصراحة الطارئة .. وأنها تقاومه مقاومة شديدة .. ومضت برهة والرجل تبدو عليه حيرة شديدة ، وكأنه هو نفسه في دهش مما يحدث في داخله من صراع خفى ومعركة مستترة ، وأنه بات مذهولاً من هذا الدافع العجيب الذى يدفعه إلى أن يكون إنساناً آخر غير نفسه .

وظللت أرقب الرجل مراقبة دقيقة .. كما نرقب أرباباً أو فآراً نجري عليه إحدى التجارب .

وفجأة رأيت الرجل يندفع في قهقهة عنيفة عالية .. ثم يصيح بصوت يتخلله الضحك :

— شيخ « على » .. الله يخيلك يا شيخ « على » .. ما هذا الكلام الفارغ الذى كتبت له في الورقة .. مبادئ إيه وهباب إيه .. من قال لك إني صاحب مبادئ .. أنا (أرض النفاق)

صاحب عمارات .. وصاحب أطيان .. وصاحب مصانع .. وصاحب ثروة .. وصاحب لقب .. وصاحب كل شيء إلا المبادئ .. اللهم إلا إذا كان النفاق والغش وللؤم .. والاحتيال .. تسمى مبادئ .

ما هذا التهريج الذى حبثت به الورقة ؟!

وحدة وادى النيل ؟!

وانطلق الرجل مرة أخرى فى قهقهة شديدة وأخذ بدنه يهتز ويترنح ، ثم عاد

صياحه :

— أنا أدخل مجلس النواب لأحقق وحدة وادى النيل ؟.

والله لقد هزلت .. ولو كانت وحدة وادى النيل ستنتظر حتى تتحقق على يدى .. فلا كنا ولا كانت الوحدة .

ثم لماذا نطلب وحدة وادى النيل ؟

وماذا يمكن أن نفيد من وحدة وادى النيل .. ونحن شعب إذا نقل موظف منا إلى جرجا .. شيعناه بمناحة !

هل تعلمون أنه قد مضى على ثلاثة أشهر ولا عمل لى إلا التوسط فى نقل محمد بن اخنى .. حتى أعيدته إلى القاهرة . من أين ؟.. من الجيزة .

مالنا ولوحد وادى النيل .. أليس من الأفضل أن نطالب بوحدة مصر

أولا .. ومن نطالب بالوحدة ؟! الإنجليز ؟!

أنا رجل جاهل .. ولا أدعى قط علماً بالسياسة .. ولكنى مع ذلك أعرف أن أبسط طرق الوحدة أو الاتحاد بين فردين أو جماعتين .. هو التزاور والاختلاط والامتزاج والتحاب وتبادل المنافع حتى يصبح لا غنى لأحدهما عن الآخر .. وحتى يصبحا كفرد واحد ولا تستطيع أن تحول بين اتحادهما أية قوة .. أما أن يظل أحدهما بمنأى عن الآخر .. كالكسيح المقعد .. ثم يتباكى ويتصاخب .. ويعلن أنه يريد الوحدة .. فذاك هو الهذر والتغفيل .

على أية حال هذا مجرد حديث .. أنا لا شأن لى بهذه الشؤون السياسية ،

وما فكرت قط في الوحدة ولا في غيرها .
أما الجلاء .. فلا أكنكم القول أتى آخر من أفكر فيه أو أرحب به .. كيف
لا .. ولحم أكتافى من أموال الخليفة .. ومما وردته لها خلال الحرب .
إن هدفى الأول من دخول مجلس النواب هو أن أصبح نائباً محترماً ، وأن يقال
لى حضرة النائب المحترم .. ألا ترون معى أنه لقب ضخم رنان .. وأنه يتيح لى
كذلك أن أخوض معمعة السياسة .. ومن يدرى ربما استطاع أن يقفز لى إلى
كرسى الوزارة فأضحى معالى .
أيها الناخبون الكرام .. أنتم كرام حتى تنتخبونى .. فإذا ما فزت فى المعركة
فأنتم أوغاد للام .

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من تملقكم وخطب وركم ومجاملتكم
ورشرتكم بالطعام والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى نائباً .. فإذا ما
جعلتمونى .. فاغربوا عن وجهى فما عادت لى إليكم حاجة .. إياكم أن تكونوا
حسنى النية فتسألونى الوفاء بالوعود .. إياكم أن تطلبوا منى التوسط فى قضاء
حاجتكم فإنى أؤكد لكم أتى لن أجد من وقتى فسحة لسماع سخافاتكم .
أيها الرعاع الحوش .. لقد ذبحت لكم عجلاً .. أنزله الله فى جوفكم بالسم
الهارى .. وأطعمتكم « فتة » جعلها الله فى بطونكم ناراً كاوية .. أنتم قوم
لا تتحركون إلا للمنفعة .. منفعة الجيوب أو البطون .. أليس كذلك يا شيخ
« على » ؟ .. لقد لدعت منى ثمنًا للخطب التى كتبتها جنبيين غير الغداء
والعشاء .

أيها الناخبون اللام ..

لَمْ نضحك على بعضنا ؟ .

لَمْ لا نكون صرحاء فنكف عن هذا الخداع ؟! أنتم سفلة ، وأنا أشد منكم
سفالة . أنتم خبيثاء أشرار ، وأنا أكثر منكم خبيثًا وشرًا .. أنتم نفعيون ، وأنا بلا
مبادئ .. ما الداعى إذن لأن تتشدد بهذه الخطب الرنانة ، وبوحدة وادى

النيل ، ورفع مستوى المعيشة ، وغير ذلك من الأقوال البراقة الخداعة ؟
أنا أريد أن أكون نائبا ، وأنتم تستطيعون أن تعطوني ما أريد .. المسألة لا تزيد
عن أن تكون مجرد صفقة .. « خذ واعطى » .

سأخذ أصواتكم وأعطيكُم ثمنها .. لا تنتظروا مني وعودا ، فأنا لا أشتري
« شككا » سأدفع لكم نقدا .. الصوت بخمسين قرشا .. ما رأيكم ؟
وتعالت الصيحات من أركان السرادق مختلفة مشوشة « خمسين قرش يعملوا
إيه ؟ » أو « خليه بجنيه » أو « موافقين » .

وعاد « زينهم باشا » يصيح في وسط الجمع :
— لن أدفع أكثر من خمسين قرشا .

ثم التفت إلى يمينه قائلا :

— يا شيخ على .. استبدل كل الكلام الذي كتبته للنشر في الأهرام بما سأقوله
لك :

« يعلن زينهم باشا حتمت أهل دائرة عابدين اللغام أنه قد جعل لأصواتهم
تسعيرة محددة هي خمسون قرشا للصوت وسيكون الدفع فورا أمام مكاتب
الانتخابات ، والذي لا يعجبه السعر .. فملعون أبوه في الأرض » .
وهنا تعالى صياح الناخبين :

— ملعون أبوك انت لأبو اللى يتشددو لك .

وبدأت المعركة حامية الوطيس ، تعالى الصراخ وتطايرت الكراسي في
الهواء ، وانهار السرادق على من فيه .

وخرجت وصاحبي نعدو .. هارين من المعركة .. حتى وصلنا إلى شارع
حسن الأكبر ، فوقفنا نلهث ونجفف عرقنا المنصب ، ووجدت صاحبي ينظر
إلى حانقا ويقول :

— أنت المسئول عن كل هذا .. لقد ارتكبت فعلا نكرا .. هذه الدماء التي
سالت ، والمعارك التي نشبت ، أنت المسئول عنها . إن الذنب كله في عنقك .

— عنقى أنا ، ولم ؟! أهو أنا الذى دفعتهم إلى التفارک والتقاتل ؟
— أنت الذى أزلت من نفوسهم النفاق .. أنت الذى كشفت ما ستر من
خبائثهم .. لقد كان لهم من النفاق حجاب واق فهتكته .. وأضحى كل منهم
يرى صاحبه على حقيقته ففزعوا وجزعوا .. ألم أحذرك من كل هذا ؟
— صبراً لا تخف عليهم .. لقد قلت لك إن كل انقلاب لا بد له من ضحايا .

(١٥)

وباء الأخلاق

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .
لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصاب وفيه
البلاء .. اشربوا فيشى إن أمكن ففيه الشفاء
وفيه الوقاء حفظكم الله من الأخلاق ومن كل
وباء » .

وصلنا إلى باب الخلق .. فوجدنا في الميدان صخباً وضجيجاً ، وسمعنا صفافير
تطلق ، وأبصرنا حشداً من الناس أمام المحافظة ، وسألنا عما حدث ، فقيل لنا إن
بعض المذنبين قد فروا من التخشيفية .. لأن الحراس قد أطلقوا سراحهم زاعمين
أنهم لم يفعلوا أكثر مما يفعل كثير من الزعماء والوزراء والكبراء الذين ما زالوا
مطلقى السراح يتمتعون بكامل حريتهم وجاههم ونقوذهم وسلطانهم .
ونظر إلّى صاحبي في أسف ، وقال :

— وهذا أيضاً أتت سببه .. فلا بد أن الحراس قد شربوا من المياه الجديدة
ففعّلوا ما فعلوا .

— ونعم ما فعلوا .. فقد حققوا مبدأ المساواة .. فإما أن يطلق سراح المذنبين
الفقراء ، وإما أن يقبض على المذنبين من الكبراء ، ولقد فعلوا هم ما يستطيعون
فعله فأطلقوا سراح مذنبهم .

وسرنا في شارع محمد على متجهين إلى العتبة .. ولم نكد نسير في الشارع برهة حتى وقفنا متمسرين ، وقد تملكنا ذعر شديد فقد رأينا جسداً يهوى إلينا من الدور الرابع لأحد المنازل .

ووقفنا ننظر إلى حطام الجسد مرتاعين ، ونظرنا إلى أعلى فوجدنا رجلاً يقف في الشرفة التي هوى منها الجسد وسمعناه يصيح بنا ضاحكاً :
— ما تخافوش .. دى حماى .. عقبال عندكم .

وتكأ كالأشخاص حول الجسد ، وازداد التراحم ، وتعالى الصياح ، وتسلفت صاحبي من بين القوم .. ونحن نسمع تعليقات القوم حول الحادث :
« لا .. بسيطة دى حماة على أفندى » .. « ما تتخضوش دى حماة على أفندى » ، « ما فيش حاجة .. دى حماة على أفندى وقعت من الدور الرابع » .
ووجدت صاحبي ينظر إلى متسائلاً وقد أبصر بوجهي علام حزن :

— انت زعلان على حماة على أفندى ؟

— لأ .. أنا زعلان لأنى ساكن في الدور الأول .

ونظر إلى صاحبي ضاحكاً وأجاب :

— يا سيدى .. من لم يميت بالسيف مات بغيره .

وعاودنا السير .. ونحن نسمع من كل بيت نمر به صياحاً وضجيجاً ، ونبصر في كل حانوت .. معركة حامية .. ووجدنا الشحاذين قد تبدلت دعواتهم فأصبحت لعنات ، ولم نعد نسمع « ربنا يجعل بيت المحسنين عمار » ، بل « هات حسنة الله يخرب بيتك » .

ووصلنا إلى العتبة ، فإذا بالترام معطل ، وحركة المرور واقفة ، والمعارك قد اشتد أوارها .. واتجهنا إلى ميدان الأوبرا .. فلمحنا عربة إسعاف تمر كالبرق .. ثم تقف أمام الكونتنتال .. وبعد برهة لحنا جسداً يخرج على نقالة وقد عصب رأسه وشد ذراعه إلى عنقه ، وسألنا رجلاً يقف على قارعة الطريق عما حدث وعما يعرفه عن الرجل الذي حملته عربة الإسعاف ، ونظر إلينا الرجل وأجاب :

- ده إبراهيم باشا زكى .
— إبراهيم باشا زكى وزير الأشغال ؟
— أجل .
— وماذا حدث له ؟
— وهز الرجل كتفيه وأجاب ببساطة :
— كان عنده حفلة تكريم .
— ونظر إلى صاحبي فى غيظ وسألنى :
— أيعجبك هذا ؟
— جدًا .
— أنت رجل سوء وشر .
— أبدًا والله .. هذه هى الطريقة الوحيدة لإبطال حفلات التكريم والكف
عن هذا التبريج وتلك المسخرة . هل تظن أن هناك وزيرًا سيقبل أن تقام له حفلة
تكريم .. بعد أن لقي زميله من وسائل التكريم ما حمله إلى الإسعاف ؟
وكان التعب قد أخذ منا مأخذه .. فقد بلغت الساعة السادسة مساء ، وقد
أمضينا اليوم فى حركة مستمرة نتقل من مكان إلى مكان .. نشاهد زوال النفاق
من النفوس وآثاره المروعة .
ونظرت إلى صاحبي وقلت له :
— إني لم أعد أحتمل السير .. ألا تحس أنت بالتعب ؟
— إني أشد منك تعبًا .. ليتنا أرحنا أنفسنا وأرحنا الناس .. ليتك لم تلق
المسحوق فى النهر فتلوته بالأخلاق ، من يدري كيف سينتهى الحال بالدنيا
وبالناس .. إن بى عليهم جزعًا شديدًا .
— لا تخف .. سليمة إن شاء الله .. هيا بنا إلى الحانوت نقضى فيه ليلتنا حتى
نستطيع أن نبدأ فى الصباح .. جولة جديدة .
وعندما انتهيت من قولى ، وجدت رجلا قد وقف بجوارنا يرهف السمع

وينصت إلينا وقد بدت عليه علامات الدهشة ، وخيل إلّى أنه من المخبرين ، فلم أجد خيراً من أن أشرع بالفرار وصاحبى .. قبل أن يتسرب إليه الشك بنا فيلقى القبض علينا .

واتخذنا طريقنا إلى الخانوت فوصلناه قرب العشاء ووقفنا أمام الباب نتحسس موضع المفتاح فى الظلمة .

ثم أضأنا عود ثقاب استعنا به على فتح الباب .

ودخلنا الخانوت وأخرج صاحبى الفأر فأطلقه بين الشوالات ثم أشعل المصباح وفرش لنا شوالين على الأرض تمدد على أحدهما وتمددت على الآخر .. ولم تمض لحظة حتى رحنا فى سبات عميق .

* * *

ولست أدرى كم مضى علينا ونحن فى سباتنا ، ولكن استيقظت فجأة على طرقات شديدة يباب الخانوت وأصوات تتصايح :

— افتح .. افتح .

وهبت من نومى فرعاً ، ووجدت صاحبى قد وقف بجوارى ينتفض كريشة فى مهب الريح ، وأصبنا بحيرة فلم ندر ماذا نفعل .. وعادت الطرقات تتوالى والأصوات تصبح بنا بشدة :

— افتح .. افتح .

وراح صاحبى يقول بصوت مرتعد :

— من ؟

وأجابه صوت غليظ صاخب :

— قلنا لك افتح .

ورأينا الباب يهتز تحت طرقاتهم ويكاد يتهاوى أمامهم .

وسألنى صاحبى هامساً .

— من تظن الطارقين ؟

— هل عرفتما جرمكما الشنيع ؟ .. هل رأيتما مدى ما جرّه على الناس من بلاء ومصاب ؟ لقد تركتما البلد كمرجل يغلي .. وأنتما هنا راقيدين في هدوء كأنكما ما فعلتما إنمّا ولا جرماً ؟

وبدأت أستعيد رباطة جاشي وصحت بالرجل :

— ما هذا الذى تهرف به ؟ إنمّ وجرم .. ووباء وجرائم .. منذ متى كانت الأخلاق وباء ؟ .. هل تظن أننا ننكر ما فعلنا .. أو أننا نخشى مغبته ؟ .. إلى أنا الذى وضعت مسحوق الأخلاق فى النهر .. وأنا الذى لوثت المياه — على حد قولكم — بجراثيم الأخلاق .. ونشرت وباء الأخلاق بين الناس وضيعت من نفوسهم النفاق .. أنا الذى سأصلح الدنيا وأعمو شروها .

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وتبادل الشرطة النظرات وهزوا رءوسهم ثم قال أحدهم :

— مجنون !!

ومصدق الآخرون على قوله .. وأجابه أحدهم :

— وأشدّ منهم جنوناً هذا الأحمق الذى بجواره .. الذى تركه حتى « أتى بما لم تستطعه الأوائل » ، فمزق عن الناس حجب النفاق ، وكشف دخائلهم .. فولوا من بعضهم فراراً وملتوا رعباً .

وصمت برهة ثم صرخ لى :

— هيا تقدم أمامى .

ومد يده فأمسك لى من قفاى كأى أفاق شرير ، وتقدم آخر ففعل بصاحبى نفس الفعل .. وقد حاول التخلص من قبضته صائحاً :

— لحظة واحدة أحضر شوح وأغلق الحانوت .. إني أخشى على البضائع التى به .. من يدرى قد تنقلب الدنيا .. فتصبح ذات قيمة ويروج سوقها ويقبل عليها الناس .

وتركه الشرطى برهة حتى أحضر فأره ثم أغلق الحانوت . وتقدم بجوارى

وهزرت كفى وأجبتة :

— من يدري .. ربما كانوا زبائن من الزبائن الذين فتحت شهيتهم على الأخلاق الحميدة فأقبلوا مندفعين يريدون أن يتناعوا منها قبل أن يسبقهم غيرهم . وهز رأسه متشككًا وقال :

— لا أظن .

— قد يكونون لصوصًا تذوقوا المياه الجديدة وأدركوا أن المستقبل قد أضحى للأخلاق الحميدة ، فأقبلوا يسرقونها ويبيعونها للناس في السوق السوداء .

— لا أظن .. فلو كانوا قد تذوقوا المياه الجديدة لمنتعهم من السرقة . وهنا كان عيل صبر الواقفين بالباب .. وأخذ الباب يترنح أمامهم فلم نجد بداً من أن نفتحه .

وفتحنا الباب .. فراعنا أن نجد الشرطة ومعهم ذلك الرجل الذى كان ينصت إلينا .

ولم تمض برهة حتى كنا مكبلين بالأغلال . ووقفت أتساءل في دهشة عن سبب إلقاء القبض علينا ، فأجابنى الرجل الذى كان ينصت إلينا :

— كفى استهبالا .. أنت أدري الناس بالجريمة التى ارتكبتها . — أنا لم أرتكب أية جريمة .. ولا أدري شيئاً عن التهمة الموجهة إلينا . — أيها المجرم الشرير .. ألم تعترف أنك أنت نفسك الذى لوثت المياه بالجرائم ؟ — أية جرائم ؟

— جرائم الأخلاق .. لقد أفسدت الدنيا وقلبت حالها .. لقد أصبت الناس بوباء الأخلاق ، وأضعت من نفوسهم الرياء والنفاق .. ولن ينفع فى شفائهم بنسلين .. ولا مصل واق .

ووقفت وصاحبى أمام الشرطة وقد تملكنا دهش شديد وأخذنا ننظر إلى الرجل النائر الخائى وهو يكيل لنا التهم ويهدر صائحا :

من بلاد
كأنكما

ي كانت
.. إلى أنا
على حد
يعت من

بل

« أتى بما
أثلمهم ..

صاحبي

ثائق التى
بل عليها

بحوارى

وسرنا وقد أحاط بنا الحراس .. الذين أنباؤنا أننا سنوضع في السجن رهن التحقيق .

وخطر لي أن أحاول رشوة الحراس حتى يطلقوا سراحنا ، ولكنني خشيت أن تكون المياه الجديدة قد سرت فيهم وأن يكونوا هم الآخرين قد أصيبوا بوباء الأخلاق فيرفضوا الرشوة وتكون جرمتنا مضاعفة .

وكان النهار قد بدأ .. ورأينا باعة الجرائد ينطلقون في الطرقات صارخين : « وباء الأخلاق يا جدع — الميكروب الجديد — الكارثة الكبرى » .

وبدا لي من صياح باعة الجرائد ومما رأيت في الشارع من آثار التخريب والتدمير وانتشار رجال البوليس في الطرقات .. أن المسألة جد خطيرة .. أخطر كثيراً مما كنت أتصور .

واستأذنت الحراس في أن نبتاع بعض الجرائد والمجلات حتى نطلع على ما حدث في البلد من تطور وعلى ما حل بالناس من نوائب ومصائب . وناديت أحد الباعة فابتعت نسخة من كل ما معه حتى أتسلى بقراءتها في الطريق وفي السجن . وجلست في الترام ، وأمسكت بالصحيفة اليومية الأولى .. فقرأت في صفحتها الأولى بالخط العريض :

« ظاهرة عجيبة ينتج عنها حوادث خطيرة »

ثم كتب أسفل هذا العنوان عناوين أخرى فرعية أصغر حجماً من العنوان الرئيسي جاء بها :

« أحد الوزراء يضرب ضرباً مبرحاً في حفلة تكريمه »

« خطيب يمين في أحد الجوامع »

« قتل ما يقرب من ألف وخمسمائة حماة »

« فرار ما يربو على الخمسة آلاف زوج من زوجاتهم »

« أحد العظماء يموت ضرباً بالنعال من بعض أتباعه الأوفياء .

« الشيخ نور العيون يعلن ثورته على المايوه ذى القطعتين ويقول إن واحدة منها

فيها الكفاية .. ويحذ مبدأ العراة والسير ملط » .

« الأستاذ بلبوش رئيس جمعية منع المخدرات .. يلقي محاضرة في قاعة إيوارت عن تمييز « الجون هيچ » عن « الديوارس » ويختم محاضراته بذكر بعض فوائد الحشيش ويقول أنا جدع » .

ولم تدهشني العناوين كثيراً فما كنت أتوقع أقل من ذلك بعد أن زال النفاق من النفوس ، وأخذت أقلب صفحات الجريدة بين يدي .. فوجدت كل ما فيها قد تغير وتبدل .

أجل .. إن الجريدة نفسها قد أضحت بلا نفاق .

من يتصور هذا ١١؟ من يتصور صحافة بلا نفاق ؟ أو نفاقاً .. بلا نفاق ! وكنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق ، وقادنا الحراس إلى — التخشبية — حيث أدخلت وصاحبي إلى حجرة ضيقة قد وضع على أرضها المسفلتة « برش ودكة خشبية » .

وتريع صاحبي على الأرض وجلست على الدكة ، ورأته ينظر إلى ويقول في استسلام ومسكنة :

— أيعجبك هذا ؟

— صبراً .. فأخلق بلدى الصبر أن يرى فرجنا .

— صبراً إلى متى .. إلى أن يوضع حبل المشنقة في عنقينا ١؟

— حبل المشنقة ١! قال الله ولا فالك .. إنه ما زال أماننا تحقيق طويل ..

ومحاكمة أطول .. نستطيع أن نطلب فيها شهادات الزعماء والوزراء .. فيضيعون الساعات الطوال في الدفاع .

— الدفاع عنا ١١؟

— لا .. الدفاع عن أنفسهم .

— ولم ؟

— فرصة سانحة ، يشيدون فيها بفضائلهم ومحاسنهم ويعددون مساوئ

خصومهم .. ولا تنس كذلك الوقت الذى سيضيعه المحامون .. فى سبيل الظهور والشهرة ، لا فى سبيل الدفاع .

وأطرق صاحبى برهة .. ثم رفع بصره أخيراً وقال فى حزن :
— على أية حال .. لست أرى فائدة فى كل هذا الوقت الضائع مادمتنا سنشتق إن عاجلاً أو آجلاً .

— نشنق ؟ أمها الغيبى .. علام نشنق ؟ إن القتل قد أضحى — ديتة — عشر سنين . فماذا فعلنا نحن حتى نشنق ؟!

— هذا القتل الذى تعنيه .. قتل سياسى .. أما نحن فحاولنا تلويث المياه بجراثيم الأخلاق .. ونشرنا بين الناس وباءها الفتاك .

— ومن قال لك إن هذه ليست تهمة سياسية ؟

ونظر إلى الرجل فى دهش وتساءل :

— وأى سياسة فيها !!

— نستطيع أن ندعى أننا لم نقصد بتلويث المياه الجراثيم سوى إصابة خصوم الحكومة .. الخونة .. الأشقياء .. بداء الأخلاق .. وتبقى الحكومة بلا أخلاق .. تصور الفائدة الكبرى التى تستطيع أن تجنيها الحكومة من ذلك ، والضرر البالغ الذى يصيب خصومها .

تصور خصوم الحكومة ومعارضيه .. وقد فقدوا كل قدرة على الغش والخداع والتفجير بالشعب .. والتهويل والتهويل والتفجير ، والجرى وراء الحكم ، والمصلحة الذاتية ، والأنانية والكذب والرياء والنفاق .

تصور خصوماً شرفاء ومعارضة نزيهة أمينة عفة اللسان .. أمام حكومة لم تصب بعد بداء الأخلاق ولم تشرب — المقلب — الذى شربته المعارضة ونجس به الخصوم !

أترى هناك جميلاً يمكن أن نصنعه فى الحكومة أكثر من هذا ؟ أهنالك سبب أقوى من هذا يحملها على تبرئتنا ؟!

— وهل تظن أن الحكومة ستخضع بادعائنا ؟

— ولم لا ؟

— لأننا لوئنا كل المياه .. فكيف نزعم أننا لم نكن نقصد الحكومة ضمن من قصدنا .

— نستطيع أن نرسل الآن برقية لرئيس الحكومة نخذره فيها من شرب المياه حتى تثبت بذلك حسن نيتنا .

ووجدت الفكرة صائبة .. ووجدت فيها خير منقذ لنا ، وأخرجت من جيبي ورقة وقلماً وكتبت صورة التلغراف الآتي :

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصائب وفيه البلاء .. اشربوا — فيشئ — إن أمكن ففيه الشفاء وفيه الوقاء .. حفظكم الله من الأخلاق ومن كل وباء » .
وقرأت البرقية على صاحبي وسألته :

— ما رأيك ؟

ولم يجب على سؤالي بل هز رأسه وقال في يأس :

— وماذا تفعل إذا رد عليك « شربنا والي كان كان » ؟

— لا يهم الرد .. المهم أن تصل إليه البرقية حتى تثبت حسن نيتنا ..

وطرقت الباب منادياً أحد الحراس ثم دفعت الورقة من أسفل الباب سائلاً إياه

أن يرسل البرقية إلى رئيس الوزارة .

وهبطت على البرش بجوار صاحبي .. فقد كانت جلسة « الدكة » متعبة ..

ثم أمسكت بكوم الجرائد .. لأضيق الوقت بالقراءة ، ولأرى كيف أضحت الصحافة بلا نفاق بعد أن أصابها هي الأخرى وباء الأخلاق .

(١٦)

صحافة بلا نفاق

أيها القراء المخدوعون .. إن هدف
الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليست
الوطنية .. ولا الثقافة ، ولا خدمة الشعب ،
ولا حرية الرأي ، ولا رفع منار الفضيلة ..
ولا .. ولا .. ولا شيء أبداً من كل هذه
الخزعבלات .. إن هدف الصحيفة الأول هو
بيع الصحيفة .. هو المكسب ، هو أكل
المعيش .

فتحت إحدى الصحف الشهيرة فلفت نظري في أولى صفحاتها مقال بعنوان
« أكل عيش » لأحد كبار الكتاب الذي تلهب مقالاته حماسة وتفويض إخلاصاً
وقوة .

وأدهشني العنوان بعض الشيء .. فما تعودت أن أقرأ للكاتب الصادق
المخلص .. مقالات بمثل هذه العناوين الباردة ، وأخذت في قراءة المقال فإذا به كما
يأتى :

« أكل العيش وما أدراك ما أكل العيش ؟ أكل العيش يفعل بنا العجب
العجاب .. ولكن أهو حقاً مجرد أكل عيش ! أعنى العيش الخاف أو حتى العيش

والغموس .. لا يدفع بنا إلى كل هذا النفاق .. والتهويز والتهريج .. أكل العيش لا يستلزم منا كل هذا الجهد والتفنن في الرياء والنفاق .. إن الطمع هو الذى فعل .. الطمع لا فى أكل العيش ، بل فى أكل البقلاوة والجاتوه .

من منكم ذاق طعم المصاريف السرية ؟ أقسم لكم أنى معنور فى هذا النفاق .. الذى طالما سقته إليكم فى مقالاتى وأقسم أن أى إنسان كان فى موضعى وذاق مثلما ذقت لما كان أقل حماسة ولا نفاقاً .

أنتم لا تعرفون إلا القليل عما يجرى وراء الكواليس .. كواليس الصحف .. فكل ما تعرفونه هو هذا المظهر الخارجى الذى يبدو لكم على مسرح الصحيفة ، وكل ما ترونه من الكتاب الذى يبدو على صفحاتها .. هو تلك المقالات البراقة الرائقة التى فعل بها الماكياج ما فعل .. والنسب تخرج كلماتها من بين أنامل الكتاب .. الأنامل المأجورة .. لا من بين الضلعوع أو من أعماق القلوب . كل ما ترونه أمامكم ليس إلا مقالات بالثمن .. إما لشد خاتمة وملء فراغ أو لحاجة فى نفس يعقوب .

أيها القراء المخدوعون .. إن هدف الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليس الوطنية .. ولا الثقافة .. ولا خدمة الشعب ، ولا حرية الرأى .. ولا رفع منار الفضيلة .. ولا ولا .. ولا شئ أبداً من كل هذه الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو بيع الصحيفة .. هو المكسب .. هو أكل العيش . أما كل ما ذكر فهو ليس من الأهداف فى شئ إنما هو وسائل توصل إلى الهدف الأول .. الربح .. فإذا كانت الوطنية مربحة .. فلتحى الوطنية ، وإذا كان المزل والفكاهة أكثر ربحاً ، فلتسقط الوطنية وليحى المزل والفكاهة .. وإذا كان ذكر الفضائح .. أشد ربحاً فلتحى الفضائح .. وإذا كانت محاربة الرذائل وسيلة لإنتشار الجريدة فلتحى الفضيلة . وإذا كانت الصورة الفاضحة والسبقان العارية والتهود البارزة .. وسيلة ربح .. فلتذهب الفضيلة إلى حيث ألقت .

أكل العيش يا ناس هو غرضنا الأول . وهدفنا الأوحد . ونحن على استعداد (أرض النفاق)

لأن نفعل كل المتناقضات في سبيل أكل العيش .

منذ بضعة أيام قرأت في إحدى الصحف مقالا يحمل على الشركات السينائية الأمريكية التي تساعد الصهيونية .. ويطلب كاتبه مقاطعة كل أفلام النجوم والشركات التي تناصر الصهيونيين . وعدد أسماء النجوم والشركات المذكورة وحث الحكومة على ألا تسمح بدخولها إلى مصر .

وكان المقال يفيض حماساً ووطنية ، مما حدا بي إلى أن أقول لنفسى إن الصحيفة تشكر على تلك اليقظة ، وذلك التوجيه ، ولكن نظرى وقع في أسفل المقال على إعلان بالخط العريض .. عن أحد أفلام تلك الشركة التي تحذر الصحيفة في مقالها من مشاهدة أفلامها .

وعجبت من هذا التناقض . كيف تدعو الصحيفة إلى مقاطعة أفلام الشركة الصهيونية .. وفي الوقت نفسه تعلن عن أفلامها ؟

هل علمتم السبب ؟

أكل العيش !

إن الوطنية والحماسة بضاعة رابحة .. والإعلانات كذلك تدر ذهباً .. فماذا يضير الصحيفة من أن ترينا وجهيها .. وجهها يلتهب حماساً ، ووجهها يستجدي النقود .. ماذا يضيرها من أن تحذر الناس من أفلام الشركة الصهيونية ، وأن تحثهم في الوقت نفسه على أن يشاهدوا أفلام نفس الشركة — ما دام — كله مكسب !

لست أدري ماذا يدفعني إلى ذكر كل هذا ؟ وإلى أن أكشف لكم نفسى .. وأكشف الصحافة معي !.. لست أدري ما الذى يدفعني إلى أن أكف عن النفاق وأكون إنساناً صريحاً وألا أندفع كما تعودت أن أندفع في ذكر مواقف الحكومة المشرفة . ترى ماذا يدفعني إلى ذلك .. والمبلغ الذى قبضته بالأمس ما زال يتخيم محفظتى والمصاريف السرية لم ينضب معينها ولا جف نبعها !؟

وكيف ينضب معينا .. وخزانة الدولة مفتوحة لنا على مصراعها ..
مصاريق تندفق بلا رقيب ولا حساب . إلى لأذكر كيف تذاقها لأول مرة ،
وكان ذلك ذات صباح ، وقد جلست إلى مكتبي .. أكتب المقال اليومي الذي
تعودت أن أكتبه .. والذي كنت أحمل فيه على الحكومة حملة شعواء .. وأهاجمها
هجومًا متكررًا .. لا لأني أكرهها .. ولا لأني أريد أن أقوم اعوجاجها وأهدمها
سواء السبيل .. بل لأن صاحب الجريدة أنبأني أن هذه المقالات ترضى الجماهير
وتروج الجريدة ، فاندفعت أكيل للحكومة النقد والهجاء ، وأنا إنسان طويل
اللسان .. لا أجد شيئًا أكثر من الهجاء ، إلا المديح الذي دفع ثمنه سلفًا .

ودق التليفون وأجبت :

— ألو .

— الأستاذ (...) ؟

— أجل أنا الأستاذ (...) .

— معالي الباشا يريد أن يكلمك .

وكلمني معالي الباشا .. وأنبأني بأنه يريد مقابلي ، وأنه سيحضر لزيارتي في
البيت ، وتملكني العجب .. معالي الباشا بجلالة قدره في البيت ؟
ومعالي الباشا هذا ليس بمجرد وزير .. بل هو وكيل حزب .. وهو القوة
المحركة للدولة .. ترى أى سبب خطير قد دعاه إلى أن يتنازل ويشرفني بزيارته ؟
وذهبت إلى الدار فأعلنت من بها أن عظيمًا سيشرفنا بالزيارة .. وبعد بضع
ساعات شرف الرجل .

وجلسنا نتحدث في مختلف الشؤون . وعرجنا على السياسة فغضب على الرجل
عتابًا رقيقًا لمهاجمتي لهم .. وتملكني من عتابه شيء من الخجل ، ثم بدأ يدخل في
الموضوع فأنبأني أنه يسرهم أن أنتقد أعمالهم .. على أن أخفف من حدة بعض
الشيء ، وأنهم طبعًا يعرفون أني لا أستطيع التحول إلى جانبهم مرة واحدة .
ولكن المسألة يمكن أن تأتى بالتدرج ، وهم على استعداد لتأدية ما أطلب من

خدمات من كافة العيانات .

ولم أدر بم أجيب .. فلو كان الأمر يختص بى وحدى لكان هيناً ، إذا لم يكن أسهل على من التحول ، ولا أسهل على من أن أشيد بالحكومة بنفس الحماسة والحكمة والمنطق التي كنت أهوى بها إلى أسفل سافلين . فالمسألة كلها كما سبق أن أخبرتكم لا تعدو أن تكون أكل عيش .. لكنى كنت أعلم أن هناك صاحب الجريدة ، وأن الغبى يعتقد اعتقاداً جازماً أن جريدته لن تروج إلا بتلك المقالات التي أهجو فيها الحكومة هجاء مقلداً .

ولاحظ الرجل على التردد .. وكان ذا كيا أريئاً .. إذا لم أكد أقول له :
— من ناحيتى أنا .. لا أظن هناك ما يمنعنا من التعاون فأنا فى خدمتكم ورهن إشارتكم .. ولكن فقط ..
حتى قاطعنى بقوله :

— من الناحية الأخرى اطمئن فقد تفاهمت معه ، واتفقنا .
وأدر كنت أن الناحية الأخرى قد قبضت ، وأنه وجد أن المصاريف السرية أوفر ربحاً من الوطنية ومن هجاء الحكومة .
لست أدرى من هذا الذى ابتكر حكاية المصاريف السرية ؟
لقد كان أولى أن يسميها المصاريف السحرية .. نقود متدفقة لا مقطوعة ولا ممنوعة .. كيف لا أنحمس من أجل الحكومة ، وكيف لا أغفر لها الزلات .. وأبتكر الأعداء ؟ كيف لا ألحس سابق تشييعى ، وأتناسى هجائى المقذع وشنائى وسبائى ؟! كيف لا أدق الطبول والزمر ؟! كيف لا أرقص أمامها عشرة بلدى ؟! كيف لا أعمل لها بهلواناً . والمصاريف السرية السحرية تغمرنى من كل جانب وتغدق على من كل صوب .

كيف لا أوافق .. بالثمن ، وأنا الذى كنت أوافق مجاناً ، ولوجه .. الله ماذا يضربنى أن أكون منافقاً بين ملايين المنافقين فى أرض النفاق ؟!
ولكنى اليوم .. أحس بطارئ جديد .. طارئ خطر . قد بدد من نفسى

النفاق وجعلنى عارياً مكشوفاً ، وسلبنى القدرة على أن أظهر غير ما أبطن ، وأن أقول غير ما أعتقد ، وأن أكتب مجرد أكل العيش .

إنى أحس أن أكل العيش من عند الله لا من عند الإنسان .. أحس أن فى السماء رحمة إلهية .. أكثر نفعاً من المصاريف السرية .

لشد ما أشفق عليكم وعلى الأمة وعلى الصحافة .. إنى أخاف من تلك الصراحة التى تعتمل فى جوفى .. إنى أخشى ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى الكتابة لوجه الله ولوجه الوطن .. ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى قول الحق فى بلد يخشى الحق ويكره الحق .

اللهم رفقاً بنا .. اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشداً .
اللهم إنى فى غنى عن مصاريفهم السرية ، وعن كل ما يدفع لى لأغير ما بنفسى من صراحة وحق .

إذا كان أكل العيش يجب النفاق .. اللهم اشهد أنى سأموت جوعاً .

وهزئت رأسى رضاء وغبطة وقلت لصاحبى :

— هذا كاتب قد فعلت فيه الجرعة مفعولها .. إننا سنتظر منه خيراً كثيراً ،
فليس أنفع فى الأرض من أهل الفكر المخلصين الصرحاء الذين يكتبون بقلوبهم ،
فهم خير قادة للبشر وخير واثق للإنسانية ، ولكننا فى هذا البلد قد أتلفناهم .. فقد
تحولوا من كتاب وأهل فكر .. إلى باعة كلمات ونجار أفكار .. تستأجرهم
الجرائد لقاء أجر شهرى فيوردون لها المقالات بكلمات معروفة فى مواعيد
منتظمة ، كأنهم متعهدو لحوم وخضار .. يكتبون مجرد ملء الفراغ وسد
الحانة .. فيهدرون ويمالأون الصفحات بالسخف ، والناس موهومون من
أسمائهم الرنانة (التى اكتسبوها بما كتبوا فيما مضى قبل أن تصبح أسمائهم
رنانة) يتخيلون فى القشور لباباً ويقبلون عليها فلا تطلعهم من جوع ولا تروهم
من ظمأ .. إن الكاتب منهم لا يكتب حين تنضح فى رأسه فكرة أو حين ينزل
عليه وحى ، فهذه أشياء لم يعد لها مكان فى دنيا الروتين .. إنه يكتب بلا فكرة

وبلا وحي . يكتب لأن موعد تقديم المقالة قد حان ، وهو لا بد أن يكتب شيئاً .. أى شيء ، والجريدة لا يهمها ما يكتب من هذر .. فهي لا تريد سوى اسمه .. أما الآن ، فقد أضحي إنساناً آخر ، لقد جولته الجرعة من بائع كلمات إلى كاتب مخلص حر .. والله لو لم تكن هناك فائدة في الحياة الجديدة سوى ذلك لكفى بها فائدة .. هل هناك خير للبلد من أن يكون أهل الفكر فيها مخلصين أحراراً ؟

وهز صاحبي رأسه موافقاً ، ولم ينيس بينت شفة ، فعدت إلى الصحيفة أتابع القراءة .

ووقع بصري في أسفل المقال على إعلان سينما .. أضحكني ما به .. فقد كان إعلاناً بلا نفاق .. وإليك الإعلان كما قرأته :

شركة أفلام الفجر (لصاحبها الحاج متولى بائع الخردة بوكالة البلع) تقدم أسخف وأبوخ أفلام الموسم :

حب بلا أمل

تأليف وإخراج وتمثيل وسيناريو وحوار وتصوير أثقل مخلوقات الله وأغباهم وأجهلهم الأستاذ (...) مع شرذمة من الأفاقين والأفاقات .. الضائعات .

فيلم رخيص تافه محشو بالأخطاء الفنية وغير الفنية ومحشو كذلك ببضعة رقصات بلا مناسبة .. ومحكمة وقضاة ووكلاء نيابة .. ومحام يحطبل بلا مناسبة أيضاً ، والرواية مفروض فيها أن تكون مؤثرة مفعجة .. فيها حريق .. ومريض بالسل ، ورجل يقتل نفسه بالرصاص .. وآخر يصدمه ترام ، وطفل يقع من رابع دور . ومع ذلك فكل هذه الكوارث والفواجع تبعث الضحك في النفوس .. أما الشيء المفعج حقاً ، فهي النكات البائخة والتهريج الرخيص المحشوبه الفيلم ، ونحن نحذر الجمهور من مشاهدة الفيلم ونسأله أن يطلب الرحمة

لصاحبه « الحاج متولى » الذى حشر نفسه حشرًا فى تجارة السينما فأضاع
« تحوشة العمر » على الفيلم وعلى الراقصة التى فى الفيلم .
ونظرت إلى صاحبى وقلت ضاحكا :
— هكذا تكون الدعاية والإعلانات وإلا فلا .
ثم لفت نظرى إعلان آخر بعنوان :

أوكازيون

تعلن محلات (..) الكبرى عن أوكازيون تباع فيه البضاعة بنفس السعر
العادى وبدون أى تخفيض .. بضائع قديمة مخزونة ، ليس هناك طريقة لتصريفها
سوى هذا الأوكازيون الصورى .. احذروا الغش والنصب والاحتيال .
وإعلان آخر بعنوان :

النصاب الأكبر

لكى تتروا المعجزات الخارقة زوروا النصاب الأكبر الدكتور (..) المنوم
المغناطيسى وقارئ الكف واللاعب بالبيضة والحجر ، تهوئش فى تهوئش ..
وغش فى غش ، وتهريج فى تهريج .. هل يعلم الغيب إلا الله ؟
وهكذا ظلمت أنتقل من إعلان إلى إعلان .. وكلها قد خلت من النفاق
وملئت بالصراحة والحق .
وتركت الإعلانات جانبًا ، وأخذت أقلب البصر فى الأنباء المحلية .. فقرأت
تحت عنوان :

مجلس الوزراء

اجتمع مجلس الوزراء للنظر في الموقف السياسى .. وظل المجلس مجتمعاً لمدة ثلاث ساعات ، وقد انتصرف الوزراء تبدو على وجوههم علامات التعب والإرهاك .. وقد سألنا أحد الوزراء عما تم في الموقف فالتفت إلينا في دهشة وتساءل :

— أى موقف ؟

— الموقف السياسى .. لقد قيل لنا أن المجلس سيبحث الموقف السياسى في هذه الجلسة .

— يجوز .

— وماذا تم فيه ؟

— والله لا أدرى .

— كيف ؟ .. ألم تكن معاليكم موجوداً في المجلس ؟

— كنت موجوداً .. ولكنى سرحت في نصف الجلسة ، ونمت في النصف الثانى .

وسألنا وزيراً آخر توسمنا فيه خيراً ورأينا فيه علامات اليقظة :

— ماذا تم في الموقف السياسى ؟

— لا شيء .

— ألم يبحث المجلس في الموقف السياسى ؟

— لا . ماذا بحث ؟

— لم يبحث شيئاً .. سوى النظر في بعض الترقيات والدرجات والعلاوات ،

ثم ضاعت بقية الوقت في خنافة بين وزير التجارة ووزير المالية من أجل التنازع على بعض الاختصاصات .

— وما هي آخر أخبار الموقف الخارجى ؟
ونظر إلينا الوزير فى ضيق وتبرم وأجاب :
— يا أخى حل عنى بقى .. أنا مالى ومال الموقف الخارجى اسأل رئيس
الوزراء .

وحاولنا أن نستفهم من رئيس الوزارة .. ولكنه جرى منا وعندما لحقنا به
رفع عصاه وهوى بها على أم ناصيتنا ولعن أبانا ثلاثا .. ثم زاغ بعرفته .
وانتهيت من قراءة أخبار مجلس الوزراء ، فانتقلت إلى عمود آخر لأقرأ
تحرركات الوزراء تحت عنوان (الوزراء) فقرأت ما يلى .
انتقل معالى وزير الزراعة إلى الإسكندرية للمرور والتفتيش رغم أنه ليس
هناك ما يستدعى لا المرور ولا التفتيش .. فلما سأله عن سبب سفره أنبأنا أنه
يجب أن يمر ويفتش على أسوان فى الشتاء ، وعلى الإسكندرية ورأس البر وبور
سعيد فى الصيف .

استقبل معالى وزير الأشغال فلان باشا .. وفلان باشا .. ثم أمضى فى مكتبه
بضع ساعات وطلب منا أن نذكر أنه يشتغل عشرين ساعة فى اليوم .. وأنه منك
جدا .. وأنه قد خسر بدخوله الوزارة .. وأن الوزارة عبء ثقيل .. وأنه لولا أن
الوطن فى حاجة إليه لاستقال منذ زمن .

وقبلت الصفحة فوق وقع نظرى على إعلانات الوفيات فهالنى ذلك التطور الذى
طرأ على طريقة النعى .

وتركت الصحيفة جانباً وتناولت إحدى الصحف الحزبية .. فإذا بعنوان على
صدر الصحيفة بالخط الأحمر جاء به :

« يجب أن تستقيل الوزارة .. الرئيس يصرح بأنه يريد العود إلى الحكم
فوراً .. لأنه مشتاق وبه لوعة » .

وقرأت المقال فوجدت نصفه الأول .. كلاماً عادياً مما تعودت أن أقرأه فى
الجريدة .. وهو مهاجمة الوزارة وطلب إقالتها .. أما النصف الثانى فقد اختلف

عما تعودت أن أقرأه .. لقد زال ما به من نفاق ، وأفصحت الصحيفة صراحة .. عن سبب هجومها على الوزارة .. وقالت إن الوزارة قد طال عمرها بلا مناسبة .. وإن أنصار الحزب قد نفذ صبرهم وعلى وشك أن ينفضوا .. وأن المسألة (بقت بايحه قوى) .

وقلبت الصحيفة فلم أر في عمود الزيارات الذى كان يكتظ بالأسماء زائرا واحدا ، وأدهشنى أن أجد الصحيفة خلت من التهريج والتضليل . وألقيت بالصحيفة وأمسكت بصحيفة أخرى . فوجدت في صدرها نبأ عجيبا .. بالخط العريض جاء فيه :

سبق صحفى عجيب

الوزارة تحل مجلس النواب ، ومجلس النواب يسحب الثقة من الوزارة .
البلد بلا وزارة .. وبلا مجلس نواب .
ثم قرأت تحت العنوان ما يلى :

جاءنا والصحيفة ماثلة للطبع ، أن مجلس الوزراء قد قرر حل مجلس النواب .. لأنه كعدمه . ولأنه عبء يرهق ميزانية الدولة بلا أية فائدة ، وفى الوقت نفسه قرر مجلس النواب سحب الثقة من الوزارة .. لأنها لا تستحق منه الثقة . ونظرت إلى صاحبي وصحت به فى دهشة :
— أرايت هذا ؟

ثم مددت له يدى بالصحيفة فلما قرأ الخبر هز رأسه وأجاب ببساطة :
— طبعا .. وزارة بلا نفاق .. لا بد أن تحل مجلس النواب .. ومجلس نواب بلا نفاق .. لا بد أن يسقط الوزارة
ثم رأيت الدهش قد علا وجهه فجأة ووجدته يحملق فى الجريدة ويهتف بى :
— أقرأت هذا ؟

فهزرت رأسي مستفهماً .. فأجاب :

— هذا الخبر خاص بنا .

— بنا نحن ؟

— أجل .

وخطفت منه الجريدة وسألته :

— أين ؟

فأشار بأصبعه إلى خبر صغير في أسفل خبر الوزارة ومجلس النواب .. وبدأت

القراءة :

وباء الأخلاق

تلقينا والجريدة ماثلة للطبع أن مجرمين شقيين قد ألقيا في النهر كيساً مليئاً
بمسحوق الأخلاق ، وأن وباء الأخلاق قد انتشر بسرعة بين الناس .. ولا شك
أن هذا هو سر ما قد حدث من اضطرابات في كل أنحاء البلد .. وقد علمنا أن أحد
المخبرين استطاع الإرشاد إلى المجرمين وأنه سيقبض عليهما وينالان عقابهما
الصارم .

وهز صاحبي رأسه وسألني في يأس :

— ما العمل الآن .. أما من طريقة للنجاة ؟

خاتمة

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين إما
 شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيرون عنه
 من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح
 حاله ، ويعالج مصابه ، ويزيل عن نفسه ذلك
 القيد الثقيل من الفقر ، والجهل ، والمرض ..
 وإما أنه شعب زاهد ، قد تعود ذلك البؤس
 الذى يرتع فيه ، والحرمان الذى يأخذ
 بخناقه .

لم أكن أرى داعيًا لهذا التشاؤم من صاحبي ، ولا كنت أشعر أن هناك من
 الخطر على حياتنا ما يدعونا إلى التفكير فى الفرار ، وألقيت الصحيفة من يدي
 وأخذت أفكر فى موقفنا برهة ثم قلت له :

— لست أرى معنى الفرار ، فلا بد لنا أن نسير فى الطريق حتى النهاية .
 — أى طريق هذا الذى تود السير فيه حتى النهاية ؟ أما يكفيك هذا الحال
 الذى دفعت بنا إليه ؟ ماذا تريد أكثر من هذا ؟!

— أريد أن أشاهد محاكمتنا .. فلا شك أنها ستكون محاكمة طريفة .. هل
 أبصرت فى حياتك إنسانًا يحاكم بتهمة إصابة الناس بالأخلاق ، وإزالة النفاق من
 نفوسهم !

— يا سيدى لم أبصر ، ولا أود أن أبصر .. مادمت سأكون أنا ذلك المتهم ؟
— على أية حال .. تود أو لا تود .. ستبصرها مرغمًا . فإني لن أحاول
الفرار ، وإذا أردت أن تهرب فاهرب وحدك .
— إما أن تهرب سويًا .. أو تبقى سويًا .
— قلت لك لن أفر .

— إذا فلنبق وأمرنا لله .
واضطجع صاحبي على البرش واستلقيت بجواره .. ولم تلبث قليلا حتى غلبنا
التعب ورحنا في سبات عميق .

ولم يطل نومنا حتى استيقظنا على صوت الباب يدفع والحارس يصيح بنا لكي
نتبعه إلى النيابة لعمل التحقيق .

وسرنا وراء الشرطي حتى وصلنا إلى حجرة وكيل النيابة ، ودخلت أنا أولا
ووقفت أمام الخقق .. أفحصه ويفحصني ، وأقلب فيه البصر ، كأن كلا منا
سيشتري الآخر ، وكان هو أول من نطق ، فسألني قائلا :
— اسمك ؟

فقلت اسمي ، وأجبت عن بقية الأسئلة الأولية الأخرى ، فلما انتهى منها عاد
يحملق في كأنه يحاول أن يدرسني أو يكشف عن دخيلة صدرى .. وحملت فيه
أنا الآخر فوجدته متأنقا متحذلقا .. فرحا بنفسه ، مغرورا في سلطانه
وجبروته .. محيطا نفسه بجو من الرهبة .. حتى بدا لي أن الخالق لو هبط من سمائه
ليجري التحقيق معنا .. لكان أكثر تواضعا .

طال بنا الصمت ، ولم أشك في أن صاحبنا يحاول أن ينسج الشباك ويضع
الخطط لإيقاعى ، فقد وجدته يسأل فجأة :

— أين كنت في الساعة الحادية عشرة مساء ؟

وفكرت برهة ، وأدركت أن الرجل ينوى أن يتعب نفسه ويتعبنا بلا مبرر ولا
داع .. وفضلت أن أختصر الطريق .. وأريحه من عناء التحقيق ، وألقى إليه

الاعتراف كاملا ، فقلت ببساطة :

— يا سعادة البليك .. أرح نفسك .. أنا الذى ألقيت كيس الأخلاق في النهر ، وإني على استعداد لأن أكتب وأمضى على هذا الاعتراف .
ورفع الرجل حاجبيه في دهشة وبدا عليه الامتعاض .. كأنما ساءه أن أسلبه فضل اكتشاف الحقيقة .. وأن أضيع عليه فرصة إظهار ذكائه ونبوغه .

ووجدته يقلب شفتيه ويقول في ازدراء :

— أجب على قدر السؤال ، وما تبقاش غلباوى .

— ما تبقاش غلباوى انت .. واكتب ما أقوله لك .

وضرب الرجل مكتبه بيده ، واحمر وجهه ، وفتح فاه لينادى العسكرى الواقف بالباب ، ولكن التليفون دق فجأة فرفع السماعه ووضعها على أذنه ، ووجدت أساريه تنفرج وصوته يلين .. ويهمس في التليفون بصوت رقيق ناعم :

— أهلا وسهلا .. حاضر .. حاضر .. أيوه يا أفندم من عنيه الاثنين .. الساعة سبعة ، ما تتأخريش ، أوريڤوار .

ووضع السماعه .. ثم نظر إلى وكسا وجهه سيما القسوة والجد والصرامة ، واستدعى بعض الشرر ليتطاير من عينيه ، وفتح فاه ليطلب العسكرى ، ولكن التليفون عاد يدق مرة أخرى .

ورفع السماعه .. فانطلق الشرر ، وانقلب الغضب خنوعا ، والشدة ليئا وخضوعا ، وانطبعت على تقاسيم وجهه .. أبلغ آيات الاحترام ، ووجدته يقول بلهجة الرقة والتواضع :

— أهلا وسهلا سعادة الباشا .. نقبل الأيادى يا أفندم . تحت النظر يا أفندم .. حاضر يا أفندم .. أيوه يا سعادة الباشا مضبوط يا سعادة الباشا .. بكل سرور يا سعادة الباشا .. أنا برضه بقول كده يا سعادة الباشا .. برضه أحسن يا سعادة الباشا .. مع السلامة يا سعادة الباشا .

ووضع السماعة وعاد يكسوجه علامات الصرامة والغضب .. ولكنه كان قد نسى الباعث على هذا الغضب ، فقد أحدثت به هذه المحادثات المتبادلة كثيرا من الشرود ، وأخذ ينظر إلى من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، محاولاً أن يتذكر سبب غضبه على . أو حتى من أكون وما مسألتي ، وأخيراً نظر إلى الكاتب وسأله متبرماً :

— كنا بنقول إيه ؟

— سعادتك قلت للتمهم ما تبقاش غلباوى .. فأجابكم .. ما تبقاش غلباوى

انت .

— أيوه .. أيوه .. تذكرت .

ثم صفق يديه فأقبل الحاجب مسرعاً . وفي تلك اللحظة دق التليفون مرة
ثالثة .. ورفع الرجل السماعة ووجدته يجيب في ضيق وتبرم .. « يا ستي اطيخي
إلى تطبخيه .. معرفش .. معرفش .. مش فاكر .. زى ما انتي عايزه » .
وأدركت أنه لا شك يحدث البيت ، ووجدت الحاجب يقف منتظراً .
فخطر لي خاطر عجيب .. وجدت فيه خير منقلد لنا من غضب وكيل النيابة ..
ونظرت إلى الحاجب وقلت له بصوت منخفض :
— اليه عايز يشرب .

وانطلق الحاجب ليحضر كوب ماء !

إن في كوب الماء خير معين لنا على صاحبنا .. إذ هو كما بدا لي من محادثات
التليفونية .. لم يتجرع من المياه الجديدة .. ولم تنتقل إليه علوى الأخلاق ،
ولا تبدد من نفسه النفاق .

ووضع الرجل السماعة .. وفي تلك اللحظة أقبل الحاجب يحمل كوب الماء
ووضعه أمامه فمد يده إليه وتجرعه بدون تفكير .. ثم كسا وجهه علامات
الغضب مرة ثالثة والتفت إلى الكاتب متسائلاً :

— هيه .. كنا بنقول إيه ؟!

وتنحج الكاتب وهم بأن يرد عليه ما كتب .. ولكنى قاطعته قائلاً :
— يا سيدى .. أرجوك .. إن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلى كل هذا
التعقيد وتلك الأسئلة .. إنها تتلخص فى بضعة كلمات .. إلى أقر وأعترف أنى قد
وضعت عامداً ، ومع سبق الإصرار ، مسحوق الأخلاق فى المياه .. وإلى متمالك
لقوى العقلية ، ومستعد لتحمل نتائج كل ما حدث وما سيحدث .. هل تريد
شيئاً أكثر من هذا ؟

وهز الرجل رأسه فى حيرة ودهش كأنه يشك فى سلامة عقلى .. وصاح
بالحاجب :

— هات الرجل الآخر .

وأقبل الحاجب بصاحبى الذى وقف أمام وكيل النيابة فى هدوء وأجاب على
أسئلته الأولية .. ولم ينس أن يذكر أن صناعته تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى ،
وأنة مستعد لتوريد الطلبات حتى المنازل (هذا شىء جديد لم أكن أعرفه عن
صاحبى أو ربما كان ابتكاراً جديداً بمناسبة زوال النفاق من الناس ورواج بضاعة
الأخلاق بينهم) .

وصمت وكيل النيابة برهة وبدت عليه الحيرة .. وخيل لى أن مفعول الجرعة
بدأ يؤثر فيه وسمعته يوجه القول إلى صاحبى :

— ماذا تعرف عن كيس الأخلاق ؟

— إلى صاحبه .

— ومن الذى وضعه فى الماء ؟

فأشار لى مجيباً :

— هو .. وإن كنت أعتبر أنى متضامن معه فى كل ما فعل . وأنى أشاركه

المسئولية عن كل ما حدث .. بل وأتحمل عنه كل عقاب .. فإن الذنب ذنبى ..
فهو طائش أحمق لم يكن يدرى قط مغبة عمله .. ولا كان يتصور أنه سيؤدى إلى
تلك النتائج .

وهرش وكيل النيابة رأسه وبدأ لى أن الجرعة تتفاعل فى جوفه ، وأن الأخلاق تسرى فى نفسه ، وأطرق برهة فى صمت ، ثم رفع رأسه متسائلا فجأة :
— منذ متى ، وأنت تملك هذا الكيس ؟

فأجاب صاحبي :

— منذ مدة طويلة .

وهنا بدأ يظهر مفعول الجرعة فقد هز وكيل النيابة رأسه فى حمرة وأسف وقال :

— منذ مدة طويلة ، وأنت تملك هذا الكيس ١١٩ يا للأحق المأفون ... وكيف سمحت لنفسك طول تلك المدة أن تحتفظ بالكيس دون أن تلقى به فى النهر .. أيها المجرم الأثيم ؟! كيف سمح لك ضميرك بأن تترك النفاق يرعى فى جسد الأمة ويلوث الناس .. دون أن تحاول أن تتقدم لهم بالعلاج ؟

ثم صاح بالحراس طالبًا منهم أن يعيدونا إلى السجن ، وهو يتنعم قائلا :
— هذه مسألة خطيرة .. لا بد من عرضها على النائب العام .

وعدنا إلى السجن ، ومر بنا اليوم الأول ثقيلًا مملًا ، وبتنا ليلتنا فى نوم قلق متقطع .. وفى الصباح طلبتنا النيابة للتحقيق مرة أخرى .. وقبل أن نذهب إلى وكيل النيابة استطعنا الحصول على إحدى الجرائد الصباحية فقرأنا العنوان الآتى بالخط العريض :

« القبض على المجرمين الخطيرين والتحقيق معهما » .

وكيل النيابة المحقق يصاب بالأخلاق فجأة .. فيطلب تبرئة المتهمين ، أو محاكمتهم على احتفاظهما بكيس الأخلاق مدة طويلة دون أن يلقيها فى الماء .
ثم جاء بعد ذلك ما لى :

قبض فى ساعة مبكرة من النهار على المجرمين الآثمين اللذين ألقيا بجرائم الأخلاق فى الماء وأودعا السجن رهن التحقيق ، وفى الساعة العاشرة صباحًا طلبا للتحقيق ، ولكن أحدهما احتال على وكيل النيابة وسقاه جرعة من الماء الملوث (أرض النفاق)

فأصيب بالأخلاق .. ورفض مباشرة التحقيق ورفع تقريراً إلى النائب العام يطلب منه تبرئة المتهمين أو محاكمتهم بتهمة السكوت على مصاب البلد دون أن يحاول التقدم بالعلاج رغم اعترافهما أنهما كانا يملكان العلاج منذ مدة طويلة . وقد أمر وكيل النيابة بالتنحي عن التحقيق .. وعين آخر لإعادة التحقيق بدلا منه ، وستتخذ الاحتياطات اللازمة لتحصيله ضد وباء الأخلاق .

وقد بلغنا والجريدة ماثلة للطبع أن الجهات المسئولة قد استطاعت أن تحجز كمية من المياه غير الملوثة التي ستخصص لمن ييدهم الأمر .. ولأصحاب الأمر .. ولأصحاب المناصب العليا الذين تخشى عليهم الدولة من وباء الأخلاق .. ويدخل ضمن هؤلاء كل من سيتولى أمر التحقيق مع المتهمين والنظر في قضيتهم .. حتى لا يتكرر ما حدث من المحقق المصاب .. وحتى ينال المتهمان ما يستحقان من عقاب على سوء فعلتهما .

وقد بلغنا كذلك أن كميات من الماء الملوثة قد أعدت للفحص والتحليل ، وأن التجارب ستجرى لمحاولة عمل مصل واق من الأخلاق ، وإن كان الأمل في ذلك ضعيفاً جداً .

ولم يتضح بعد ما إذا كان الوباء ينتقل بالعدوى .. ولكن السلطات المسئولة جادة في عمل معازل خاصة للمصابين .. وستصدر أوامر للتبليغ عن كل حال اشتباه أو إصابة بالأخلاق .

وطويت الصحيفة ونظرت إلى صاحبي وقلت في يأس :

— لا فائدة .. لقد ضاع منا كل أمل .

وسألني صاحبي في دعر :

— كيف ؟

— إن المسئولين سيحصنون أنفسهم ضد الأخلاق .. وسيكون وكيل النيابة المحقق سليماً معافى .. وكذلك القضاء .

— هذه نكبة كبرى .. لقد كان كل أملنا في إصابتهم بالأخلاق .. واحسرتاه

لقد ضاع العمر سدى !!

— لن يضيع العمر يا صاحبي .. ولو ضاع .. ما ضاع سدى .. أهناك خير من

أن نموت ونحيا الأخلاق ١٩

— أبداً .. فقط ليتها تحيا ..

ووقفنا أمام وكيل النيابة الجديد .. المحصن ضد الأخلاق .. ولم يكن مظهره

يشر بالخير .. بل استطعت أن أقرأ من سيمائه أنه قد نوى شرًا .

ولم يطل بنا التحقيق ... فقد كان اعترافنا واضحًا جليًا لا يحتمل التحقيق .

ومرت بنا الأيام ونحن في غياهب السجن .. حتى كان ذات صباح استدعينا

للمحاكمة ، ووقفت وصاحبي في قفص الاتهام قلب البصر بين الجماهير

المحتشدة في ساحة المحكمة .. واستطعنا أن نميز بينهم المعارف والأهل والأصدقاء

وقد أخذوا يلو حون لنا بأيديهم ويسألوننا التجلد والتشجع ..

وافتححت الجلسة ، وجلس القضاة يحدقون فينا بنظرات قاسية صارمة ..

وملأني التشاؤم إذ لم يبد عليهم أى أثر للوباء .. وباء الأخلاق .

ونودى على الشاهد الأول .. وهو الرجل الذى كان ينصت إلينا في تلك الليلة

السوداء والذى وشى بنا وأرشد الشرطة إلينا . ولم تستغرق شهادة الرجل سوى

بضع دقائق .. ثم بدى بعد ذلك في عرض عينات من المجنى عليهم ممن أصيبوا

بوباء الأخلاق وزال من نفوسهم النفاق ، أو ممن أصابهم المجنى عليهم بأضرار

وعاهات .. بعد أن أزيل عنهم حجب الرياء وستر المداهنة والكذب .

وبدأ وكيل النيابة يسرد التهمة في تفصيل وإسهاب قائلاً :

— أماكم أخطر مجرمين عرفهما التاريخ .. مجرمان تضاءلت أمام جريمتيها

كل جرائم عرفتها الإنسانية وارتكبتها البشر .

لست أدري أى عقاب يمكن أن يتناسب وفداحة الإثم الذى ارتكباها ، فإن

المشرعين الذين وضعوا القوانين لم يخطر على بالهم قط أن هناك إنسانا يمكن أن

يرتكب تلك الجريمة التى ارتكباها ..

هذان المجرمان المائلان أمامكما .. قد تسببا في فناء البشر .. لقد جردا الناس من خير قناع كانوا يخفون به خباياهم وشروهم .. لقد كشفوا عن حقيقتهم المروعة وتعرت نفوسهم من كل ما كان يسترها ويحجب عورتها .. كيف يستطيع الناس أن يحبوا بلا نفاق ؟! كيف يستطيعون أن يحتمل بعضهم بعضًا .. ؟! كيف يستطيع الزوج أن يعيش مع زوجته لحظة بلا رياء ولا نفاق ؟! كيف تستقيم الأمور وكيف تنقضى المصالح ؟! كيف تنتظم الحياة ويتعامل الناس وقد خلوا من النفاق ؟!

كيف تنشأ الأحزاب ، وتؤلف الوزارات ؟! من ينادى بأمانينا الوطنية .. ومن يخطب .. ومن يكتب ؟

كيف يحدث كل هذا .. بعد أن زال النفاق ؟! وماذا يقول الخطباء ويكتب الكتاب ؟! وماذا تفعلون أيها القضاة وماذا يفعل المحامون .. بعد أن انتشر وباء الأخلاق ؟!

إن البشر سينتحرون جزعًا وفزعًا إن لم يدر كنا الله برحمة من عنده .. فيعيد إلى أنفسنا ما تبدد من نفاق .. ، ويزيل عنا ما ابتلاها به هذان المجرمان من أخلاق . يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. فالجريمة واضحة وضوح الشمس ، والمجرمان معترفان .. فلا تأخذكم بهما رحمة ولا شفقة .. فإن نفسيهما الشريرتين وجسديهما النجسين لا يستحقان أية رحمة .

إني أطلب أن تحكموا عليهما بالإعدام .. ويودى لو استطعت أن أطلب أكثر من هذا ، فأني أرى في مجرد إعدامهما رحمة بهما وخلاصًا لهما من هذه الدنيا الموبوءة بالأخلاق .

يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. هل تروني مبالغًا .. لو سألتكم أن تحكموا عليهما بالإعدام .. على أن يكون الحكم مشفوعًا بتوصية إلى السماء تؤدي بهما إلى جهنم وبئس القرار .. إنني أعلم أن في طلبى

هذا شيئاً من الغرابة .. وأن ليس من سلطة القضاء التوسط لدى السماء .. ولكن لِمَ لا نجرب . على أن تكون التوصية في صورة دعاء حار .. يدعو فيها القضاء على المتهمين بأن يخرب الله بيتهما .. ويمرط بهما السماء ويسود آخرتهما .. ولا يريهما نصفه ولا حسنة .. ولا يعطف عليهما بلحظة في الجنة ، بل يخلدهما في الجحيم مع أمثالهما من الأبالسة والشياطين .

وصمت وكيل النيابة وأخذ يحفف عرقه بمنديل في يده وطلب جرعة ماء .. فأخرج أحد الشرطة زجاجة من جيبه وأفرغ له منها في كوب في يده ، فتناول الرجل جرعة واحدة وبدت عليه علامات الاشتماز وهمس قائلاً :

— هذا هو المصرح به لسعادتكم بأمر الحكومة .

وصمت الرجل مكرهاً ووضع الكوب أمامه على المنضدة ..

ونظرت إليه وهززت رأسى في أسف ودهشة .

هذا الرجل لم يكتف بأن يسأل القضاة حكمهم الأرضى بل يطلب منهم التدخل في حكم السماء .. آه .. من لى بجرعة واحدة من المياه الملوثة .. أدفع بها في جوفه !

ولم أكن قد طلبت عمامياً للترافع عنا .. فقد كنت موقناً من براءتنا .. واثقاً من قدرتى على الدفاع عن نفسى وعن صاحبى .

وطلبت كلمة الدفاع .. فقلت لهم إني سأتكلم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة

عن صاحبى ، وبدأت مرافعتى قائلاً :

— يا حضرات المستشارين .. كم كان بودى لو تنوقتم تلك المياه الجديدة التى

لوثت بالأخلاق .. والتى وضعتمونا من أجلها في هذا القفص ، والتى دفعت

بوكيل النيابة إلى أن يسألكم أن تحكموا بالإعدام علينا .. ولكنى أعرف أنها

محظورة عليكم ، ومع ذلك فإني سأتحدث إليكم فما زال أملى في عدالتكم

كبيراً .. رغم أنكم لم تصابوا بعد بالأخلاق .

قضيتنا اليوم .. تلخص في كلمتين .. هى .. نفاق .. أو لا نفاق .. هل

يمكن أن تستقيم الحياة بلا نفاق .. أم لا بد لها من النفاق ١١٩
دعكم من تلك المظاهرات ، وهذه الاضطرابات التي ترونها .. فلست أرى
فيها إلا رد فعل سرعان ما سيزول ، وسرعان ما ستعود بعده أن نبصر أنفسنا
سافرين مجردين من حجب النفاق والرياء .. فنعمل على إصلاح ما فسد ..
وتقويم ما اعوج .

أقسم لكم أيها السادة أننا سنصلح في بضعة أشهر ما عجزنا عن إصلاحه في
عشرات السنين .

هل يعجبكم هذا الحال الذي نحن عليه ؟! هل يعجبكم هذا العالم الذي نعيش
فيه .. والذي يتحكم فيه نفر من البشر ، يدفعون بالشعوب إلى أتون الحروب ،
كأنها خراف الضحية أو كباش الفداء .. فداء أنفسهم الخبيثة الحمقاء ، ونفاقهم
المر الكريه ؟!

من يستطيع منكم أن يفهم السياسة الخارجية الخبيثة المتلوية .. المليقة بالنفاق
والرياء .. كل منهم يستر شروره وراء ستار زائف من الدفاع عن الحرية والمبادئ
السامية ، والشعوب مستسلمة راضخة ، لم تكذ تجف دماؤها أو ترمم خرابها
حتى يلوحوا بخراب جديد ودمار عاجل .

لو زال النفاق من الدنيا ، لكشف هؤلاء اللؤماء ، عن دخيلة أنفسهم ،
وخباثت صدورهم ، ولأدركت الخراف الآدمية أنها الضحية ، كاسبة كانت أو
خاسرة ، ولأحجموا عن أن يساقوا إلى المذابح البشرية .

هؤلاء المنافقون الذين يقودون العالم إلى التهلكة ، هؤلاء الذين يسمونهم
بالسياسيين الذين يظهرون غير ما يطنون ، ويقولون ما لا يعنون ، المضلون
المطفقون ، الذين يضللون الناس في غياهب النفاق وظلمات الرياء ، ويضلون
هم أنفسهم ، ويتخبطون في دياجير من الشك ويحيدون عن جادة الصواب ،
ولا يعرفون ماذا يريدون ، ويصبح الأمر بين أيديهم أشبه بخيط معقد ملتو لا
يعرفون أوله من آخره ، فيلجئون إلى العنف والتهديد بالحرب ، وينزلون بالبشر

إلى مستوى الحيوان ، الذى يعجز عن التفاهم بعقله ، فيعض بأسنانه أو يرفس برجليه .

لو تبدد النفاق من النفوس لأفلحت هذه العصابات التى أنشئوها لحراسة الأمن وإقرار السلام .. هذه الهيئات الصورية التى تجمع قوماً من المنافقين المخادعين الفجرة الأشرار ، الذين لا يرون الحق إلا فى جانب القوى .. أما الضعيف فصيحته لا تصل إلى آذانهم ، والذين يدينون القتل لأنه أجهد القاتل فى قتله ، ويؤنبون المضروب لأنه أزعج الضارب بصياحه .

لولا النفاق ، ما سلب من صاحب حق حقه ، وما طرد شعب من أرضه ليحل الغريب فى أرضه .

لولا النفاق ما اعترف بالضعيف رباً للبيت ، وارب البيت دخيلاً متجهماً .
لولا النفاق يا سادة ، ما اتهم أصحاب القبلة الذرية العرب المسالين بأنهم خطر على الأمن والسلام .

هذه يا سادة هى سخرية النفاق والمنافقين .. يا لها من سخرية رائعة !!
يا حضرات القضاة .. هذا هو بعض ما فعل النفاق بالعالم .. أما ما فعل بامتنا فهو جم وفير .

أمة من عشرين مليوناً ، يعيش ثلاثة أرباعهم على هامش الحياة ليس بهم من الآدميين شبه ولا صلة .

أمة يعيش ثلاثة أرباعها ، عيش البهائم .. حفاة عراة ، لا يكادون يأخذون من الحياة إلا ما يقيمهم على قيد الحياة .

أمة ثلاثة أرباعها عبيد ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ومع ذلك فهى أمة ديمقراطية ، بها برلمان والسلطة فيها هى سلطة الشعب .

يا للنفاق !! ويا للرياء !!

تصوروا أن السلطة فى هذا البلد هى سلطة الشعب !!
هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين .. إما شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيعون عنه من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح حاله ويعالج مصابه

ويزيل عن نفسه ذلك القيد الثقيل من الفقر والجهل والمرض ، وإما أنه شعب زاهد قد تعود ذلك البؤس الذى يرتع فيه والحرمان الذى يأخذ بخناقفه .. أو من يدري ربما يكون .. من فرط حبه لأولى الأمر فيه ، وولعه بأسياذه .. قد أبى إلا أن يحرم نفسه العيش ليؤكلهم الفطائر . فيجوع ليتخموا ، ويموت ليحيا ١١
يا للنفاق اوبيا للرياء ١١

هذا الشعب — مصدر السلطات — ماذا فعلوا لإصلاح حاله ١٢ إنهم يريدون كأنهم يفعلون الشيء الكثير ، ومع ذلك فما ظهر أثر هناك لما فعلوا وما يفعلون .. ترى ما السبب ؟ السبب بسيط ، هو أن كل ما فعلوه نفاق فى نفاق ١٢

إي والله ، إن النفاق ، هو أصل الداء ، ومنبع العلة ، فلو أنهم فعلوا لظهرت آثار ما فعلوا ، ولو أنهم لم يفعلوا لأدرك الشعب أنهم لم يفعلوا ، فعرف كيف يفعل هو ١١

لنستعرض بعض ما فعلوا لتعرف مبلغ ما به من صدق ومبلغ ما به من نفاق ، لنستعرض تلك المشروعات التى هللوا لها وكبروا ، والتى ملأوا الدنيا حولها دعاية وضجيجًا .

إنى لأذكر الآن أحدها وهو مشروع مجانية التعليم الابتدائى الذى طلبوا له وزمروا ، وهتفوا له وصفقوا ، اعتبروه منحة للشعب البائس التمس ، وخطوة فى سبيل إصلاحه ، وما زالوا حتى الآن يتفاخرون به .

ترى هل أدى المشروع غرضه ؟ وهل أتاح لأبناء الشعب التعليم المجانى ؟

كلا والله .. لقد كان المشروع منحة لأبناء الأغنياء ، بلا أية مناسبة ١١

فالمفهوم أنه قبل أن نعم المجانية فى التعليم ، يجب أن نعم وسائل التعليم ، وأن يكون لدينا من المدارس ما يكفى لهذا التعليم عندما يصبح مجانئًا ويقبل عليه كل أبناء الشعب ، ولكن الذى حدث هو أن عمت مجانية التعليم وبقيت وسائله محدودة كما هى لا تكاد تسمح إلا بالعدد الذى كان يتعلم أولا ، وأصبحت المجانية

مقصورة على من يقبل في تلك المدارس وضمنهم أو أولاد الأغنياء .. الذين سيفضلون بالطبع — ونحن في بلد الوساطات — عند القبول على غيرهم من أولاد الفقراء !

وهكذا وجد وزير المالية ، ووزير المعارف ، أبناءهم يتعلمون مجانا ، واستمر أبناء الشعب المساكين ، لا تتاح لهم فرصة التمتع بالمجانبة ، لأنهم لم تتح لهم فرصة الدخول في المدرسة .

كل هذا لأن المشروع لم يقصد به سوى الدعاية ، ولأن أصحابه كانوا من كبار المنافقين .

ومشروع رفع أجور العمال .. ماذا كانت فائدته ؟ ماذا يمكن أن تكون فائدة مشروع لا يطبق إلا على القلة من العمال الحكوميين .. أما العامل الزراعي ، وهو الأغلبية العظمى في هذا البلد ، فما زال كما هو .

ومشروع الحفاء ومشروع البر ، وغيره ، وغيره ، من كل هذه الفقايع التي تذهب جفاء ، والتي لا نحس منها سوى الفرقعة الجوفاء والرنين الزائف . وتلك الاجتماعات ، والخطب ، والمشروعات التي تطالعا على صفحات الجرائد بالخط العريض ، وكلها نفاق في نفاق .

هل رأيتم أيها السادة ، أمة تعالج بالنفاق كهذه الأمة ؟ لقد عاجلوا مرض الشعب باللجان والاجتماعات ، وقضوا على فقره وجوعه ببضعة مطاعم وولائم ، وعلى جهله بالوعود والتغنيات . أتراهم يظنون أن الشعب هو هذه القلة المحيطة بهم ؟! أتراهم يمدعون أنفسهم أم يمدعون الشعب ؟!

كل هذا أيها السادة مبعثه النفاق ، وأقسم لكم أنه لو استمر الحال على ذلك لكان السادة أول ضحاياه .. أجل إنهم سيكونون أول من يجنى عاقبة نفاقهم ، فما بمثل هذا يكون إصلاح حال الرعية وعلاج مصاب الشعب .

أيها السادة .. إن النفاق هو الذى فعل بنا ما فعل .. إن المنافقين الذين يحيطون بأولى الأمر ويخفون عنهم الحقائق ويدلون الأمور ، هم شر ما ابتلى به أولو الأمر وابتلى به الشعب ، هؤلاء هم الستار الزائف الذى يزين لأولى الأمر المساوئ .. ويجمل الشرور ، ويملأهم رضا وارتياحاً .. ماذا نخشون إذا من زوال النفاق ؟ أو بعد كل هذا تعتبرون من أزال من نفوسكم النفاق مجرمًا أثمًا يستحق الحكم بالإعدام ؟

يا حضرات القضاة والمستشارين : إني بحكمكم راض ، احكموا على بالموت إذا شئتم .. فحبذا الموت فى سبيل القضاء على النفاق .

وانتهيت من المرافعة وساد القوم سكون عميق ، ثم هبت بعده عاصفة من الهتاف والتصفيق من جمهرة المتفرجين ، وقال القاضى بصوت عميق بأن الحكم بعد المداولة ، ونهض القضاة وخلفهم أحد الحجاب يحمل الزجاجة إياها الملية بالماء غير الملوّث والذى يقيم شر الأخلاق .

ونظرت إلى الحاجب فى حسرة وأسى وتمنيت لو سقطت منه الزجاجة فتحطمت وسكب ما بها حتى لا يجد القضاة ما يشربونه سوى الماء الممزوج بالأخلاق .. لقد كان هذا هو أمل الوحيد !

وتناديت الحاجب ، فتوقف برهة ، ثم اقترب من القفص ، وهمست فى أذنه :
— أنا فى عرضك .

وهز الرجل رأسه مستفهمًا عما أريد ، فأردفت قائلاً :
— روحى فى أيديك .

ورأيته ينظر إليّ فى عطف شديد ويحيينى قائلاً :

— لا تخف .. لست فى حاجة إلى رجاء ، فإنى أعرف ما تريد .. إني أفهم كل

شئ ، وكيف لا أفهم ، وقد شربت من مائك وزال من نفسى النفاق ؟ ومضت فترة من الوقت ، وأنا أدعو الله أن يصيب القضاة بظلمة شديدة ، وأن ينجح الحاجب فى إبدال المياه التى بالزجاجة .

وأخيراً أعاد القضاة ، ولم أنظر إليهم ، بل نظرت إلى الحاجب ، وإلى الزجاجة في يده ، فإذا بها كما هي ، لم تنقض قيد أثملة ، ورأيت الحاجب يهز رأسه في حسرة وأسى .

وأسقط في يدي وشعرت باليأس وأصابني هبوط شديد ، ونظرت إلى صاحبي ، وقلت له في حزن :
— لا فائدة .

وكان التجهم يبدو على وجه القاضى والقسوة تشيع في ملامحه ، وبدأ في قراءة الحكم في لهجة صارمة فقال :

— إن جرميتكما كما قال المدعى ، هي شر ما عرف التاريخ ، وإن القانون لم يضع العقاب الذى يتعادل وخطورتها ، فإن حكم الإعدام أقل مما تستحقانه ، ولقد خطر لنا أن نغززه بالدعوات التى يطلبها النائب العام ، ولكننا خشينا ألا تستجاب دعواتنا .. وهكذا وجدنا أنه لا بد لنا من التفكير فى عقاب أشد قسوة ، وأخيراً اهتدينا إليه .

إن حكم الإعدام سينقذكما من الحياة ، وتكون النتيجة أنكما تفران من الدنيا بعد أن فعلتما فعلتكما ، وتركتما البشر بلا نفاق يعانون من الأخلاق ومصائبها وبلاياها ، ولذا فقد رأينا أن أقسى عقاب يمكن أن نحكم به على مثلكما ، هو ألا نتيح لكم فرصة الفرار ، وأن نبقىكما فيها لتفاسيا من شرورها ولتحملا نتائج عملكما .. وعلى ذلك فقد استقر رأينا على أن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلا لأن نحكم عليكما بالحياة .

وساد الصمت وتملكتنى دهشة شديدة ، ثم هجمت على صاحبي أوسعها عناقاً وتقبيلاً ، وعلت من ناحية المتفرجين ضجة وصياح وهتاف وتصفيق .
ولم تمض لحظة حتى وجدت نفسى وصاحبي مطلقى السراح وقد حملتنا الجماهير على الأكتاف وساروا بنا يشقون الشوارع فى مظاهرة صاخبة وقد تعالت هتافاتهم :

— يحى علو النفاق — يسقط النفاق والمنافقون — لا نفاق بعد اليوم —
نريد ماء الأخلاق — ليسقط أعداء الأخلاق .
ورأيت شعبة من المظاهرة تنج لتريق الماء غير الملوث الذى احتفظ به أولو
الأمر لينجهم من وباء الأخلاق وليرغموهم على شرب الماء الملوث .

* * *

وهكذا سرت الأخلاق بين الناس ، وتبدد منهم النفاق وذهبت موجة الفرع
التي أصابتهم عندما كشف القناع عن نفوسهم وظهرت لهم خباياهم وخسبهم
ولؤمهم ، وأحسوا بما هم عليه من ضعة وسوء ، فتملكهم الخزي والحجل
وأخذ كل منهم يستر عورة نفسه التي كشفها ضياع النفاق .
وبدأت الأمور تستقيم بعد فترة اضطراب فتولى الأمور فى البلد قوم غير
منافقين ، وأجريت فيها لأول مرة انتخابات حرة ، وتكون برلمان بلا نفاق ،
فأضحى الشعب حقاً هو مصدر السلطات فبدأ فى إصلاح حاله ، وإقاله عثرته ،
ووضعت من أجله المشروعات النافعة المجدية ، وردت إليه حقوقه الضائعة ،
وأخذ من غنيه حق فقيره ، وأطعم من جوع وكسى من عرى ، وأضحى يتمتع
فى عيشه بما يتمتع به الآدميون .

وراجت تجارة صاحبى ، وأقبل الناس عليه يطلبون المزيد من الأخلاق .
وجلس فى الحانوت لأشراكه فى تجارته وأوزع على الناس شريات
الشجاعة ، احتفالاً بنجاحنا فى تبديد النفاق وفى إغراء الناس بالأخلاق .
ووجدت صاحبى يصبر على ألا يتناول من الناس ثمن ما يبيعهم قائلاً لهم : إن
الحساب يوم الحساب ، فزاد بذلك من إقبال الناس عليه ، وتوافدوا على الحانوت
من كل حذب وصوب ، ولم يطل بنا الأمر ، حتى كان كل ما بالханوت من
أخلاق قيد نفذ ولم يعد به سوى أكياس فارغة .
وجلست وصاحبى فى الليل أسأله : ماذا ستفعل عندما يقبل الناس علينا فى
الغد فلا يجدون لدينا شيئاً من الأخلاق ؟

وهز صاحبي رأسه وأجاب :

— اطمئن .. إن الأخلاق لا تنفذ أبدًا ، سأعوضهم عن المسحوق بيبضع كلمات تصلحهم مدى الحياة .

وفي الصباح أقبل القوم على الحانوت يتزاحمون ويتصايحون ، وخرج صاحبي إليهم فأسكتهم بإشارة من يده ، وسألهم في رفق :

— ماذا تريدون ؟

فتصايح الناس : أخلاق ، شجاعة ، نزاهة ، إخلاص .

فعاد صاحبي يشير إليهم بالسكوت :

— صبرًا .. هذه كلها أشياء موجودة في نفوسكم ، ولكنها راقدة في غفوة ، لقد علاها الصدأ من طول الركود ، شيء واحد هو الذي يحركها ، وهو أن تتبعوا بإخلاص قول القائل : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . لا تفعل شيئًا إلا إذا تذكرت كيف تود أن يفعله معك غيرك .. ضع نفسك دائمًا مكان سواك ، ثم عامله كما تعامل نفسك ، إذا وددت أن يظلمك غيرك فاطلم .. إذا رغبت في أن يشي بك غيرك فارتكب التهمة والوشاية .. إذا أردت أن يقسو عليك الناس فاقس عليهم .. إذا أردت أن تؤكل أموال أولادك إذا ما تبنموا فكل أموال اليتامى .. إذا أردت أن يخونك الناس فخهم ، وإذا أحببت أن تهان فقدم الإهانة .

إيها الناس .. إذا أمكنكم أن يعامل بعضكم بعضًا كما تعاملون أنفسكم فكفى بهذا دينًا .. إن الدين عند الله المعاملة .

وصمت الناس برهة ، ثم وجدتهم يقبلون بعضهم على بعض فيتصافحون ويتعانقون ، ثم ينصرفون عنا شاكرين هائنين ، وقد علا البشر وجوههم ، وبدأت عليهم القناعة والرضا .

وأخيرًا خلا المكان إلا مني ومن صاحبي ومن مخلوق آخر جلس ينظر إلينا في هدوء وهو الفأر « شولخ » .

وأمسك صاحبي بالفأر فوضعه في جيبه ثم مد يده إليّ وشد على يدي وهمس في أذني : أستودعك الله ، لقد بلغت الرسالة ، أشكر لك معاونتي على تبليغها . وشدت على يده وأجبتة :
— الشكر لك أنت .

وافترقنا .. وذهب كل منا في طريقه وهو يهتف بي :
— لا تنس هذا القول الذي تحفظونه عن ظهر قلب دون أن تحاولوا قط العمل به : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

هذه قصة النفاق والمنافقين وأرض النفاق ، قصة قد يكون فيها بعض الشطط وبعض الخيال ، ولقد كنت أنوى أن اختتمها كما يختم كتاب القصة عادة قصصهم الخيالية ، على أنها حلم ، وعلى أني فتحت عيني فوجدت نفسي راقداً على الأريكة في الدار .

ولكن يخيّل إلي أن ما بها من حقائق قد طغى على ما بها من خيال ، حتى بت أربأ بها — وهي صبيحة خالصة منطلقة من أعماق صدري — أن تكون مجرد حلم .. فاعذروني إذا ما ختمتها عند هذا الحد ، واعذروني إذا ما ادعيت أنها حقيقة واقعة . وأن خاتمها أمنية نجيش في صدري .

يا أهل النفاق !! تلك هي أرضكم .. وذلك هو غرسكم .. ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها .. فإن رأيتموه قبيحاً مشوهاً ، فلا تلوموني بل لوموا أنفسكم .. لوموا الأصل ولا تلوموا المرأة . أيها المنافقون !! هذه قصتكم ، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجمني بحجر .

« تمت »

مكتبة مصر
٢ شارع كامل مكتبي - البغداد

36

Bibliotheca Alexandrina



0294983

المن ٦ جيبات

دار مصر للطباعة
تعدد جوده التجار وفر كاه